فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

418

كانون الثاني 2021

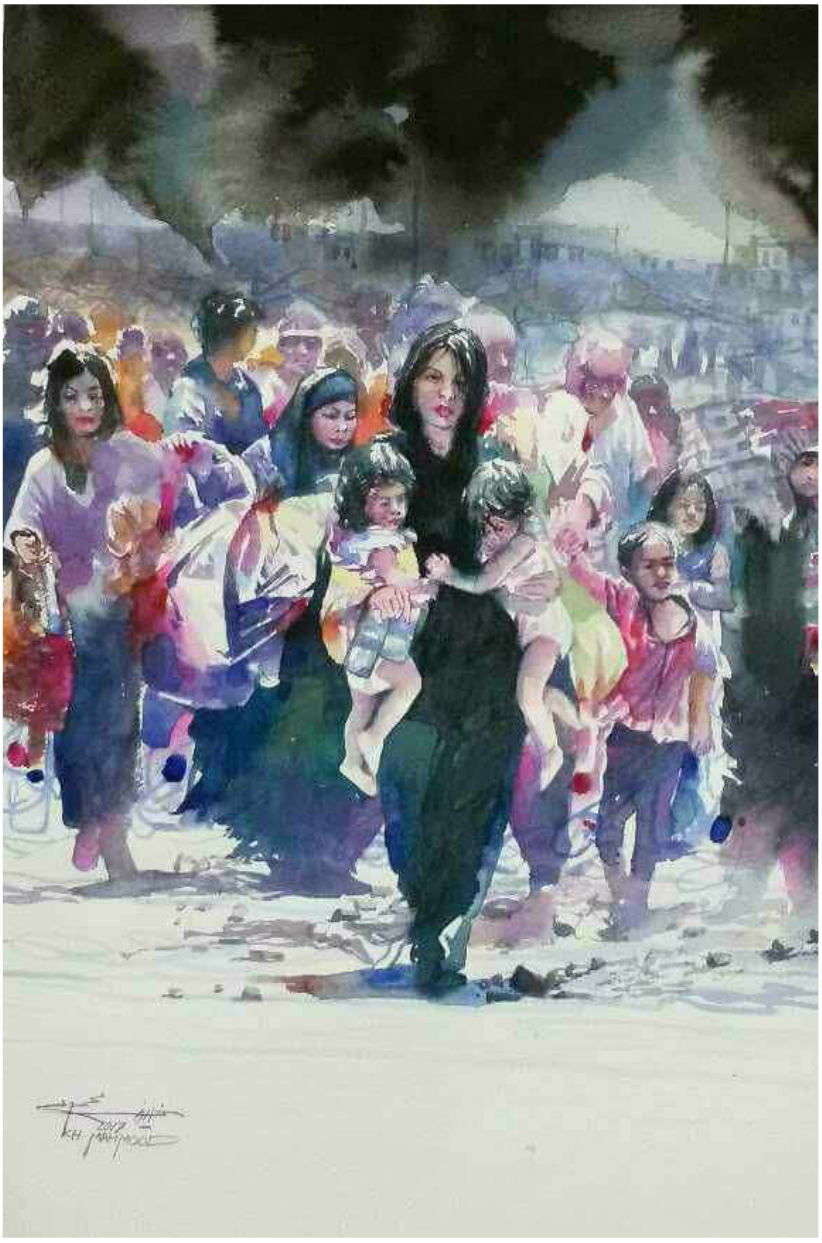

مقالات

فرح صابر

صبري زاير السعدي

جاسم علي هداد

علي مهدي

عادل كنيش مطلوب

كاظم المقدادي

معتز محي عبد الحميد

هاشم نعمة

نصوص قديمة

زهير الجزائري

نصوص مترجمة

أنطونيو نيغري ومايكل هاردت

حوارات

حوار مع القاضي سالم روضان الموسوي

أدب وفن

حسب الله يحيى

باقر جاسم محمد

جابر خليفة جابر

سجاك فان ديرغيست وجيرت مومرستيج

يوسف رشيد

محمود قاسم

نجم حيدر

زهير بهنام بردى

ريسان الخزعلي

سماح عادل-عمر القطان

يوسف أبو الفوز

رنا صباح خليل

ذياب شاهين

التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 418
كانون الثاني: 2021

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
Culture1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- قراءة في سوسيولوجيا المثقف العربي والثقافة العربية المعاصرة ..... فرح صابر
18- الانهيار الاقتصادي و"الورقة البيضاء" التي تحرث في الماء ..... صبري زاير السعدي
20- دولة المواطنة وإعادة بناء الدستور العراقي ..... جاسم علي هداد
32- في تنظيم التعيين للوظائف القيادية ..... علي مهدي
39- الاتجاهات الحديثة في توليد الطاقة من مصادر متجددة ..... عادل كنيش مطلوب
47- كورونا والتلوث البيئي ..... كاظم المقدادي
58- العنف الامني المسيس ضد المتظاهرين.. الأسباب والنتائج ..... معتز محي عبد الحميد
68- قراءة في كتاب "الجهاد في الغرب: صعود السلفية المقاتلة" ..... هاشم نعمة

نصوص قديمة

76- شباب (فهد) وصبا الحركة الشيوعية في العراق ..... زهير الجزائري

حوارات

86- (الثقافة الجديدة) تحاور القاضي سالم روضان الموسوي ..... اجرى الحوار: سوران قحطان

نصوص مترجمة

102- المرآة السوداء.. لماذا المقاومة تسبق السلطة؟بقلم: أنطونيو نيغري ومايكل هاردت ... ترجمة: رشيد غويلب

أدب وفـــــن

112- في البدء: الثقافة الجديدة .. ثقافة تتجدد ..... حسب الله يحيى
113- نقد: المتن الشعري السيابي و لغة الخطاب النقدي ..... باقر جاسم محمد
117- شهادة: بصرياثا: تحرير القراءة والألوان ..... جابر خليفة جابر
124- انثروبولوجيا: السريروالثقافة...كتابة سجاك فان ديرغيست وجيرت مومرستيج ..ترجمة :هناء خليف غني
130- مسرح:مسرحية (فلك اسود) والاحتفاء بالملفوظ النصي ..... يوسف رشيد
134- سينما: يوسف جوهر ... رباط مقدس مع السينما ..... محمود قاسم
138- فلسفة: جدلية الفكر والفن ..... نجم حيدر
143- نصوص: نصوص تتسلق يديك ..... زهير بهنام بردى
145- النافذةُ تَسعُكلَّ المواجهين ..... ريسان الخزعلي
147- وجهاً لوجه: محمود سعيد: قراءة الرواية تضع لبنة احتجاجية (ج1) ..... سماح عادل- عمر القطان
155- قصة قصيرة: اخْتِيَارٌ ..... يوسف أبو الفوز
160- كتب جديدة :إشارات دلالية في رواية (مسرات سود) لـ (علي فواز) ..... رنا صباح خليل
163- " جمر وندى " سيرة من لا يندثر ..... ذياب شاهين
167- (مجلة الثقافة الجديدة ودورها الثقافي ..) لابراهيم الخياط ..... أ. بدران

لوحتا غلافي العدد: للفنان خليف محمود المحل

ليكن عام 2021 عاماً للأمل المتجدد بالتغيير

أبتْ الحكومة على العام 2020 أن يقضي أيامه الأخيرة مع العراقيين دون منغصات اضافية، وكأن حياتهم خلال هذا العام، لم تكن مليئة بالفواجع والهموم والمتاعب. وإذا كانت الاعوام والعقود الاخيرة التي مرّت بالعراقيين، سيئة ومليئة بالجراح في الغالب، فإن عام 2020 يمكنه أن ينافس على أولى المراتب في تصنيف الأسوأ من بينها. فهو وإن كان عام الانتفاضة ومآثرها البطولية، لكنه ايضا كان عام جراحها النازفة، وعام أزمة بنيوية متعددة الصُعد، وتغول المليشيات والعصابات المنفلتة، كما انه عام تفشي وباء كورونا، وما خلّفه من مصائب ومآسي.

كان الاقتصاد العالمي قد دخل كما هو معروف، في حالة من الركود العميق، وذلك بسبب تفشي وباء كورونا. ونتيجة لهذا الركود انخفضت أسعار النفط بشكل حاد. ولكون العراق يعتمد أساسا على واردات النفط، فقد تسببت أسعار النفط المنخفضة هذه بأزمة سيولة مالية كبيرة في العراق، انعكس تأثيرها بشدة طوال الأشهر الـ 10 الماضية على المواطنين العراقيين اقتصاديا واجتماعيا. ووصل الأمر الى حد أن الدولة عجزت على مدار اشهر عدة عن الايفاء بـالتزاماتها المالية، حتى إزاء موظفيها. وكي تفي الدولة بهذه الالتزامات، كانت "هدية" أعياد الميلاد المجيد للعراقيين، عبارة عن سلسلة من الإجراءات الاقتصادية "الاصلاحية" التقشفية، المستعجلة وغير المدروسة. استهلت هذه الاجراءات بقرار البنك المركزي العراقي بخفض قيمة الدينار العراقي تجاه الدولار، ثم سيعقبها لاحقا كما تبين عددٌ آخر من الاجراءات "الاصلاحية" في بنود موازنة 2021، من ابرزها تخفيض فعلي في رواتب موظفي الدولة، مصحوبا بزيادة في الضرائب والرسوم.

إنّ هذه القرارات في جوهرها تمثل شروعا فعليا في تنفيذ حزمة "الاصلاحات" التي تضمنتها "الورقة البيضاء" التي اعدتها الحكومة في شهر تشرين الأول الماضي. وضمن هذا السياق دبج البنك المركزي بيانا مقتضبا من 6 نقاط، شارحا ومبررا أسباب خفضه لقيمة الدينار، بينما عدت وزارة المالية قرارات خفض قيمة العملة، وكذلك ما تضمنته فقرات الموازنة، جزءاً من محاولات الحكومة لـ "معالجة" أزمة السيولة الخانقة التي يشهدها العراق حاليا، جرّاء انخفاض اسعار النفط. وبالتالي يمكننا ان نعدّها فاتحة متأخرة لتحقيق "رؤية" الدولة للاستثمار والاقتصاد التي وعدت بها الحكومة في برنامجها الحكومي.

جوهر الأزمة: اختلالات بنيوية وليس عجزاً مالياً

ورغم كل ما اعلن عنه من نوايا طيبة، سواء في صياغات "الورقة البيضاء" أم في تبرير اجراءات خفض قيمة الدينار وخفض قيمة رواتب موظفي الدولة وغيرها من فقرات مشروع الموازنة، التي تحدثت عن مصلحة البلاد والمواطنين، ومنع انهيار النظام، وتجنب الفوضى عبر الدخول بـ"عملية

قيصرية للإصلاح"، وعن معالجة "التشوهات الاقتصادية"، وضرورة التوازن بين السياسة النقدية والسياسة المالية، فإن الواقع الحقيقي لا يستخف فقط بهذه النوايا والمبررات، وانما يكذبها صراحة. فأزمة السيولة المالية الحالية ما هي في الحقيقة إلا تجلّي ملموس لأزمة منظومة المحاصصة، أزمة بنية المجتمع الاقتصادية الاجتماعية، القائمة اساسا على قاعدة ريعية توزيعية، حتى وإن كان سببها المباشر انخفاض أسعار النفط المرتبط بالركود الاقتصادي الناتج من تفشي وباء كورونا؛ فالنظام السياسي العراقي لم يكن معنيا ابدا بعملية تطوير قطاعاته الانتاجية الحقيقية، ولا بتنويع مصادر موارده.

إنّ قرارات الحكومة وإجراءاتها، لا تخرج في جوهرها عن اطار سياسات ووصفات صندوق النقد الدولي التقشفية ذات التكاليف الاجتماعية الباهظة. وهي تعبير عن رغبة القوى السياسية المتنفذة في الخلاص من أزمتها الداخلية، وذلك عبر إجراء عدد من الحلول الترقيعية، تقع اعباؤها أولا وأخيرا على كاهل المواطنين، وتمكنها في ذات الوقت من اعادة تنظيم اوراقها، واعادة ترتيب وتدوير موازين قواها، بغية تأبيد سلطتها، حتى وإنْ اضطرت الى تقديم بعض التنازلات.

لقد تجلت تكاليف وتداعيات هذه "النوايا" والإجراءات سريعا، في آثارها السلبية على الاحوال المعيشية لعموم المواطنين، وعلى الطبقات والفئات الكادحة والفقيرة على وجه الخصوص، وذلك بسبب الارتفاع الحاد بأسعار المواد الاساسية خصوصا الغذائية. وهذه التداعيات والآثار ستتفاقم مع اقرار موازنة 2021 بالصيغة التي اعلنتها الحكومة. علما أنّ هذا ليس سوى البداية، فالقادم أسوأ.

الخروج من الأزمة يحتاج الى رؤية جديدة وليس تأبيد الواقع

إنّ الخروج من ازمة السيولة ومعالجة عجز الموازنة، لا يمكن ان يتحققا الا عبر حزمة من الاجراءات الصارمة، تبدأ أساسا بتنمية ودعم المنتج المحلي الصناعي والزراعي، وتطبيق سياسات حمائية صريحة. وكذلك ضرورة تنويع مصادر الدخل الوطني. ويضاف الى كل ذلك بالضرورة محاربة الفساد بصورة جدية، واستعادة الاموال المنهوبة، وفرض الضرائب التصاعدية، والسيطرة على المنافذ الحدودية والكمارك، وتوفير الدعم الحقيقي للطبقات والفئات الكادحة والفقيرة.

ولكن، هذه الحلول الفعلية للمأزق الاقتصادي العراقي، تتعارض تماما مع مصالح القوى المتنفذة بصورة مباشرة. وبالتالي فإن الاشكالية الرئيسية لمعالجة الازمة الاقتصادية العراقية تتمثل بارتباطها مع ضرورة إزالة كل منظومة المحاصصة الطائفية الاثنية، ارتباطها بالتغيير الشامل. وهو تغيير ينبغي أنْ يطال النهج والأساليب والممارسات والقوى السياسية وحتى الاشخاص.

إنّ هذه الهجمة على أرزاق ومصادر عيش المواطنين العراقيين، وفي مقدمتهم الكادحون، بحسب المعلن لن تكون الاولى، بل هي هجمة من سلسلة هجمات، مما يتطلب من كل القوى السياسية والمجتمعية المتضررة منها، خصوصا تلك القوى الحاملة لمشروع التغيير، الوقوف معا صفا واحدا امام القوى المهيمنة ونهجها اللاإنساني.

إنّ درس التقشف، الذي تدعو له حكومتنا "الرشيدة"، هو درس مؤلم حقا. وتشهد على ذلك تجارب كثيرة في عالمنا المعاصر. فهل سيتعظ "المقلدون" للوصفات الجاهزة المقطوعة الجذور عن الواقع الفعلي وحركته وتناقضاته الملموسة؟

وبالمقابل، فإن التغيير الشامل، كما اثبتت انتفاضة تشرين المجيدة، لم يعد مطروحا على طاولة البحث فقط، بل صار المهمة الاولى على جدول الاعمال. فليكن عام 2021 عاما للأمل المتجدد بالتغيير.

مقـــــالات

قراءة في سوسيولوجيا المثقف العربي والثقافة العربية المعاصرة

الدكتورة فرح صابر
جامعة بغداد

مدخل تعريفي

اذا كانت الثقافة تصنع الهوية، فإن المثقف هو صانع للثقافة واللاعب الاكبر في صنع هوية مجتمعه، والعنصر الاكثر فاعلية وتأثيرا فيها.

تعالج الورقة الحالية اشكالية مهمة وجوهرية تخص العلاقة الجدلية بين المثقف ومجتمعه، عبر اسئلة كثيرة يطرحها بإلحاح واقع المجتمعات العربية. وتتطلب اجوبة ملحة عنها من قبيل: ما نوع ثقافتنا اليوم؟ وماهي مصادرها ومرجعياتها؟ اي نوع من التحديات تواجه هويتنا وثقافتنا المعاصرة في ظل التحديات السياسية والاجتماعية والثقافية التي يطرحها الصراع الحضاري الذي يروجه الغرب؟ اين دور المثقف من التحدي الحضاري والمصيري الذي يواجه مجتمعه داخليا وخارجيا، بدءا من موروث الاستبداد والديكتاتورية، مرورا بالتنمية المشوهة، وطغيان ثقافة التشدد، وانتهاء بالاختراق الخارجي وتأثيراته المدمرة؟ اي نظام ثقافي عربي يتطلع المثقف العربي لتحقيقه؟ ماهي ادوات الصراع واساليب المواجهة تجاه الهجوم الشرس الذي يشنه "الاخر" متمثلا بالغرب الرأسمالي على هويتنا، وقيمنا، وثقافتنا، بل أسس وجودنا؟ وما هي الاستراتيجية التي يقدمها المثقف العربي والثقافة العربية المعاصرة لتجاوز معضلات الواقع الراهن، وتقديم المشروع الحضاري الذي يرقى الى مستوى طموح مجتمعاتنا وتطلعها نحو التغيير؟

هذه الاسئلة وغيرها ستكون محور القراءة والتحليل خلال الورقة الآتية.

في تعريف الثقافة

الثقافة هي التراث الفكري الذي تتميز به جميع الامم عن بعضها البعض؛ حيث تختلف طبيعة الثقافة وخصائصها من مجتمع لآخر، وذلك للارتباط الوثيق الذي يربط بين واقع الامة وتراثها الفكري والحضاري. كذلك تنمو الثقافة مع النمو الحضاري للأمة، كما انها تتراجع مع ذلك التخلف الذي يصيب تلك الامة، وهي التي تعبر عن مكانتها الحضارية والثقافية التي وصلت اليها[1].

ولعل مصطلح الثقافة من اكثر المصطلحات استخداما في الحياة العربية المعاصرة، لكنه من اكثر المصطلحات صعوبة على التعريف. ومن نافلة القول ان الثقافات البشرية عرفت هجرة المفاهيم من ثقافة الى أخرى، ومن

ميدان معرفي الى آخر. وحين يهاجر المفهوم من ثقافة او حضارة معينة الى اخرى، فان جهودا تبذل لتوطينه، لكي يحمل في موطنه الجديد دلالات محددة[2].

وفي سياق المصطلح فإن تعريف الثقافة في العربية وكما جاءت في قواميس اللغة هي من لفظ ثقف التي تعني سرعة التعلم، فثقفت الشيء اذا حذقته وظفرت به، وثقف يعني حاذق، فهم، فطن[3].

وشهد القرن التاسع عشر نقلة نوعية في مفهوم الثقافة مع العالم الانثروبولوجي البريطاني ادوارد تايلور عندما عرفها على انها مجموعة من الانشطة المتميزة لثقافة المجتمعات البشرية على اختلافها. وهذا التعريف مهد الطريق الى مفهوم الثقافة الحديثة[4]. وسيتحول لاحقا الى تعريف مرجعي لكل المختصين في العلوم الاجتماعية والانسانية.

كذلك فإن مصطلح الثقافة اكتسب عند الفلاسفة والمفكرين الألمان دلالات عدة تبعا للتدرج الزمني، حيث بدأ بالانتقال من التعميم الى التخصيص. فبالنسبة الى كتاب العصر الكلاسيكي اتسع المفهوم لكي يشمل مظاهر التقدم المادي والفكري والخلقي، التي حققتها البشرية معتبرة في جملتها. اما بالنسبة الى تابعيهم فإن المفهوم ضاق بأشد ضيق يكون، فصار يدل على جملة انجازات فكرية، وقد عدت "خيرا خاصا بأمة بل ومخصوصا بها، موقوفا عليها دون سواها"[5].

الا انه ابتداء من خمسينيات القرن الماضي ستظهر تعريفات اخرى واسعة حداثية للثقافة احدثت قطيعة مع الفكرة الانثروبولوجية ككل مركب عند تايلور[6]. وهكذا اصبح مصطلح الثقافة مفهوما اساسيا في علم الانثروبولوجيا ليشمل بذلك كل الظواهر البشرية التي لا تعد كنتائج لعلم الوراثة البشرية بصفة اساسية. وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية صار لهذا المفهوم قدر من الاهمية، لكن بمعاني مختلفة بعض الشيء في بعض التخصصات الاخرى مثل علم الاجتماع، والابحاث الثقافية، وعلم النفس التنظيمي، وأخيرا الابحاث المتعلقة بعلم الادارة[7].

وفي العام 1985 عرفت منظمة اليونسكو الثقافة بانها جميع معارف الانسان المتعلقة بالطبيعة والمجتمع[8].

وعموما يمكن تحديد خصائص الثقافة في ثلاثة مسارات، اولها: انها من اكتشاف الانسان باعتبارها مكتسبة، وليست وراثية او غريزية. اذن الثقافة انسانية الملامح. وثانيها: ان الثقافة تنتقل من جيل لآخر، ومن مجتمع لآخر، من خلال العادات والتقاليد والقوانين والاعراف، وعملية النقل هذه تتم من خلال التعلم، مع اضافة كل جيل لما يكتسبه مما يطرأ على حياته من قيم ومبادئ وافكار وسلوكيات جديدة، نتيجة لتغير الظروف. وأخيرا، فإن الثقافة قابلة للتعديل والتغير من جيل لآخر حسب الظروف الخاصة بكل مرحلة، ويمكن للأجيال الجديدة ان تضيف قيما ومفاهيم جديدة، لم تكن موجودة لدى الاجيال السابقة[9].

المثقف: المصطلح والمضمون

يمكن القول ان مفهوم المثقف يأخذ مكانه بين المفاهيم الاشكالية الغنية بالمعاني المتدفقة بالدلالات. وسيبقى هذا المفهوم قادرا على جذب اهتمام الباحثين لما ينطوي عليه من ثراء وغنى، وتنوع وأهمية.

ويمكن هنا استعراض بعض التصورات

ذات الدلالة التي قدمها بعض المفكرين حول مفهوم "المثقف" بدلالته ومعانيه. فصلاح بوسريف يصف المثقف بالقول "ان المثقف ليس مفهوما ممكنا قطعيا، ممتلئا بتعبيراته وما يحمله في طياته من مدلولات، بل انه مفهوم متموج، متشرح، ما فيه من فراغ، ومن مساحات شاغرة اكثر مما فيه من امتلاء، وهذا ما يسمح بضرورة الاضافة والملء، وبالمراجعة الدائمة، او البدء من جديد على الدوام، ليس بنفي المفهوم والقائه، بل لتجديده، وتحيينه، ووضعه في سياق المتغيرات الحادثة والطارئة، بما تحدث في هذا المفهوم ذاته من خدوش وجروح وتصدعات"[10]. في حين يعرف آخرون المثقف بانه "شخص التأمل والتفكير او شخص القدرات الفكرية العالية الذي كرّس نفسه للدراسة والتأمل، وبصورة خاصة القضايا العقيمة والعويصة. انه الشخص الذي يسترشد اصلا بالعقل والفكر بدلا من العواطف. انه الشخص الذي ينغمس في الاعمال الفكرية والابداعية، وبصورة خاصة في حقول العلم او الادب والفن بدلا من العمل اليدوي" [11]. في حين يشير اليهم ماركس في الايديولوجية الالمانية باعتبارهم مفكري "الطبقة الحاكمة، وبانهم اولئك الذين يخلقون الوهم الايديولوجي والافكار عن طبقتها، وعن نمط واسلوب حياتها"[12]. بينما يرى الباحث الامريكي شيلز، ان الفئة المثقفة تشمل "جميع الاشخاص ذوي التعليم الحديث"[13]. وبمعنى آخر انها تقتصر على هؤلاء الذين احرزوا تعليما علمانيا، وذلك للتمييز عن المثقفين القدماء التقليديين ممن تلقوا على الاغلب ثقافة دينية[14].

ولعل الامر الجدير بالمناقشة في هذا المجال يتعلق بتشاكل مفهوم الانتلجنسيا مع مفهومي المثقف من جهة، والنخبة الثقافية من جهة اخرى. ويأخذ هذا التشاكل صورته في الاستخدام المتناوب لهذه المفاهيم بدلالة واحدة في كثير من الاحيان، كما يأخذ هذا التشاكل صورة الترادف والتعاقب والاستبدال.

امتلك مفهوم الانتلجنسيا خصوصيته التاريخية، وحمل سماته الخاصة في الدلالة والتعبير عن وضعية طبقة من المثقفين نشأت في سياق تاريخي مختلف.

وقد اعتاد كثير من الكتاب على الاستخدام الترادفي لمصطلحي "المثقفون" و"الانتلجنسيا" للدلالة على المفكرين الذين يمارسون فعلهم الثقافي من منظور نقدي للأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة. وربما لا يختلف مفهوم "المثقفون" عن مفهوم "الانتلجنسيا" كثيرا عندما نأخذ بعين الاعتبار مفهوم "المثقف العضوي" عند غرامشي، حيث يتقارب مفهوم المثقف ويتجاذب مع مفهوم الانتلجنسيا[15].

دور المثقف

كان للمثقفين في السابق دور كبير في تشكيل هوية مجتمعهم، وعقلها وشخصيتها، واسهموا بفاعلية في تكوين وتجديد مرجعيتها الثقافية[16].

اما اليوم فقد تغير موقف المثقف عما كان عليه في الماضي، فالمثقف اليوم ليس الذي "يفك" الحرف في مجتمع تغلب عليه الامية، وليس ذلك الذي يقدم الشعر في المناسبات، وليس ذلك الصوفي المعزول في برج عاجي، مهمته ان يتأمل ويستنبط من اجل الوصول الى "الحقيقة" المطلقة فيخرج بها على الناس بعد طول غياب. المثقف اليوم هو الذي يعي

روح العصر، ويندمج في تياره، ويساهم عن طريق الكلمة والفكر من اجل زيادة معارف الناس، وصقل وجدانهم وجعلهم اكثر انسانية[17]. ويعمل احيانا كجماعة ضغط معنوي من اجل مبدأ او قضية[18].

والمثقف على وفق هذه الرؤية وعي ثقافي تتجلى قدرته على امتلاك الحقيقة، والتأثير فيها، واعادة تشكيلها وانتاجها روحيا واخلاقيا وانسانيا. والثقافة التي تميزه هي هنا في هذا السياق تعني نمطا من انماط التجليات الثقافية للمثقف ودوره في الحياة، وهي ترمز في الوقت ذاته الى تدفق فعله الثقافي الذي يتصف بالقيمة الاخلاقية، ترسيخا للسمو الاخلاقي الذي يتميز به "المثقف" تأثيرا في الكون والحياة الثقافية[19].

ويكمن الانجاز الرئيس للمثقفين في "خلق المرجعيات الثقافية، التي لا تؤصل العلوم الاجتماعية فحسب، بل تسهم في تجدد الهوية الثقافية، بعدما تعرضت الى تشويه ومسخ، نتيجة لعوامل عديدة ومتشابكة[20].

وبناء على ذلك فإن المثقف يتموضع ضمن ثقافة معينة هي نتاج التبادل الاجتماعي في مرحلة تاريخية محددة، ويسهم في هذه الثقافة بالانتاج والتطوير والاستعمال. واذا كانت الثقافة في نظر كانط "اعلى ما يمكن للطبيعة ان ترقى اليه"[21]، فان دور المثقف في هذه الحالة يمثل سعيا انسانيا لتحقيق هذه الغايات الثقافية العليا. فالفرد في اي مجتمع مغمور بتراث ثقافي يتجاوزه، وهو التراث الثقافي للحضارة التي ينتمي اليها. وهو من خلال هذا التراث يدرك العالم ويحكم عليه، غير ان هذا التراث عندما يتجمد ولا يتجدد يسير نحو الضمور، فالزوال، ويحول بالتالي بين الفرد وبين كامل ادراكه لذاته وغيره. ومن هنا كانت هناك صلة دائرية بين تجدد المجتمع وتجدد الفرد، فكل منهما يجدد الآخر[22]. وهذا الامر لا يتحقق الا عن طريق تجديد الوعي، وبثه في الاتجاه الصحيح. فالمثقف في الحالة هذه مطالب بحكم دوره الى أن يكون اداة لنشر الوعي في المجتمع، وباعثا للفكر الصحيح، وحاميا له. لكن هذه الرؤية ما زالت تعاني قصورا لدى الانتلجنسيا العربية او رجال الفكر في معظم المجتمعات العربية، او انها لم تتبلور الى الحد الذي يجعلهم فاعلين او مبدعين في مجتمعهم.

واذا كان المثقف في الغرب قد استغرق وقتا طويلا للاعتراف بسلطته ككاتب، وتثبيت دوره في المجتمع، بمواجهة الاستبداد كنظام وايديولوجية تبرره، وارساء مبادئ التعاقد والحرية والمصلحة العامة، والاقتراع العام، وخاض معركة طويلة ضد الرقابة من اجل الحق، فان المثقف العربي تواجهه معضلات اشد وظروفا اكثر تعقيدا. فاحد شروط اداء دوره، ان يكون له موقف من القضايا العامة، وان يعمل على توجيه الراي العام والتأثير على السلطة، وهذا لن يتحقق الا بتعبيد الارضية التي تعلو فيها قيم الحرية والعدالة، حتى يكون للمثقف معنى الحديث عن رسالة الكاتب في عملية التغيير[23].

ويبلور عبد المالك التميمي دور المثقف ووظيفته في هذه المرحلة في "تحليل حاضر المجتمع وتحديد مشكلاته بوعي تاريخي. وتحديد اهداف المجتمع، وبلورة وعيه حول تلك الاهداف، واشاعة وتأصيل الثقافة الجادة ووحدتها، واقامة المؤسسات الثقافية وتنشيطها، وحمايتها، والعمل على عقلنة المجتمع بعقلنة السلوك والحياة اليومية، والمؤسسات والفكر، ومواجهة سلبيات الواقع ونقدها"[24].

فلا يمكن ان تشهد حياتنا الثقافية تغييرا جذريا الا بتغيير الثقافة، ويبقى اي تغيير سياسي مشروطا بتغيير ثقافي، ذلك ان الثقافي لا ينفصل عن السياسي في المجتمع[25].

اشكالية المثقف

هيمنت على المثقف هواجس كثيرة، ولكن يمكن الاشارة الى اهمها، وهي هاجس الهوية الحضارية، وهاجس بناء دولة الامة.

لا تعاني امة من ازمة هوية ثقافية شبيهة بما يعاني منها العرب. فمفهوم المثقف العربي للازمة حول الهوية هو ان الاختلاف حول تحديدها يؤدي الى اختلاف على شتى جوانب الحياة، بل الى خلاف يعيق المجتمع العربي عن مواجهة مخططات الخارج بمنهج واحد واتجاهات واحدة ووسائل واحدة، ويد واحدة. وما يظهر اليوم من اختلافات في الرؤى والايديولوجيات حول هذه الهوية يرتبط بما نشهده اليوم من ضعف في المواجهة في شتى القضايا العربية الساخنة، بل هو نتيجة لغياب الاتفاق حول مفهوم موحد حولها[26].

ولعل هناك إشكاليتان تحولان دون قدرة المثقف العربي على الاسهام في المشروع الحضاري الكبير، الاولى: هي نخبوية الثقافة والمثقفين العرب، هذه النخبوية التي تعبر عن وجودها بشكل قطيعة بين المثقف والناس العاديين الذين يفترض ان المثقف يتكلم باسمهم. اما الاشكالية الثانية التي تواجه المثقفين العرب وتقلل من فاعليتهم، فهي عدم تحديد الاولويات، والقاء نظرة عامة على النتاج الثقافي العربي منذ عصر النهضة يكشف عن ان المسألة الوطنية وفحواها في تحقيق الكيان القومي وبناء الوحدة العربية، قد شاطر المسألة الاجتماعية الاهتمام الاكبر[27].

فالفكر يرتبط بالواقع في عملية تأثير وتأثر متبادل تغني جهدها الدائم. هذا الارتباط هو الاساس في كل معرفة، والمعبر عن وحدة النظر والعمل. وانطلاقا من المبدأ في نظرية المعرفة يكون النظر غير منفصل عن ابداعه لواقع جديد. هذا الجانب العملي من النظرية ملازم لجانبها التاريخي حيث ان موضوعية العالم وصيرورته لا تدركها المعرفة الانسانية الا عبر الممارسة التاريخية التي لا تنفصل عنها. فرؤية الواقع كما هو، هي المقدمة الاولى لفهمه وادراك ابعاده، ويمثل هذا الفهم بدوره شرط التغيير وأحد مقوماته[28].

ويتفق الكثيرون على ان مثلث التراث، والثقافة، والفكر يمثل احد الاشكاليات الكبرى بالنسبة للمثقف العربي. وفي مقدمة هذه الاشكاليات تقديس التراث. فالتراث "انموذج مطلق في حياتنا"، انموذج اساسه المقابلة بين" ماض مجيد وواقع بائس فاسد" غايته استرجاع الماضي لصنع الحاضر او الاقتراب من التاريخ والتعامل معه يتم على وفق انتقائية قسرية، "تجاوز فترات معينة، واهمال اخرى لكي لا تنشأ انقسامات لا يقوى المجتمع حاليا على تحملها"[29]. ويشرح محمد الحداد هذه الاشكالية بالإشارة الى ان الوضع عندنا هو ان التراث يخنق الثقافة، والثقافة اليوم تقوم بدورها بديلا عن الفكر، فتطغى حينئذ المحلية، وتبرير السائد، وترديد السابق. ويظل محدودا الميل الى المساءلة والتغيير، والى استشراف المستقبل. فأولى مراحل الفكر ان يقبل بمسافة نقدية بينه وبين الثقافة، لكي لا يكون دور المفكر التبرير ولو تحت شعار المقاومة. وثانية المراحل

ان تجعل الثقافة موضوعا للفهم والتحليل وليس صنما للتقديس، لان الثقافات جميعها، لغات للتعبير الانساني، ومعابر للوصول الى الكوني الذي يجمع البشر[30].

المفكر هو من يقبل الانتماء الايجابي المزدوج: انتماء نقدي الى ثقافته، وانتماء طوعي الى مجتمع عابر للقوميات والاوطان والاديان، مجتمع عابر للثقافات يحاول ان يصوغ لغة تداول كونية بين البشر، وينحت اشكالات ومفاهيم تستجيب للتطلعات الكبرى للانسان[31].

وكما يؤشر احد المثقفين، فان "قرنا من الزمن هدرنا، ونحن نبحث في اشكالية اكل الدهر عليها وشرب، وان عبرت عن شيء، فانما تعبر عن بؤس مثقف ومجتمع عربي لا يصنع ثقافة الحاضر بل يهرب الى الماضي"[32].

اذن فان المثقف العربي على الرغم من سعيه في هذه المرحلة الى بناء مجتمع مدني، فقد حد من هذا البناء او بالأحرى وقف عائقا امامه ظواهر سادت الحياة السياسية والاجتماعية العربية، التي جاءت اصلا انعكاسا لما آل اليه الوضع العربي عموما. تراجع الخطاب الحضاري لصالح الفكر العشائري والاقليمي والطائفي، وعسكرة المجتمع والثقافة[33].

لهذا فان مثقف هذه المرحلة، باعتباره نتاجا عضويا لواقع اجتماعي - سياسي جاء معبرا اصيلا عن هذه الثقافة. فبدلا من انموذج المثقف الملتزم، الذي كان مرآة عاكسة لمجتمعه، وهمومها وقضاياها، ظهر في هذه المرحلة نمط من المثقفين وظيفتهم الاساسية استهلاك الثقافة دون ارتباط جدي بقضية بعينها[34].

ازمة المثقف: اعراضها وتجلياتها

من نافلة القول ان المثقف العربي يواجه اسئلة ملحة تفرضها وقائع الحياة والتحديات التي تواجه المجتمع الذي ينتمي اليه، وتدور حول سمات النظام الثقافي العربي، ودور المثقف العربي في ظل الازمات الحالية التي يواجهها العرب كشعوب ونخب، وادوات الصراع واساليب مواجهة الهجوم الشرس الذي يشنه الاخر ولاسيما الغرب الرأسمالي على مجتمعاتنا وثقافتنا، وقيمنا، بل وحتى تهديد وجودنا.

وفي الواقع فان ازمة المثقف العربي هي انعكاس لأزمة مجتمعه. وقد يتخذ المثقف موقفا فاعلا وايجابيا من هذه الازمة، يتفاعل معها، يبحث عن الحلول لها، يحاول تغييرها. وقد يكتفي بدور المتفرج واللامبالاة، الى حدود تصل الى درجة الانكفاء على الذات والتقوقع على النفس هربا من واقع لا يستطيع تغييره او التأقلم معه[35]. وعند هذه النقطة ينشأ نوع من الاغتراب، اغتراب المثقف عن نفسه، واغترابه عن مجتمعه.

المثقف العربي مصاب بالعصاب الثقافي كما يقول العروي، صحيح انه يعاني من هذا الواقع، ويرفضه، ولا يستطيع التأقلم معه، ولكن الصحيح ايضا انه لا يفعل شيئا لتغيير هذا الواقع. بل وازاء هذا الموقف السلبي فان المثقف يجد نفسه اما منسحبا من الماضي، او محاولا محاكاة ثقافة الآخر(36). هذا الفصام الثقافي يجعله هشا امام اي تيار او مذهب يظهر هنا او هناك، فتجعله اسير التردد والحيرة والتشويش الفكري.

ولعل احدى تجليات ازمة المثقف العربي هي ازمة الهوية، فتلك الازمة يديرها اليوم اتجاهان ايديولوجيان: احدهما قومي حديث،

وثانيهما اممي قديم لم يتغير يقوده فكر ديني ذو اغراض سياسية يسعى لبناء دولة دينية عالمية تستمد سلطاتها مما تزعمه تشريعات إلهية، واممي حديث تقوده فلسفة مادية تسعى لبناء دولة تستمد سلطاتها من تشريعات اقتصادية وضعية[37].

يستند المشروع القومي الحديث الى فكر غربي حديث النشأة، استطاع ان يحل اكثر الازمات حدة عند شعوب اوربا. وتلك النظرية الفكرية، من هذا الجانب، يمكن ان تكون قد وجهت بردود فعل سلبية على قاعدة الحكم بان ما يأتي من الغرب هو احد حكمين "اما غزو يجب رفضه كله، او اشعاع يجب اخذه من دون نقد او تمحيص"[38].

ويمثل الثاني تياران: تيار اممي اسلامي يحاكي تجربة الامبراطورية الاسلامية باخر مظاهرها، الخلافة في الدولة العثمانية، وفي المقابل تيار اممي يحاكي الفلسفة الماركسية باخر مظاهرها، النظام الاشتراكي ممثلا في الاتحاد السوفييتي السابق والانظمة الاشتراكية التي دارت في فلكه.

فالقومي الحديث والمعاصر يبنى على اسس تاريخية يزعم انه يجعل من حقائق العصر بوصلة يهتدي بها. والقديم الاممي الاسلامي يتخذ الواقع التاريخي مرشدا له، متناسيا حقائق العصر ومتغيراته. والاممي الحديث، بآفاقه ومنهجه الاشتراكي يتخذ موقع الصراع في مواجهة الاطماع الرأسمالية من اجل بناء دولة اممية، واجهت اشد حالاتها انتكاسا مع الانهيار الدراماتيكي للكيان السوفييتي والمعسكر الاشتراكي عموما[39].

ولا يمكن في هذا الصدد اغفال مسألة بنيوية مهمة تخص المثقفين العرب والثقافة العربية عموما. اذ من المعروف ان تشكل الانتلجنسيا في مجتمعاتنا النامية لم يمر بالمراحل التي مرت بها في روسيا واوربا. فلم يحدث عندنا عصر التنوير ولا عصر ثورة علمية، ولا ثورة بورجوازية تحررية على الاقطاع والكنيسة، وكل ما حدث في هذه المجتمعات منذ الحملة الفرنسية عام 1798 لا يعدو ان يكون اتجاها اصلاحيا توفيقيا، استند الى التراث حينا، والى الثقافة الاوربية حينا، والى الاثنين معا في بعض الاحيان. وانعكس هذا في الثقافة ضعيفا مهزوزا، وولد مدارس فكرية وسياسية مقلدة[40].

وهكذا نجد انفسنا امام مفهوم للانتلجنسيا لا ينسجم تماما مع المفهوم الاوربي المعروف. ويترتب على ذلك ان يتسع تحديد المثقف ليشمل متعلمين لا يمتلكون ثقافة "الانتلجنسيا"، ولا عمق التزامها، ولكنهم على الرغم من ذلك، على قدر من ثقافة الالتزام بالنسبة لمجتمعهم الذي مازال دون سلم التطور المطلوب. هذا لان المثقف العربي يخضع للشروط السياسية والاجتماعية التي يخضع لها مجتمعه، فهو يعيش في مجتمع ما زال يتلمس طريقه بصعوبة، وسط اكوام من مظاهر التخلف والانسداد الحضاري. مجتمع تحارب فيه الثقافة، ويطارد الوعي[41].

وقريبا من هذه الازمات يمكن الحديث عن "الانتلجنسيا الرهينة" حسب وصف البيطار. اذ كان ارتهان الانتلجنسيا العربية خلال نصف قرن مضى، موزعا بين الحزب والدولة والقبيلة والطائفة. وكان لكل عنصر من هذه العناصر دور الاب المانع والمانح، والذي يستخدم العصا والجزرة او العصا فقط لترويض الاتباع لمن يجازفون

بالعصيان او ما يسمى وفق التربويات الربوية العقوق[42].

وهناك عدة عوامل على الاقل تتطلب فحصا مجهريا وباثر رجعي لاستقراء ظاهرة الارتهان قدر تعلقها بالمثقفين العرب، العامل الاول اقتصادي، فالمثقف الذي لا يستطيع الحياة والاكتفاء حتى في حده الادنى من خلال مهنته لابد له ان يلوذ بما ييسر له الحياة العسيرة. فهو يضع قدما هنا وقدما هناك ويقول "الكثير كي لا يقول شيئا محددا لانه كائن احترازي بالضرورة، وحمال اوجه، ويتشبث بالاحتياطي الذي يحميه من الفاقة او المساءلة" [43]. انه المثقف الموظف كما وصفه محمد برادة، الذي حالت تبعية الوظيفة دون استقلاله، وحريته في ابداء الرأي. فالمثقف العربي وفق هذا التوصيف لم يعد يعيش "ازمة اخلاق وضمير فحسب"، بل ازمة اقتصادية طاحنة باتت تؤثر في انتاجه الفكري ومكانته الاجتماعية[44].

العامل الاخر اجتماعي افرزه تراكم اعراف سائدة ومواعظ منها الشفوي ومنها المدون، وارتكاسات نفسية، بحيث اختلط الامر على الكثير من المشتغلين في مهنة الثقافة، لهذا سعى البعض الى البرلمان ليس وفقا لتوجه المثقف المعاصر ذي النزعة الديمقراطية بل من خلال القبيلة، او الحزب الذي هو قبيلة "مغطاة بمساحيق الحداثة"[45]. وهكذا يتحول المثقف تدريجيا الى رهينة "لا يستطيع الوقوف على ساقيه بدون جار او عكاز بعكس المثقف الحر الذي يتحول حتى عكازه الى عصا منحوتة من عظم الساق"[46].

وتبقى عقدة العقد او الصخرة التي تتحطم عليها اي محاولة لبناء ثقافة سليمة وعضوية، هي علاقة المثقف بالسلطة. ففي مجتمع يفتقد لغة الحوار، بل لا يجيدها اصلا، قد يغدو الحديث عن علاقة سليمة وصحيحة ومتوازنة بين المثقف والسلطة مطلبا تعجيزيا او نوعا من السفسطة الثقافية، او اللغو الفارغ مادام المثقف محكوما بنار التعسف والقهر.

انعكست هذه العلاقة المبتورة والمشوهة بين المثقف والسلطة على حياتنا الثقافية والفكرية. فانعدمت لغة الحوار، وقل التواصل الفكري بين جموع المثقفين انفسهم وبين الاجيال المتلاحقة، وتسطح الانتاج الثقافي، وخبا بريق التيارات او الحركات الفكرية التي شهدتها الساحة الثقافية العربية في مطلع عصر النهضة، وانعدمت او كادت المدارس الفكرية التي كان من المؤمل ان تشكل نواة لنهضة ثقافية معاصرة[47].

المثقف العربي والثقافة العربية على مفترق طرق.. ما العمل؟

تواجه الثقافة العربية اليوم اختبارا خطرا، وتحديات اخطر. فالخطاب الثقافي العربي التقليدي عفا عليه الزمن، فقد مبررات وجوده واصبح في غالب الاحيان عائقا امام تجدد وصياغة بنية ثقافية فكرية جديدة تتناغم مع متطلبات العصر الحالي، عصر يعيد بناء الفكر والمعرفة من جديد. فالثقافة لم تعد ترفا فكريا او حكرا على النخبة او الصفوة بعينها، انما اصبحت جزءا من نسق اجتماعي، ورافدا اساسيا من روافد التنمية البشرية والاقتصادية في المجتمعات الحديثة. والثقافة الدينامية والفاعلة هي الثقافة المبدعة والمتخصصة والناقدة التي تعتمد التحليل والتمحيص، بعيدا عن محظورات القدسية والتحريم الغيبي.

لقد حكم المتغير السياسي حياتنا وواقعنا لعقود واجيال، وآن الوقت ليحل المتغير الثقافي مكانه، خصوصا واننا في عصر تحتد فيه التمايزات الثقافية والحضارية، وترتفع الدعوات التي تركز على الصراعات الحضارية والثقافية بين الشعوب، بديلا لصراعات الايديولوجيا والسياسة.

اما المثقف باعتباره اداة الثقافة، ومنتجها، والمعبر عن وظائفها وآلياتها، فالمطلوب منه مواكبة حركة الحاضر وما تتطلبه من جهوزية تكون بمستوى التحديات والتطلعات البعيدة عن الصورة النمطية للثقافة ودور المثقف كحارس للأيديولوجيات، وبائع للأوهام، وشرطي للافكار. والنظر من افق اوسع لهذا الدور، نظرة تتجاوز العلاقات المحددة التي تفرضها عليه انتماءاته الاولية للبيئة والمجتمع وخطاب الثقافة المحلي، ولمتنه الايديولوجي. لتضع تصورا بديلا لوظيفته التقليدية، لإخراجه من عزلته الفكرية والثقافية التي تركت اثرا بليغا على طريقة التفكير ونوعية الانتاج الثقافي، وبالتالي الى الفهم الجامد لكينونة الثقافة ولمغزاها الانساني كخطاب عالمي.

التحديات امامنا كبيرة وخطرة.. ومواجهتنا لها تعتمد على مدى قدرتنا على الاستجابة الواعية والفعالة لها، والوقت في عصرنا عنصر حاسم وقاطع. عصر لا مكان فيه للمتفرجين والضعفاء. فعسى ان نلحق بقطار التاريخ الذي لا يعرف الوقوف عند محطات الضعفاء والمتفرجين. وهنا يكون المثقف اداة التغيير وجوهره. ولن تتحقق رسالة اي أمة، ولن يتسنى لمشروعها الحضاري ان يرى النور دون ذلك التغيير.

الهوامش :

1- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، 2011، ص 101.
2- Edward Taylor, Primitive culture, New York, 1924, P.1.
3- ابن منظور، لسان العرب، الجزء السادس، دار المعارف، د.ت، ص 492 - 493.
4- Taylor,Op.Cit,P12 .
5- مصطفى المريط، مفهوم الثقافة بين الفكرين الغربي والعربي، من التباس المفهوم الى افق البناء الحضاري، ص3-2، على موقع : www.nama-center.com
6- المصدر نفسه، ص3.
7- تعريف الثقافة، على موقع : www.ar.wikipedia
8- شيهب عادل، الثقافة والهوية - اشكالية المفاهيم والعلاقة، ص1، على موقع :www.aranatbropo.com
9- شيهب عادل، المصدر السابق.
10- علي اسعد وطفة، المثقف النقدي مفهوما ودلالة، "مجلة الطريق"، العدد11، بيروت، 5أيلول 2015، ص28.
11- وليد خالد احمد، محددات الدلالة اللغوية والمفاهيمية لمفردة الانتلجنسيا، صحيفة "الزمان"، 24 ديسمبر2012.
12- كارل ماركس وفردريك انجلز، الايديولوجيا الالمانية، ترجمة الدكتور فؤاد ابوب، دمشق، 1976، ص48.
13- Edward shilis, Political change in under developed countries, New York,1962, P.22.
14- ف.ل.تياغوننكو وآخرون، التركيب الطبقي للبلدان النامية، ترجمة داود حيدر ومصطفى الياس، ط2، دمشق، 1947، ص357.
15- نديم البيطار، المثقفون والثورة. الانتلجنسيا كظاهرة تاريخية، بيروت، 2001، ص 62.
16- عبد القادر عرابي، ازمة المثقف العربي.المحنة الدائمة. دراسة في نشأة المثقف العربي وسوسيولوجيته، مجلة "المستقبل العربي"، السنة 18، العدد 196، بيروت، 1995، ص27.

17- نديم الانصاري، المثقف العربي والسلطة، مجلة "الوحدة"، العدد 10، بيروت، يوليو 1985، ص13.
18- المختار بنعبدلاي، الثقافة العربية ومعطيات الواقع الراهن وآفاق المتطورة، مجلة "الوحدة"، العدد 101 - 102، بيروت، فبراير- مارس 1993، ص 47.
19- المصدر نفسه، ص1.
20- عبد القادر عرابي، المصدر السابق، ص27 - 28.
21- المصدر نفسه، ص2.
22- قسطنطين زريق، نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ، بيروت، دار العلم للملايين، 1959، ص 208 .
23- البيطار، مصدر سابق.
24- عبد المالك التميمي، بعض اشكاليات الثقافة والنخبة المثقفة في مجتمع الخليج العربي المعاصر، مجلة "المستقبل العربي"، السنة 12، العدد 134، بيروت، نيسان، ص36.
25- نقلا عن: محمد عبد الباقي الهرماسي، المدخل الثقافي الاجتماعي الى دراسة الدولة، ورقة قدمت الى ندوة: الامة والدولة والاندماج في المجتمع العربي، تحرير غسان سلامة واخرين، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989، ص188.
26- حسن خليل غريب، الاختلاف على الهوية الثقافية والهوية القومية ازمة سياسية تعيق حركة التحرر العربي، ص1. على موقع: www.al-moharer.net.
27- زينب سعيد، في تحديد مفهوم المثقف، ص3. على موقع : www.siironline.org
28- المصدر نفسه، ص 3 - 4.
29- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، بيروت، 1984، ص 176.
30- محمد الحداد، مواقف من اجل التنوير، دار الطليعة، بيروت، 2005، 112 - 123 .
31- محمد الحداد، مواقف من اجل التنوير، بيروت، ص 113.
32- عبد القادر عرابي، المصدر السابق، ص43 .
33- المصدر نفسه، ص 37 .
34- محمد عابد الجابري، اجيال المثقفين في الاسلام، صحيفة "الشرق الاوسط"، 8 فبراير 1995 .
35- (35) عبد الله العروي، المصدر السابق، 172.
36- (36) المصدر نفسه، ص172.
37- (37) حسن خليل غريب، المصدر السابق، ص 1 - 2.
38- (38) المصدر نفسه، ص1.
39- (39) المصدر نفسه، ص1.
40- (40) ناجي علوش، المثقف العربي والنضال القومي، مجلة "الوحدة"، العددان 101 - 102، بيروت، تموز 1985، ص60 - 61 .
41- المصدر نفسه، ص 61 - 62 .
42- نديم البيطار، المصدر السابق، ص124.
43- المصدر نفسه، ص124.
44- نقلا عن عبد القادر عرابي، المصدر السابق، ص 43.
45- نديم البيطار، المصدر السابق، ص 25.
46- المصدر نفسه، ص 25.
47- عبد القادر عرابي، المصدر السابق، 44.

ما قلّ ودلّ: الانهيار الاقتصادي و"الورقة البيضاء" التي تحرث في الماء

د. صبري زاير السعدي
خبير اقتصادي وباحث

لعل الفائدة الوحيدة التي يقدمها صندوق النقد الدولي للرأي العام هي نشر المؤشرات الاقتصادية والمالية الرئيسية (الأحدث في 13 تشرين الأول/أكتوبر 2020) والمستمدة من المؤسسات الحكومية المعنية وتقديرات خبراء الصندوق في تقييم الواقع الاقتصادي وتقدير توقعات التطور المستقبلية. تُفيدنا هذه المؤشرات في تأكيد الرأي بأن سياسات الحكومة الاقتصادية وتبديد الثروة النفطية منذ 2003، هي السبب الرئيسي في الانهيار الاقتصادي التي أدت إلى زيادة البطالة وانتشار الفقر وتفشي الفساد.. الخ، وليس ما جاء في "الورقة البيضاء" عن تزييف الحقائق في كيفية توزيع الإيرادات النفطية بين الميزانية والاستثمار وإنجازات "التجربة الاقتصادية الوطنية (1950 - 1979) – نتجاوز تأثيرات الحرب مع إيران (1980 - 1988) والحصار الاقتصادي والتجاري الدولي (1990 - 2003)- أو الحذلقة بتقديم نفس السياسات الاقتصادية للحكومات السابقة، ولو بطريقة فجة في التعبير، وبنقص المعرفة بإدارة الاقتصاد الوطني وكأن الدولة ليست مسؤولة عن النمو والتنمية، كما في دول العالم، المتقدمة والناهضة والنامية، وأن الحكومة العراقية شركة تجارية خاصة لترويج بيع "خصخصة" مشاريع القطاع العام والأصول الإنتاجية والموارد وتبديد الثروة الوطنية مقابل قروض خارجية ومحلية[1].

المهم هنا، مؤشرات الانهيار الآتية:

1. تقدر قيمة الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي بالأسعار الثابتة في عام 2019 نحو 179 مليار دولار، وستنخفض إلى 158 مليار دولار في العام 2020، ثم تزداد تدريجياً بمعدل محدود لتستقر في عام 2025 بقيمة 179 مليار دولار، أي أن معدل النمو الاقتصادي السنوي خلال الفترة (2019 - 2025) سيكون الصفر %.

2. تقدر قيمة الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي بالأسعار الجارية في عام 2019 نحو 230 مليار دولار وستنخفض إلى 178 مليار دولار في العام 2020، ثم تزداد تدريجياً بمعدل محدود لتستقر في عام 2025 بقيمة 243 مليار دولار، أي أن معدل النمو الاقتصادي السنوي خلال الفترة (2019 - 2025) سيكون حوالي 1.4 %.

3. يقدر معدل حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية 5884 دولارا في عام 2019، ستنخفض إلى 4438 دولارا في عام 2020 وستزداد قليلاً جداً لتستقر منخفضة بقيمة 5315 دولارا في عام 2025.

4. ستنخفض الإيرادات الحكومية (الموازنة العامة) من 84 مليار دولار في عام 2019 إلى 55 مليار دولار في عام 2020 ثم تزداد تدريجياً لتبلغ 78 مليار دولار في عام 2025. وبالمقابل، ستزداد النفقات الحكومية (الموازنة العامة) من 82 مليار دولار في عام 2019 إلى 86 مليار دولار في عام 2020، وتستمر بالزيادة إلى 94 مليار دولار في عام 2025. هذا يعني استمرار العجز في الموازنة العامة خلال السنوات (2020 - 2025) بدلاً من فائض يقدر بنحو 2 مليار دولار في عام 2019.

5. سيزداد مجموع الدين العام، المحلي والقروض الخارجية، من 108 مليارات دولار في عام 2019 إلى 122 مليار دولار في عام 2020 وسيستمر بالارتفاع الكبير إلى 220 مليار دولار في عام 2025.

6. سينخفض رصيد الحساب الجاري (الرصيد التجاري + رصيد ميزان المدفوعات) من + 2.583 مليار دولار في عام 2019 ليتحول إلى رصيد عجز مرتفع قدره 22.523- مليار دولار في عام 2020، ثم سينخفض العجز قليلاً وتدريجياً لتبلغ قيمة العجز 18.095- مليار دولار خلال العام 2025.

أليست هذه المؤشرات كافية للدلالة على أن الانهيار الاقتصادي وانعدام التنمية مستمر، وأن من المتوقع زيادة البطالة والفقر وانتشار الفساد وتوسع التباين في توزيع الدخول والثروات، وسيزداد الدين العام وتتبدد "نعمة" الثروة النفطية بممارسة السياسات الاقتصادية المالية والنقدية الكلية، وسياسة الاستثمار، والتجارة الخارجية العقيمة الفاشلة منذ العام 2003. والمثير للغرابة، العودة من جديد لهذه السياسات بعنوان "الورقة البيضاء" وكأنها محاولة تحرث في الماء.

الهوامش :

1- عن المعالجات الآنية للأزمة بعد جائحة كوفيد19-، أنظر مقالتنا بعنوان "العراق أمام التحديات: تغيير السياسات الاقتصادية العقيمة"، كتبت في مقابل بيان رئيس الوزراء المنشور بعنوان "العراق أكبر من التحديات". وقد نشرت المقالة في مجلة الثقافة الجديدة ومواقع الأخبار والبديل العراقي الإليكترونية. وللراغب في الحلول الجذرية المستقبلية والتغيير في إدارة الاقتصاد الوطني، أنظر: صبري زاير السعدي، "قيمة الثروة النفطية والنظام الاقتصادي في العراق: ثنائية التخطيط وآلية السوق التنافسية"، العدد 493 آذار مارس 2020 مجلة "المستقبل العربي" الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

دولة المواطنة وإعادة بناء الدستور العراقي

جاسم علي هداد

جاسم علي هداد، دبلوم عالي/ معهد الهندسة التطبيقية العالي/ جامعة بغداد/ 1970، **ماجستير في القانون الدستوري بامتياز من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة. صدر له "حقوق المرأة السياسية في الدساتير العراقية"، عن دار الرواد المزدهرة ـ بغداد** ـ 2015.

تقديم

الدستور تجربة انسانية مرّت بمخاض عسير خلال اطارها الزمني منذ عصر الاغريق وصولاً الى التاريخ الحديث، وظهور مشروع الدستور والبرلمان في بريطانيا على سبيل المثال بدأ منذ العهد الاعظم عام 1215 وتجربة الاصلاح البرلماني الذي استمر لأكثر من (100) سنة خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين[1].

إن فكرة الدستور من أرقى ما وصل إليه النظام الإنساني في تنظيم شؤون الحياة وفق إطار توافقي محدد يعبر عن أهدافه ومصالحه المشتركة. وأن دستور الدولة هو مرآة نظامها والفيصل بين الحكام والمحكومين. والدستور هو سيد القوانين والقانون الأعلى للبلاد.

ويهتم الدستور ببيان النظام المؤسسي للدولة فيحدد سلطاته، والعلاقة بين هذه السلطات، واختصاصات كل منها. كما يهتم ببيان تنظيم حقوق وحريات الأفراد[2].

تعرّف الدساتير على أنها العقد الاجتماعي الذي تمنحه الشعوب لنفسها[3]، وعرف الدستور بأنه (مجموعة القواعد التي تحدد شكل الدولة ونظام الحكم فيها، وكيفية تكوين السلطات العامة واختصاص كل سلطة، وعلاقة تلك السلطات بعضها مع البعض الآخر، وأخيرا تشمل القواعد التي تبين حريات الأفراد العامة وحقوقهم وواجباتهم سواء كانوا حكاما أم محكومين والضمانات العامة لسلامة تطبيق مواده)[4].

الدستور هو مجموعة من القواعد التي تحدد شكل الدولة (بسيطة أم مركبة)، ونظام الحكم فيها (ملكي أم جمهوري)، وشكل الحكومة (رئاسية أم برلمانية أم شبة رئاسية)، وتبين السلطات العامة التي تباشر بها الدولة وظائفها، واختصاص كل منها وعلاقتها ببعضها[5]، والتعريفات جميعا تلتقي على أن الدستور:

أ ـ يبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها.

ب ـ ينظم الهيئات العامة للحكم، التي تعرف بالسلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية والعلاقة بينها.

ج ـ يقرر ما للأفراد من حقوق عامة وحريات.

مبدأ سمو الدستور:

المقصود هو علو القواعد الدستورية على غيرها من القواعد القانونية المطبقة في الدولة. ويعني ان أي قانون تصدره الدولة يجب ان الا يكون مخالفا للدستور، سواء كان الدستور مكتوبا ام عرفيا. ويعتبر مبدأ السمو من المبادئ المسلّم بها في فقه القانون الدستوري حتى في حالة عدم النص عليه في صلب الوثيقة الدستورية.

المبحث الأول: أنواع الدساتير

يحدد فقهاء القانون الدستوري أربعة اعتبارات لتقسيم الدساتير[6]:

أولا: من حيث المصدر (التدوين) وتقسم الدساتير الى مدونة وغير مدونة (العرفية):

الدساتير المدونة "المكتوبة": والغالبية العظمى لدساتير دول العالم مكتوبة، ومن بينها الدستور العراقي لعام 1925، ودستور جمهورية العراق لعام 2005.

الدساتير غير المدونة (العرفية): التي تستمد نصوصها من التقاليد والأعراف السائدة في المجتمع، وأحكام القضاء أيضا، ولا يتم تدوين القواعد القانونية، كما في بريطانيا. ولكنها كان لها دستور مدون للفترة 1653 ـ 1660، حيث تم الغاؤه بعودة شارل الثاني الى الحكم. ولها قواعد دستورية مدونة. ومن هذه القواعد: العهد الأعظم (1215)، ملتمس الحقوق، قانون الحقوق (1688)، قانون البرلمان (1910).

ثانيا: من حيث التفصيل "الإطالة": وتقسم الدساتير الى مفصلة وموجزة:

الدساتير المفصلة: تضم عددا كبيرا من النصوص، مثل القانون الأساسي العراقي لسنة 1925، دستور جمهورية العراق 2005، دستور جمهورية مصر العربية 2014.

الدساتير الموجزة: نصوصها مقتضبة، الدستور العراقي المؤقت لعام 1958، الدستور الأمريكي.

ثالثا: من حيث إمكانية التعديل: تقسم الدساتير من حيث إجراءات تعديلها الى دساتير مرنة ودساتير جامدة.

الدساتير المرنة:

التي يمكن تعديلها بقانون برلماني عادي او بطريق احكام القضاء[7]. الدستور العراقي المؤقت 1964، الدستور البريطاني حيث يملك البرلمان البريطاني أن يغير أو يعدل أو يلغي القواعد الدستورية سواء كانت عرفية أم مكتوبة بمجرد صدور قانون عادي حيث يستطيع البرلمان البريطاني أن يلغي النظام الملكي، وأن يحل محله النظام الجمهوري نظريا بنفس القواعد والإجراءات التي يعدل بها قانون المرور. يرى بعض الفقهاء ان الدستور المرن يتميز بسهولة تعديله، بحيث يستطع مواكبة التطورات والتغيرات التي تطرأ على حياة المجتمع السياسي. ويرى آخرون ان هذه الميزة تشكل نقطة ضعف له حيث انها تضعف من هيبة الدستور[8].

الدساتير الجامدة:

وهي التي يتطلب تعديلها اتخاذ إجراءات معقدة، وأغلب الدساتير المكتوبة تكون جامدة[9]، الدستور المصري 1923، الدستور الأردني 1952، الدستور الفرنسي 1958. ويرى العلامة "بردو" في سبب ازدياد الدساتير الجامدة بأن ذلك له مغزى سياسي أكثر مما هو قانوني، وان سبب هذه الظاهرة يعود لتثبيت ترسيخ المبادئ الديمقراطية لكي يكون الدستور في مأمن من التغييرات التي تطرأ على الحياة السياسية[10]، والدساتير الجامدة لا محل لها في الأنظمة الشمولية[11]، وإجراءات تعديل النصوص الدستورية تختلف من دستور لآخر، وذلك حسب درجة جمود الدستور.

4 ـ من حيث الديمومة: تقسم الدساتير الى دائمة ومؤقتة:

الدساتير الدائمة: الذي يصدر لتنظيم الدولة دون تحديد فترة معينة لسريان احكامها، الدستور الفرنسي لعام 1875 الذي استمر لعام 1940.

الدساتير المؤقتة: الدستور الذي يتم وضعه لتنظيم الدولة خلال فترة انتقالية قد تطول وقد تقصر لحين وضع دستور دائم للدولة، الدستور العراقي المؤقت عام 1958.

أهميته

يحتل الدستور مكانة سامية في النظام القانوني للدولة؛ فهو التشريع الوضعي الأسمى وصاحب الصدارة على ما دونه من تشريعات، يجب أن تنزل على أحكامه. فإذا تعارضت هذه مع تلك وجب التزام أحكام الدستور وإهدار ما عداها [12]. ومن ثم تكون القوانين واللوائح باعتبارها صادرة من سلطة أدنى ـ مرتبة من السلطة العليا ـ غير شرعية إذا خالفت أية قاعدة من قواعد الدستور أو حكم من أحكامه [13].

المبحث الثاني: الدستور العراقي الدائم 2005

الدستور العراقي لعام 2005 تم وضعه بعد تحول سياسي عاصف. وتم الاستفتاء عليه في 15 /10 /2005 بنسبة 78% من أصوات المقترعين، وكانت نسبة المشاركة 63% من الناخبين المسجلين [14]، حيث نال النجاح الساحق بالمحافظات الجنوبية والشمالية والوسطى، ما عدا ديالى. والفشل الساحق أيضا في المحافظات الغربية والموصل، الا ان النسبة القادرة على افشال المسودة لم تتوفر في المحافظات الرافضة الثلاث[15].

ويعد اول وثيقة قانونية تصاغ على يد جمعية تأسيسية منتخبة منذ العام 1924، وقد رفع الى لجنة الصياغة نحو مئة مسودة دستورية، وتم تقديم قرابة 50 ألف اقتراح دستوري، كما تم عقد أكثر من 3000 ندوة وورشة واجتماع عمل للمناقشة شارك فيها حقوقيون، وقادة رأي، وكتاب ومفكرون وسياسيون ونشطاء مجتمع مدني، وقادة جمعيات تمثل الطوائف والجماعات [16].

يتفق اغلب المشاركين في كتابة الدستور على أنه كتب على عجالة، حيث كان البلد يعيش احداث حرب أهلية. وقانون إدارة الدولة المؤقت حدد عام 2005 لكتابة الدستور، حيث تلقت المحكمة الاتحادية (150) دعوى خلال الفترة 1 /1 /2018

ولغاية 31 /7 /2018 بين طعن بعدم دستورية تشريعات أو نصوص منها وطلبات تفسير[17].

وأهم ما تميز به دستور 2005 اقراره للحقوق والحريات السياسية والمدنية وافتقاره لوسائل حماية هذه الحقوق والحريات. واحتواؤه على مواد غامضة ومتناقضة تتعلق بنواظم الحريات السياسية، ودور الدين وحقوق المرأة. كما تغلب عليه اللغة الذكورية "مواطن، عراقي، عراقيون...الخ"، والتي يمكن تفسيرها لغير صالح المرأة. كما يمكن ملاحظة قلة عدد النساء المشاركات في الهيئة الدستورية المكلفة بوضع الدستور، فضمت هذه الهيئة ثمانية نساء من بين "71"عضوا، أي: بنسبة 11%، رغم أن المرأة تشكل حوالي 55% من سكان العراق، أي: أكثر من النصف[18].

ومما يميز الدستور العراقي لعام 2005 الميل الشديد لأسلمة السياسة والمجتمع، واتسامه بمسحة إسلامية، ما يشكل خطرا على الحريات الديمقراطية والمدنية. ويمكن ملاحظة ذلك في المواد الخاصة بالمرأة وما اعتراها من التأرجح القيمي الذي تركته ظروف التراجع في القيم المدنية الحضرية التي صيغت بها هذه المواد[19].

من اوجه قصور الدستور، انه لم تكن رئاسة لجنة كتابة الدستور من ذوي الاختصاص في القانون الدستوري. وما عزز من اوجه هذا القصور ان اغلب اعضاء اللجنة لا يمتلكون تخصصا في القانون الدستوري ايضا. لذلك نلحظ عدم الدقة في اللغة وفي استعمال المفاهيم والمصطلحات الدستورية. واتسمت تلك النصوص احيانًا بالمصطلحات العاطفية او الميول السياسية او المذهبية او العرقية[20].

يعتبر الدستور العراقي لعام 2005 من افضل الدساتير العراقية التي صدرت منذ تأسيس الدولة العراقية عام 1921، رغم بعض التحفظات عليه، حيث تضمن نصوصا واضحة وصريحة في المساواة بين المرأة والرجل، وعدم التفريق بينهما.

وهو متقدم بأشواط على كثرة من دساتير المنطقة العربية وجوارها (تركيا وايران)، من حيث إقرار الدستور للقواعد والمعايير الأساسية في الحكم الديمقراطي، واللامركزية، والفيدرالية، والحقوق والحريات السياسية والمدنية[21].

ظاهرة التعديلات الدستورية

ان التعديلات الدستورية ظاهرة طبيعية، لأنها تشير للاحتياجات المتجددة والملحة من فترة لأخرى، وان عدم إجرائها يؤدي الى تزعزع الأمور داخل الدولة[22].

ان تعديل الدستور من الموضوعات القانونية والسياسية التي تحظى بأهمية فائقة، حيث دائما ما يكون احد المطالب الأساسية للمحتجين والمنتفضين، وكذلك هو مطلب الكثير من المعنيين بالعمل السياسي والشأن العام[23].

والدستور الأميركي الذي صدر عام 1787 والذي يعتبر اول دستور مكتوب في العالم، قد عدل 27 مرة، ففي 25 أيلول 1789 تبنى مجلس النواب عشرة تعديلات مرة واحدة، التي كفلت الملكية الفردية والحقوق الشخصية وحقوق الولايات في إدارة شؤونها، وتم الغاء الرق بموجب التعديل الذي تم في 1865، وإقرار حق

الملونين في التصويت أسوة بالبيض فلقد تم بموجب التعديل عام 1870، وإقرار حق التصويت للنساء تم في التعديل عام 1920، اما تحديد انتخاب رئيس الولايات المتحدة الأميركية بدورتين انتخابيتين، فلقد تم بموجب التعديل عام 1951(24)، والتعديل الأخير تم في مايو 1992.

وفرنسا التي صدر اول دستور مكتوب فيها عام 1791، عدلت دستورها 24 مرة، وفي سنة واحدة عدل 3 مرات، وآخر التعديلات الدستورية تم إقرارها في أواخر عام 2015 واوائل عام 2016.

المبحث الثالث: المواد الدستورية الواجب تعديلها في دستور 2005

تشكل المادتان الدستوريتان 126، 142 الأساس الدستوري لإجراء التعديلات (25)، فالمادة 126 مادة استثنائية مقيدة للتعديلات، حيث:

1- قيدت اجراء أي تعديلات على الدستور قبل دورتين انتخابيتين أي 2006 - 2010، 2010 - 2014، ما يتعلق بالباب الأول "المبادئ الأساسية" والباب الثاني "الحقوق والحريات".

2- لا يجوز اجراء أي تعديل ينتقص من صلاحيات الأقاليم التي لا تكون داخلة ضمن الاختصاصات الحصرية للسلطات الاتحادية الا بموافقة مجلس نواب الإقليم.

3- ان يكون التعديل بموافقة ثلثي أعضاء مجلس النواب وموافقة الشعب بالاستفتاء العام ومصادقة رئيس الجمهورية خلال سبعة أيام.

اما المادة 142، فلقد اوجبت اجراء التعديلات من خلال لجنة تشكل من قبل مجلس النواب وتكون ممثلة للمكونات الرئيسية في المجتمع العراقي خلال مدة لا تتجاوز أربعة اشهر من بداية عمل مجلس النواب عام 2006، وهي لجنة مؤقتة يتم حلها بإنتهاء عملها، وترفع توصية بالتعديلات الضرورية التي يمكن اجراؤها على الدستور، وتعرض المقترحات على مجلس النواب وتعد مقرة بموافقة الأغلبية المطلقة لعدد أعضاء المجلس. أي ان التعديلات الدستورية شكلا وموضوعا من اختصاص مجلس النواب(26)، ولقد تم تشكيل اللجنة ولكن لم تتوصل الى توصية التعديلات الدستورية المطلوبة.

أهم المواد الدستورية التي تتطلب التعديل:

يتضمن الدستور الكثير من المواد الدستورية الجيدة ولكنه أيضا يتضمن مواد متناقضة يمكن لها ان تشكل تهديدا لتوازن النظام السياسي، وتقلص الحقوق السياسية، واستقلالية المجتمع المدني، وحقوق الإنسان والمرأة والأقليات. وان أكثر من 54 مادة يتوقف تطبيقها على تشريعها بقانون.

اكدت "انتفاضة تشرين" على تعديل الدستور ودعوة الخبراء والمختصين بالشأن القانوني والنخب الاكاديمية الى تقديم مقترحاتهم الى "خيمة كتابة الدستور" في ساحة التحرير لهذا الغرض؛ وقام مجلس النواب بتشكيل لجنة التعديلات الدستورية والتي بدأت عملها فعلا، على ان تنجز مهمتها خلال اربعة اشهر. ودعت تلك اللجنة هي الاخرى ذوي الاختصاص للمساهمة بجهود التعديل المطلوب من خلال سبل مختلفة؛ ووجود لجنة اخرى

ولنفس الغرض في رئاسة الجمهورية!!؛ كما شملت مقترحات بعثة الامم المتحدة في العراق، يونامي، تعديل الدستور واستعدادها لتقديم الدعم الفني في هذا المجال؛ كذلك دعت والتزمت اثنتي عشرة "قوة سياسية" بتعديل الدستور، وغير ذلك من الدعوات الاخرى من قبل جهات او تشكيلات سياسية او اجتماعية او مهنية او شخصيات.

الديباجة:

الأسباب الموجبة:

ما تضمنته الديباجة اقرب الى التأويل الشيعي والكردي لتاريخ العراق، ولغتها وعظية، وذكر البسملة في مفتتح الدستور مع ذكر آية قرآنية وكأنه خطاب رسمي. وتصلح ان تكون مقدمة لمقال صحفي وليس لدستور يعالج مستجدات الحاضر وتطلعات المستقبل، وهذا النوع من السرد غير مألوف في الفقه الدستوري[27]. ان الديباجة كتبت بلغة قديمة، ونفس ديني يناسب دولة إسلامية اكثر ما يناسب بلدا يطمح الى التحديث ومسايرة العصر[28].

المقترح: حذف الديباجة

المادة 2: اولا:

أ- لا يجوز سن قانون يتعارض مع ثوابت احكام الإسلام.

ب - لا يجوز سن قانون يتعارض مع مبادئ الديمقراطية.

الأسباب الموجبة:

تضمنت المادة نصين متناقضين، ما هي ثوابت احكام الإسلام؟ وهل ثمة اجماع عليها من قبل المذاهب المختلفة، فكل مذهب من المذاهب يعتقد ان مذهبه هو المعني بثوابت احكام الاسلام والمختلف معه صاحب بدعة، لان ما يعد من الثوابت في هذا المذهب لا يعد كذلك عند المذهب الآخر. وهنا تحشرنا النصوص الدستورية هذه في المعترك الفقهي المعطل لبناء الدولة المدنية[29].

المذهب الجعفري يعتبر الامامة من ثوابت احكام الاسلام باعتباره حكما قطعيا، بينما المذهب الحنفي يعتبره حكما ظنيا لجواز الاجتهاد به، وبذلك فهو ليس من الثوابت. وهكذا نجد النصوص الدستورية بدلا من أن تنظم حياتنا وتأتي لنا بالحلول نراها تزيدنا هما جديدا يعرقل خطواتنا نحو التقدم[30].

المقترح:

لجميع الأفراد الحق في التمتع بكل الحقوق الواردة في المعاهدات والاتفاقيات الدولية المعنية بحقوق الإنسان التي صادق عليها العراق، والتي لا تتنافى مع مبادئ واحكام هذا الدستور.

المادة 9 أولا: ب:

يحظر تكوين ميليشيات عسكرية خارج اطار القوات المسلحة.

الأسباب الموجبة:

تغول الميليشيات على الدولة، والجهر بارتباطاتها بدول إقليمية، وعدم امتثالها للقرارات الحكومية.

المقترح:

يحظر تكوين ميليشيات عسكرية خارج اطار القوات المسلحة، وحصر السلاح بيد الدولة.

المادة 18: ثالثا/أ:

(يحظر اسقاط الجنسية العراقية عن العراقي بالولادة، لأي سبب من الأسباب، ويحق لمن اسقطت عنه طلب استعادتها، وينظم ذلك بقانون).

المقترح: يجب شمول اليهود الذين تم تهجيرهم قسرا في بداية الأربعينات ونهايتها الى إسرائيل بحق طلب استعادة الجنسية العراقية.

المادة 29: أولا/ أ:

الأسرة أساس المجتمع، وتحافظ الدولة على كيانها وقيمها الدينية والأخلاقية والوطنية.

المقترح: الأسرة أساس المجتمع، وتحافظ الدولة على كيانها وقيمها الوطنية.

لأن القيم الدينية متنوعة وخاضعة للاجتهادات، كما ان القيم الأخلاقية تختلف بين المدينة والريف، وبين جماعات منفتحة وأخرى متزمتة، وحديثة او تقليدية، اما من الوجهة القانونية فهو تعبير هلامي. ومن السهولة بمكان استغلاله من قبل بعض الفقهاء المتشددين بإصدار تفسيرات متشددة لمعنى هذه القيم.

المادة 29: رابعا:

تمنع كل اشكال العنف والتعسف في الأسرة والمجتمع.

المقترح: تمنع كل اشكال العنف والتعسف في الأسرة والمجتمع، ويعاقب قانونيا من يمارس هذا النوع من العنف.

المادة 34:

أولا: التعليم عامل أساس لتقدم المجتمع، وحق تكفله الدولة، وهو الزامي في المرحلة الابتدائية، وتكفل الدولة مكافحة الأمية.

المقترح: أولا: التعليم عامل أساس لتقدم المجتمع، وحق تكفله الدولة، وهو الزامي في المرحلة الابتدائية، والمرحلة المتوسطة أيضا، وتكفل الدولة مكافحة الأمية.

المادة 38:

تكفل الدولة بما لا يخل بالنظام العام والآداب:

أولا: حرية التعبير عن الرأي بكل الوسائل.

ثانيا: حرية الصحافة والطباعة والإعلان والإعلام والنشر.

ثالثا: حرية الاجتماع والتظاهر السلمي، وتنظم بقانون.

الأسباب الموجبة:

مالذي يحدد النظام العام والآداب وماهي الآداب العامة في مجتمع متعدد الأديان والقوميات. فهو مبدأ فضفاض، فالآداب مفهوم اجتماعي ديني، والمذاهب الإسلامية الأربعة لكل منها تفسيره الخاص للآداب، وجميع التفسيرات متشددة، وصار لها اكثر من خمسة عشر قرنا[31].

ان "الأخلاق" و"الآداب العامة" قيم ومفاهيم نسبية متغيرة، تبعا للزمن، وللمتغيرات الكثيرة والمختلفة التي يواجهها المجتمع. ما كان يعتبر قبل الف عام ، او قبل قرن، او حتى قبل عقود، مقبولا، على الصعيد الأخلاقي، لم يعد بالضرورة مقبولا في الوقت الحاضر. القيم الأخلاقية والآداب العامة ليست نفسها داخل القرية والمدينة في العراق، وليست هي نفسها داخل جميع المدن العراقية[32].

المقترح: إضافة مواد للدستور:

رابعا: لا يجوز تأويل مقولة "النظام العام" ذريعة لكبت التعبير بوسائل سلمية عن الرأي او نشر المعلومات خدمة لمصلحة الجمهور.

خامسا: لا يجوز تأويل مقولة "الآداب" ذريعة لكبت حق الرجال والنساء في الاجتماع السلمي، ونشر المعلومات للتعبير العلني عن رأيهم.

سادسا: ينبغي لحدود النظام العام والآداب

المقيدة ألا تتجاوز المعاني التي حددتها لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

سابعا: يحدد القضاء المدني المعنى الدقيق لمفهومي "الآداب" و"النظام العام".

المادة 41:

العراقيون أحرار في الالتزام بأحوالهم الشخصية، حسب دياناتهم او مذاهبهم او معتقداتهم او اختياراتهم، وينظم ذلك بقانون.

الأسباب الموجبة:

هذه المادة تكرس التمايز الديني والطائفي وتتناقض والمادة 14 من الدستور التي تنص على ان "العراقيون متساوون امام القانون دون تمييز بسبب الجنس او العرق او اللون او المذهب او المعتقد او الرأي او الوضع الاقتصادي او الاجتماعي".

هذا النص يعني تغليب الحكم الفقهي المذهبي على نص القانون. لتوضيح ذلك نضرب المثال الآتي: سن زواج البنت في المذهب الجعفري تسع سنوات ولدى الاحناف سبع عشرة، وعند الشافعية خمس عشرة، وفي قانون الاحوال الشخصية النافذ ثمان عشرة سنة. فاذا طبق نص هذه المادة وان العراقيين احرار في احوالهم الشخصية حسب مذاهبهم، فهذا يعني ان العراقيين غير متساوين امام القانون، خلافا لما تشترطه المادة 14 من الدستور، فضلا عن ان هذا النص

يعطل احكام المادة 5 من الدستور التي تقضي بسيادة القانون.

المقترح:

أولا: يجري البت في قضايا الأحوال الشخصية وفقا لقانون مدني عام يطبق على سائر العراقيين والعراقيات، ما لم يقرر الطرفان "في عقد الزواج" خلاف ذلك، باللجوء الى محاكم دينية.

ثانيا: لا يجوز اكراه أي شخص، ذكرا او انثى، على اللجوء الى المحاكم الدينية من دون موافقته "الذكر" وموافقتها "الأنثى"، وذلك طبقا للمادة 35 من الدستور التي تحمي الفرد من الإكراه الفكري والسياسي والديني.

ثالثا: إحالة كل قضايا الاستئناف الى المحاكم المدنية.

رابعا: لا يجوز لقرارات المحاكم الدينية ان تخرق حقوق الإنسان المكفولة في الدستور، وفي الاتفاقات الدولية التي صادق عليها العراق.

المادة 43: أولا:

اتباع كل دين او مذهب احرار في:

أ- ممارسة الشعائر الدينية بما فيها الشعائر الحسينية.

الأسباب الموجبة:

تكرس التمايز الديني والطائفي

المقترح:

حذف الفقرة أولا: أ

المادة 44: أولا:

للعراقي حرية التنقل والسفر والسكن داخل العراق وخارجه.

المقترح: للفرد حرية التنقل والسفر والسكن داخل العراق وخارجه.

مفردة "الفرد" تعني الإطلاق، أي المذكر والمؤنث، ولكي لا تكون المرأة تحت طائلة حظر التنقل بدون محرم.

المادة 49:

أولا: يتكون مجلس النواب من عدد من الأعضاء بنسبة "مقعد" واحد لكل مائة الف نسمة من نفوس العراق يمثلون

الشعب العراقي بأكمله، يتم انتخابهم بطريق الاقتراع العام السري المباشر، ويراعى تمثيل سائر مكونات الشعب فيه.

ثانيا: يشترط في المرشح لعضوية مجلس النواب ان يكون عراقيا كامل الأهلية.

ثالثا: تنظم بقانون، شروط المرشح والناخب وكل ما يتعلق بالانتخاب.

رابعا: يستهدف قانون الانتخابات تحقيق نسبة تمثيل للنساء لا تقل عن الربع من عدد أعضاء مجلس النواب.

خامسا: يقوم مجلس النواب بسن قانون يعالج حالات استبدال أعضائه عند الاستقالة او الإقالة او الوفاة.

سادسا: لا يجوز الجمع بين عضوية مجلس النواب، واي عمل، او منصب رسمي آخر.

الأسباب الموجبة:

لتدارك الزيادة في عدد مجلس النواب، نتيجة للزيادة السكانية والتي تقدر بمليون نسمة سنويا، ولإنصاف المرأة.

المقترح:

أولا: يتكون مجلس النواب من عدد من الأعضاء بنسبة "مقعد" واحد لكل مائتي الف نسمة من نفوس العراق يمثلون الشعب العراقي بأكمله، يتم انتخابهم بطريق الاقتراع العام السري المباشر، وان لا يزيد العدد عن 251.

ثانيا: يشترط في المرشح لعضوية مجلس النواب ان يكون عراقيا كامل الأهلية.

ثالثا: تنظم بقانون، شروط المرشح والناخب وكل ما يتعلق بالانتخاب.

رابعا: يستهدف قانون الانتخابات تحقيق نسبة تمثيل للنساء لا تقل عن الثلث من عدد أعضاء مجلس النواب.

خامسا: يقوم مجلس النواب بسن قانون يعالج حالات استبدال أعضائه عند الاستقالة او الإقالة او الوفاة.

سادسا: لا يجوز الجمع بين عضوية مجلس النواب، واي عمل، او منصب رسمي آخر.

المادة 56:

أولا: تكون مدة الدورة الانتخابية لمجلس النواب اربع سنوات تقويمية، تبدأ بأول جلسة له، وتنتهي بنهاية السنة الرابعة.

ثانيا: يجري انتخاب مجلس النواب الجديد قبل "خمسة وأربعين" يوما من تاريخ انتهاء الدورة الانتخابية السابقة.

الأسباب الموجبة: لكي لا يكون هناك أي فراغ تشريعي

المقترح:

أولا: تكون مدة الدورة الانتخابية لمجلس النواب اربع سنوات تقويمية، تبدأ بأول جلسة له، وتنتهي بمجرد انعقاد مجلس النواب الجديد [33].

ثانيا: يجري انتخاب مجلس النواب الجديد قبل "خمسة وأربعين" يوما من تاريخ انتهاء الدورة الانتخابية السابقة.

المادة 64:

أولا: يحل مجلس النواب، بالأغلبية المطلقة لعدد أعضائه، بناء على طلب من ثلث أعضائه، أو طلب من رئيس مجلس الوزراء، وبموافقة رئيس الجمهورية، ولا يجوز حل المجلس في اثناء مدة استجواب رئيس مجلس الوزراء.

الأسباب الموجبة:

من اجل تحقيق التوازن بين السلطتين، مثلما يكون للسلطة التشريعية سحب الثقة من الوزارة، يكون للسلطة التنفيذية سلطة

حل مجلس النواب.

المقترح:

لمجلس الوزراء سلطة حل مجلس النواب،

المادة 78:

رئيس مجلس الوزراء هو المسؤول التنفيذي المباشر عن السياسة العامة للدولة، والقائد العام للقوات المسلحة، يقوم بإدارة مجلس الوزراء ويترأس اجتماعاته وله الحق بإقالة الوزراء، بموافقة مجلس النواب.

الأسباب الموجبة:

تعزيز صلاحيات رئيس مجلس الوزراء، وترصين مركزه في قيادة الدولة.

المقترح:

رئيس مجلس الوزراء هو المسؤول التنفيذي المباشر عن السياسة العامة للدولة، والقائد العام للقوات المسلحة، يقوم بإدارة مجلس الوزراء ويترأس اجتماعاته وله الحق بإقالة احد أعضاء الوزارة او اكثر والموافقة على استقالة الوزير.

المادة 92: أولا:

أولا: المحكمة الاتحادية العليا هيئة قضائية مستقلة ماليا وإداريا.

الأسباب الموجبة:

تسمى المحكمة الدستورية العليا بدلا من المحكمة الاتحادية العليا، لأنها المعنية بالرقابة على دستورية القوانين والأنظمة النافذة، وتفسير نصوص الدستور.

المقترح:

المحكمة الدستورية العليا هيئة قضائية مستقلة ماليا واداريا

المادة 92: ثانيا:

ثانيا: تتكون المحكمة الاتحادية العليا من عدد من القضاة، وخبراء في الفقه الاسلامي، وفقهاء القانون يحدد عددهم، وتنظم طريقة اختيارهم، وعمل المحكمة، بقانون يسن بأغلبية ثلثي أعضاء مجلس النواب.

الأسباب الموجبة:

تكرس التمايز الديني والطائفي، وتتناقض مع بناء الدولة المدنية

المقترح: ثانيا:

أ ـ تتكون المحكمة الدستورية العليا من عدد من القضاة من حملة الدكتوراه او الماجستير في القانون، مع خبرة لا تقل عن عشر سنوات في ممارسة القضاء، او عشرين سنة في ممارسة التعليم الجامعي.

ج ـ ألا يقل تمثيل المرأة في المحكمة عن 25% من مقاعدها.

د ـ يصادق رئيس الجمهورية على أسماء المرشحين بناء على توصية من مجلس القضاء الأعلى ومجلس الدولة ووزارة التعليم العالي ونقابة المحامين، وموافقة ثلثي مجلس النواب.

ه ـ تجديد نصف عدد أعضاء المحكمة مع انتهاء كل دورة نيابية.

و ـ تتخذ المحكمة قراراتها بحضور سائر الأعضاء وبأغلبية الثلثين.

الهوامش :

1- الدكتور علاء حسين الرهيمي، جريدة المدى، العدد 446 في 25 /7 /2005.
www.almadapaper.net/sub/07-446/p05.htm

2- علي محسن مهدي، الإجراءات الشكلية والموضوعية لتعديل الدستور العراقي لسنة 2005، دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2014، ص 14، نقلا عن د. رجب محمود طاجن، قيود التعديل الدستوري، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 2008، ص 5.

3- المؤسسة الدولية للديمقراطية والانتخابات.

4- غانم جواد، مأزق الدستور، نظرة نقدية الى الدستور العراقي، معهد الدراسات الاستراتيجية/ العراق، الفرات للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص124.

5- د. عماد الفقي، الدستور، الحالة المصرية، منشورات المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ص13.

6- عبدالرزاق السوداني، العراق.. مستقبل بدستور غامض، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2004، ص 48.

7- فراس عبدالرزاق السوداني، العراق.. مستقبل بدستور غامض، مصدر سابق، ص 50، عن الموسوعة العربية الميسرة "دستور" .

8- د. احسان حميد المفرجي، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، المكتبة القانونية، بغداد، ط2، 2004، ص 214.

9- فراس عبدالرزاق السوداني، العراق.. مستقبل بدستور غامض، مصدر سابق، ص 50.

10- د. منذر الشاوي، النظرية العامة في القانون الدستوري، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان، 2007، ط1، ص251.

11- د. منذر الشاوي، نظرية القانون في المذاهب الشمولية، اصدار المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية، عمان، 2008، ط1، ص 31 - 32.

12- الطعن رقم 13196 لسنة 76ق - جلسة 18/5/ 2006، المستحدث من المبادئ الصادرة من الدوائر الجنائية بمحكمة النقض من أول أكتوبر 2005 حتى آخر ديسمبر 2006 ص 138.

13- د. عماد الفقي، الدستور الحالة المصرية، مصدر سابق، ص13.

14- د. فالح عبدالجبار، مأزق الدستور، متضادات الدستور، معهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، ط1، 2006، ص59.

15- قانون إدارة الدولة العراقية، المادة 61/ج: يكون الاستفتاء العام ناجحا، ومسودة الدستور مصادقا عليها، عند موافقة أكثرية الناخبين في العراق، واذا لم يرفضها ثلثا الناخبين في ثلاث محافظات او أكثر.

16- د. فالح عبدالجبار، مأزق الدستور، متضادات الدستور، المصدر السابق، ص 74، نقلا عن تقرير مكتب الأمم المتحدة، بغداد، أيلول 2005.

17- إياس الساموك المتحدث باسم المحكمة الاتحادية في مقابلة مع وكالة أنباء الأناضول في 8 /8 /2018.

18- د. بلقيس محمد جواد، دور المرأة العراقية في النظام الديمقراطي، دار الحصاد، دمشق، ط1، 2013، ص11، نقلا عن احصائيات وزارة التخطيط لعام 1998، المركز القومي للتخطيط.

19- د. فالح عبدالجبار، مأزق الدستور، متضادات الدستور، مصدر سابق، ص 91 – 95.

20- د. نديم الجابري، ملاحظات حول الدستور العراقي الدائم، جريدة الصباح الجديد في 13/6/ 2015.

21- د. فالح عبدالجبار، مأزق الدستور، متضادات الدستور، مصدر سابق، ص 60. نقلا عن ناثان.ج. براون، الدساتير في عالم لا دستوري، دار نشر جامعة ولية نيويورك، 2002، ص42.

22- الدكتور صلاح الدين فوزي، التعديلات الدستورية ظاهرة طبيعية، موقع بوابة الأهرام في 9/4/ 2019.
http://gate.ahram.org.eg/News/2141145.aspx

23- د. علي مهدي، ضوابط التعديل الدستوري، مقال منشور في "شبكة النبأ" بتاريخ 19 /11 /2019.
https://m.annabaa.org/arabic/rights/21229

24- جمال احمد، الدولة الاتحادية، أسسها واصولها، بيروت، 1959، ص103 .

25- د. وائل عبداللطيف الفضل، التعديلات الدستورية، نقاش في النقاط الخلافية، الرافدين، بيروت، ط1، 2017، ص 7.
26- د. وائل عبداللطيف الفضل، التعديلات الدستورية، نقاش في النقاط الخلافية، المصدر السابق، ص12.
27- غانم جواد، مأزق الدستور، نظرة نقدية الى الدستور العراقي، مصدر سابق، ص 129.
28- عارف علوان، مأزق الدستور، الدستور الجديد ومشكلة الحريات، معهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، ط1، 2006، ص184 .
29- هادي عزيز علي، تعديل الدستور والإصلاح الدستوري ونظم الاقتراع السياسي والعملية الديمقراطية، مقال منشور في جريدة "طريق الشعب" البغدادية.
30- هادي عزيز علي، تعديل الدستور والإصلاح الدستوري ونظم الاقتراع السياسي والعملية الديمقراطية، مصدر سابق.
31- عارف علوان، مأزق الدستور، الدستور الجديد ومشكلة الحريات، مصدر سابق، ص186.
32- حسين كركوش، مأزق الدستور، معنى القيم الأخلاقية في الدستور العراقي الدائم، معهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، ط1، 2006، ص207.
33- د. علي مهدي، مقترحات لموضوعات التعديل الدستوري، مقال منشور في جريدة "طريق الشعب" البغدادية، العدد 76 في 19 /11 /2019 .

في تنظيم التعيين للوظائف القيادية

د. علي مهدي

المقدمة

عادة ما تثار إشكاليات متعددة عند أية تعيينات للمواقع القيادية في أجهزة الدولة من قبل مجلس الوزراء، وبالأخص عندما تكون هذه التعيينات من خارج نسق المحاصصة الطائفية والقومية وغير المحسوبة على القوى السياسية المتنفذة، بعد أن أصبح عرفاً سائداً أن تكون هذه التعيينات محصورة في ما بينها، بعيدا عن مبدأ المساواة والنزاهة والكفاءة والتسلسل الوظيفي للمنصب، وكما هو معروف باتت هذه الوظائف احد ميادين الصراع وبسط النفوذ، حيث تضم أعدادا ضخمة من وكلاء الوزارات والدرجات الخاصة وأعضاء الهيئات المستقلة والمدراء العامين والمناصب العسكرية والأمنية، والتي تشكل ما يسمى (الدولة العميقة)، وإن التعيينات في ظل هذه السياقات أدت إلى ضعف وتدهور أداء أجهزة الدولة وتلكؤها في تلبية الحاجات الأساسية للمجتمع.

نستعرض في هذه المادة، تنظيم التعيين في الوظائف القيادية، من حيث الجهات المختصة في إجراءات التعيين لهذه الوظائف وفق الوثائق الدستورية والقانونية، مع تبيان الملاحظات حولها، وكذلك تقديم بعض المقترحات من اجل أن يكون اختيار هذه الوظائف على أساس الجدارة والاستحقاق بعيدا حالة التسييس والتحزب التي طغت عليها.

بعد اتساع نشاط الدولة وتحديد وظيفتها في إشباع الحاجات العامة وتحولها من الدولة الحارسة التي تعنى بقضايا الأمن الداخلي والخارجي والقضاء إلى الدولة التي تهتم بتزايد الحاجات الاجتماعية وتشابكها ومطالبة الشعوب بتحقيق (دولة الرفاهية)، احتلت الوظيفة العامة دورا مهما في تطور المجتمعات وتقدمها، ومكانتها الكبيرة في تنفيذ السياسة العامة للدولة من خلال تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات وعلى مختلف نظمها السياسية وخلفياتها الأيديولوجية.

ويتمثل العنصر البشري للوظيفة العامة من خلال الموظفين الذين يلعبون الدور الأساسي في نجاح الوظيفة العامة، فمتى ما كانت اختياراتهم صالحة لأداء مهامها، سارت المرافق العامة للدولة بشكل منتظم وملبٍ وبشكل مرضٍ للحاجيات العامة.

ويكون لاختيار القيادات للوظيفة العامة الأثر الكبير لتنفيذ السياسة المرسومة من قبل الدولة، وان تكون هذه القيادات على مستوى من المسؤولية والإدراك للمواقع التي تحتلها. ولأجل ذلك وضعت النُظم الخاصة في اختيار القيادات من خلال تحديد بعض الشروط والمعايير.

لقد أصيبت الوظيفة العامة في العراق باختلال كبير ارتباطا بمنهج وآليات إدارة الدولة، التي ورثت العديد من الإشكاليات

من النظام البائد، وقد ترسخت أكثر، في ما بعد التغيير. ويفتقد إسناد الوظيفة العامة المعايير الواضحة والصريحة، كما يخضع للمحاصصة وللمحسوبية والمنسوبية، ولأغراض جمع المريدين والوساطة والرشوة والإغداق على ذوي القربى. وقليلة هي الحالات التي يجري التعيين فيها عبر الإعلان واختيار الشخص المناسب للوظيفة المعلنة[1].

التعيين عبر المراحل التاريخية في الدولة العراقية

تتطرق الوثائق الدستورية والقوانين والأنظمة المعنية بالتعيين بشكل عام، إلى السلطات المختصة بتعيين بعض الوظائف السياسية والإدارية في الدولة من خلال تحديد الجهات التي تقوم بالترشيح لهذه الوظائف، كذلك للجهات التي توافق وتصادق عليها، مع تحديد بعض الشروط والمعايير.

في العهد الملكي

نظم القانون الأساسي العراقي لسنة 1925 أسلوب التعيين للمناصب القيادية في أجهزة الدولة المدنية والعسكرية والأمنية والقضائية، من خلال تحديده الجهة الإدارية المختصة وهي الوزير، فقد نص القانون الأساسي: (للملك، بناء على اقتراح الوزير المسؤول، يعين ويعزل جميع الممثلين السياسيين، والموظفين الملكيين، والقضاة والحكام، ويمنح الرتب العسكرية، ويعين قواد الفرق فما فوق، ما لم يفوض إلى سلطة أخرى بقانون...)[2]، إما بالنسبة إلى تعيين نواب للوزراء، فهي من صلاحية مجلس الوزراء، وقد حصر الترشيح لمنصب نائب الوزير، بأعضاء مجلس الأمة تحديدا، الذي يتشكل أعضاؤه من مجلسي النواب والأعيان، مع العلم أن القانون الأساسي أجاز العضوية المشتركة بين مجلسي الوزراء والنواب، وهو المعمول به في النظم البرلمانية التقليدية.

وفي ظل تشكل البناء الإداري للدولة العراقية وانتشار أجهزة الحكومة وتزايد أعداد العاملين فيها، ظهرت الحاجة إلى تنظيم الوظيفة العامة، وبذلك صدر أول قانون للخدمة المدنية سنة 1931، وبعد ذلك تم إصدار قانون رقم 64 لسنة 1939، حيث نص على (أن من يرغب لأول مرة في التوظيف أن يجتاز امتحاناً تتولاه اللجان المختصة بانتقاء الموظفين على وفق طبيعة كل وظيفة يراد فيها التعيين)[3]. وبعد ذلك بسنة صدر نظام انتقاء الموظفين لسنة 1939، الذي أجاز للوزير ورئيس الدائرة أن يطلب من اللجنة المختصة إعادة النظر في الامتحان أو حتى إعادة تقدير درجات الامتحان، وشكل هذا النظام إخلالا بمبدأ الجدارة في التعيين، إذ جرى طلب الإعادة على نحو سلبي[4].

وأمام التطور الحاصل في مجال الوظيفة العامة واتساع عدد الموظفين وحاجة الدولة المتزايدة إلى التعيين صدر قانون الخدمة المدنية رقم 55 لسنة 1956، والذي شكل إضافة نوعية لترسيخ مبدأ الجدارة في التعيين، حيث اوجب القانون على مجلس الخدمة القيام بامتحان لاختيار مؤهلات الأشخاص المراد تعيينهم للتأكد من مدى الجدارة التي يتمتعون بها، وعلى الصفات الشخصية والأخلاقية التي يتحلون بها.

في العهد الجمهوري

على اثر نجاح ثورة 14 تموز 1958، وسقوط القانون الأساسي لسنة 1925، تم إعلان الدستور المؤقت لسنة 1958، والذي كان مقتضبا جدا ومنح السلطات المطلقة لقائد القوات المسلحة أو رئيس الوزراء أو مجلس السيادة، فأصبحت التعيينات مرتبطة بالسلطة التنفيذية والتي تتولى السلطة التشريعية بتصديق مجلس السيادة، وهي التي أصدرت قانون رقم 24 لسنة 1960، والذي نظم الوظيفة العامة من حيث التعيين والترقية في الوظيفة. وقد تطرقت المادة 8 من القانون إلى تعيين الدرجات الخاصة وبعض الصفات العليا من الوظائف، وقد جاء هذا القانون امتدادا للقانون السابق، لكنه أضعف من دور مجلس الخدمة العامة، وأصبحت اغلب الامتحانات ذات طابع شكلي[5].

أما دستور 1964 فقد تطرق إلى صلاحيات رئيس الجمهورية والتي منها تعيين الضباط وإحالتهم على التقاعد وفقا للقانون، وكذلك الموظفين المدنيين والقضاة والحكام والممثلين السياسيين[6]، وان من صلاحية مجلس الوزراء والذي له ممارسة السلطة التشريعية: تعيين الموظفين وعزلهم وفصلهم أو إحالتهم على التقاعد طبقا للقانون[7].

لم يختلف دستور 1968 عن دستور 1964 في ما يخص التعيين، حيث بقيت من اختصاص رئيس الجمهورية، الذي هو المعني بتعيين الموظفين والضباط والحكام والقضاة والممثلين السياسيين[8].

بعد سنتين من صدور الدستور السابق، صدر دستور 1970 والذي كان أكثر تفصيلا من الدساتير المؤقتة السابقة، وهو أول الدساتير العراقية التي خصصت مادة مستقلة إلى الوظيفة العامة، وهي المادة 30 التي نصت على:

أ- الوظيفة العامة أمانة مقدسة وخدمة اجتماعية، قوامها الالتزام المخلص الواعي بمصالح الجماهير وحقوقها وحرياتها، وفقا لأحكام الدستور والقانون.

ب- المساواة في تولي الوظائف العامة يكفلها القانون.

إن دستور 1970 لا يختلف عن الدساتير المؤقتة الأخرى في ما يخص التعيين، فقد نص على ان من صلاحيات رئيس الجمهورية تعيين (القضاة وموظفي الدولة المدنيين والعسكريين وكذلك الممثلين الدبلوماسيين)[9]، وكذلك لمجلس الوزراء الذي يعقد جلساته بدعوة من رئيس الجمهورية، صلاحية تعيين موظفي الدولة المدنيين وترفيعهم[10].

وبعد زيادة واردات الدولة واتساع دورها في تنفيذ خطط التنمية والحاجة المتزايدة لعدد الموظفين، اصدر مجلس قيادة الثورة المنحل القرار رقم 996 لسنة 1979[11]، الذي ألغى مجلس الخدمة. وعلى ضوء ذلك، صدرت تعليمات وزارة المالية رقم 119 لسنة 1979 التي منحت صلاحيات مجلس الخدمة إلى الوزير، وتشكيل لجنة في كل وزارة لتكون الجهة المختصة في التعيين، عندما تتجاوز أعداد المتقدمين العدد المحدد للوظائف الشاغرة.

في عهد ما بعد الاحتلال والتغيير

على اثر احتلال الولايات المتحدة وحلفائها للعراق سنة 2003 وانتهاء العمل بدستور 1970 المؤقت، أصدرت سلطة

الائتلاف المؤقتة قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية لسنة 2004، ليكون الدستور المؤقت حتى الاستفتاء على دستور جديد وبدء سريان العمل بموجبه.

• **قانون إدارة الدولة**

يعد قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية بداية التحول من النظام المركزي إلى النظام الاتحادي (الفيدرالي)، وتقسيم السلطات بين الحكومة الاتحادية والحكومات الإقليمية والمحافظات والبلديات والإدارات المحلية. وقد شكل هذا التحول، التخلي عن التعيين للوظائف القيادية للتشكيلات الإدارية للدولة من قبل المركز، وأن يكون التعيين عبر أسلوب الانتخاب المباشر وغير المباشر، بدل التعيين المركزي، فقد نصت الفقرة (أ) من المادة الخامسة والخمسين من القانون على: يحق لكل محافظة تشكيل مجلس محافظة وتسمية محافظ، وتشكيل مجالس بلدية ومحلية.

فيكون انتخاب رئيس الإقليم والوزارة من اختصاص السلطة التشريعية في الإقليم، والتي تُنتخب من قبل مواطني الإقليم. وهذا تجسيد للنظام الديمقراطي الفيدرالي، وكذلك يكون انتخاب المحافظ والحكومة المحلية من قبل مجلس المحافظة الذي يتم اختياره عبر انتخابات عامة من قبل مواطني المحافظة. وهذا تجسيد لإدارة اللامركزية الديمقراطية، التي نص عليها القانون. وبذلك أصبح الانتخاب إحدى الطرق الأكثر انتشارا عند التعيين في العديد من المواقع السياسية والإدارية العليا في الدولة، وهذا هو رد فعل على أسلوب التعيين من قبل المركز، الذي ركز السلطات بيد رئيس الجمهورية وخلق الأرضية المناسبة لنشوء الديكتاتورية والنظام الشمولي في العراق، وهو استجابة منطقية لمتطلبات العصر الحديث، الذي يدعو إلى أسلوب المشاركة الشعبية عبر الأساليب الديمقراطية في اختيار القيادات الوظيفية، الذي أخذت به الدول الديمقراطية الاتحادية أو ذات الإدارة اللامركزية، أو الاثنين معاً.

وقد تبنى قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية نهجا جديدا في التعيين لبعض المناصب القيادية للتشكيلات العسكرية والأمنية، لم تعهد به النظم السياسية السابقة في الدولة العراقية، ولا حتى في العديد من النظم الديمقراطية البرلمانية، عندما اشترط موافقة السلطة التشريعية على توصية الوزارة بتعيين هذه الوظائف، ووفق النص الآتي: يقوم مجلس الوزراء بتعيين المدير العام لدائرة الاستخبارات العامة وكذلك بتعيين كبار الضباط في القوات المسلحة العراقية من رتبة عميد فما فوق. وتكون هذه التعيينات خاضعة لمصادقة الجمعية الوطنية بالأغلبية البسيطة لأعضائها الحاضرين [12].

إن هذه الصلاحية للسلطة التشريعية تُشكل أول مشاركة لها في تعيين بعض الوظائف القيادية في أجهزة الدولة من غير الوزراء. إن خلفية النص الوارد جاءت، كرد فعل للنهج الذي اتبعه النظام السابق، عندما انحاز عند التعيين لقيادة المؤسسة العسكرية إلى لون طائفي محدد، وعدم مراعاة التنوع القائم في تشكيلة هذه المؤسسة والمجتمع.

ومن الجدير بالذكر أن القانون قد خول مجلس الوزراء الموافقة على ترشيح الوزراء، للوكلاء وبعض القيادات الوظيفية

لغرض التعيين للحصول على مصادقة مجلس الرئاسة، وفق النص الآتي: ولكل وزارة، حسب اختصاصها ترشيح وكلاء الوزارات والسفراء وباقي موظفي الدرجات الخاصة، وبعد موافقة مجلس الوزراء على هذه الترشيحات، ترفع إلى مجلس الرئاسة لإقرارها [13]، وهذه عودة محمودة للقانون الأساسي لسنة 1925 والتي تمت الإشارة إليها سابقا في تعيين بعض الوظائف القيادية من قبل الوزير.

• دستور 2005

بعد التصويت على دستور 2005 النافذ، أصبح للسلطة التشريعية المزيد من الصلاحيات للموافقة على مقترح التعيينات، الصادرة من السلطة التنفيذية، فقد وسّع المشرع العراقي من عدد الوظائف التي تحتاج إلى موافقة مجلس النواب، فبعد ان كانت التعيينات محصورة في بعض المناصب القيادية للمؤسسة العسكرية، فقد تم نقل التعيينات للمناصب التي كانت من صلاحية مجلس الرئاسة المصادقة عليها الى مجلس النواب ووفق النص الآتي: لمجلس الوزراء التوصية إلى مجلس النواب بالموافقة على تعيين وكلاء الوزارات والسفراء وأصحاب الدرجات الخاصة، ورئيس أركان الجيش ومعاونيه ومن هم بمنصب قائد فرقة، فما فوق، ورئيس جهاز المخابرات الوطني، ورؤساء الأجهزة الأمنية [14].

وهذه سابقة لم تشهدها النظم البرلمانية ذات العراقة في الديمقراطية، التي تترك مهمة تعيين وظائف قيادة الأجهزة الإدارية لموافقة مجلس الوزراء، باقتراح من الوزير المختص وفق بعض الشروط والضوابط. ويبدو أن المشرع العراقي، قد تأثر بالنظام الرئاسي القائم في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد انتهج مقاسمة التعيينات للمناصب الوظيفية القيادية ما بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، حيث سلطات تعيين الكثير من المواقع القيادية تمر عبر مقترح من الرئيس وموافقة مجلس الشيوخ، الذي يتشكل من شيخين لكل ولاية. وذلك لضمان مراعاة تمثيل الولايات في التعيين. كذلك للمبدأ الذي قام عليه النظام العراقي ما بعد التغيير، وهو التوافقية في بناء تركيب الدولة.

ونادرا ما تتم الموافقة على التوصيات من قبل مجلس النواب، إذا لم تكن موزعة وفق مبدأ المحاصصة الطائفية والقومية والقائمة على الاستحقاق الانتخابي الحزبي، وأن أي خروج عن هذا المبدأ، ستكون له تداعيات سلبية، مع العلم أن هذه التعيينات للوظائف القيادية تنسحب على العديد من الوظائف الأدنى المعينة في دوائر الدولة ومؤسساتها، بعيدا عن مبدأ المساواة العامة والنزاهة والكفاءة والجدارة، ما اضر بعمل هذه الوظائف وعدم قدرتها على أداء مهامها بالشكل المطلوب.

وان هذا النص الدستوري ومن خلال الممارسة لما يقارب خمس عشرة سنة، قد ساهم في تكريس نهج المحاصصة الطائفية والقومية والقائم على التمثيل الحزبي، وكذلك في إضعاف دور مجلس الوزراء، باعتباره المعني بتنفيذ السياسة العامة للدولة والمشرف على عمل الوزارات والجهات غير المرتبطة بوزارة.

ويسري هذا النهج أيضا على الهيئات

المستقلة التي تم استحداثها في الدستور العراقي وهي بمستوى الوزارات. وبالعودة إلى قوانينها ونظام تشكيل مجالسها، نرى في الغالب أن تعيين الرئيس ونائبه والأعضاء، يكون بمقترح من قبل مجلس الوزراء وموافقة مجلس النواب، حيث يتم توزيع الرؤساء ونوابهم والأعضاء حسب اتفاقات مسبقة ما بين ممثلي القوى السياسية في مجلس النواب وحسب الانتماءات القومية والطائفية، ودون مراعاة للمساواة في تولي الوظائف العامة والكفاءة.

إن حصيلة تجربة السنوات السابقة، لم تعط النتائج المرجوة التي توخى منها المشرع العراقي، وهو أن يكون هناك تشاور وتعاون متبادل بين الحكومة ومجلس النواب بخصوص الموافقة على مقترحات الوزارة وملء الشواغر لهذه المناصب، وعدم بقاء القسم الأعظم منها يعمل بالوكالة، بسبب عدم اتفاق الكتل البرلمانية في ما بينها على المقترحات المقدمة، لأنه في الغالب تريد هذه الكتل حصة من هذه المناصب، بغض النظر عن توفر الشروط والضوابط.

وقد جاء في النظام الداخلي لمجلس الوزراء والذي تم اقراره سنة 2014، بهذا الجانب ما يأتي: الموافقة على تعيين المديرين العامين ومن بدرجتهم على وفق القانون ونظام كبار موظفي الخدمة المدنية (وبما يحقق التوازن الوطني) (تم حذف هذه الفقرة في النظام الداخلي الجديد لمجلس الوزراء لسنة 2019) على وفق الدستور والتشريعات ذات الصلة النافذة وإحالتهم على التقاعد بناء على طلبهم[15].

أي أن السلطة المختصة بتعيين المدراء العامين هي مجلس الوزراء، وقد تم تقييده بإتباع القانون المعني بترشيح المدراء العامين، وفق الفقرة 2، المادة 8 من قانون الخدمة المدنية رقم 4 لسنة 1960، التي تنص على أن يكون الترشيح للمدير العام من قبل الوزير المختص، ومن الملفت للانتباه، لم يظهر للإعلام ان مجلس الوزراء ناقش مقترحات التعيين المقدمة إليه والموافقة عليها، وعادة ما تصدر قرارات التعيين موقعة باسم رئيس مجلس الوزراء، أو من هو المخول باسمه.

أهم المقترحات:

وعلى ضوء الملاحظات التي تم التطرق إليها على الوثيقة الدستورية النافذة، ومن اجل تحديد صائب للجهات المعنية بالتعيين في الوظائف الخاصة القيادية والعليا، ندرج أدناه أهم المقترحات للدراسة والأخذ بما هو مناسب، عند إجراء تعديل دستوري مرتقب، وكذلك عند إصدار القوانين ذات الصلة بالموضوع:

1- إلغاء البندين: ب، ج من الفقرة خامسا من المادة 61 من الدستور والتي تنص على: الموافقة على تعيين كل من:

ب- السفراء وأصحاب الدرجات الخاصة، باقتراح من مجلس الوزراء.

ج- رئيس أركان الجيش، ومعاونيه، ومن هم بمنصب قائد فرقة فما فوق، ورئيس جهاز المخابرات، بناءً على اقتراح من مجلس الوزراء.

2- إلغاء الفقرة خامسا، المادة 80 من الدستور، والتي تنص على لـ مجلس الوزراء التوصية إلى مجلس النواب بالموافقة على تعيين وكلاء الوزارات والسفراء وأصحاب الدرجات الخاصة، ورئيس أركان الجيش

ومعاونيه ومن هم بمنصب قائد فرقة، فما فوق، ورئيس جهاز المخابرات الوطني، ورؤساء الأجهزة الأمنية.

3- تثبيت نص دستوري يتضمن أن صلاحية تعيين الموظفين المدنيين والعسكريين والممثلين السياسيين، بناء على اقترح من الوزير المسؤول أو رئيس الهيئة المستقلة وبموافقة مجلس الوزراء، ووفقاً للقانون.

4- إضافة فقرة للمادة (107) الخاصة بمجلس الخدمة العامة وحسب النص الآتي: إن الوظيفة العامة هي خدمة اجتماعية للمرافق العامة للدولة، وتعمل وفقاً لمبدأ المساواة والكفاءة والتسلسل الوظيفي.

5- إصدار قانون موحد للنظام الإداري للدولة، ينظم الخدمة المدنية، والموظف والوظيفة، ويواكب التطورات الحديثة في هذا المجال ويستجيب لمستلزمات الحاجة الفعلية.

الهوامش :

1- وثائق المؤتمر الوطني العاشر للحزب الشيوعي العراقي، تقرير اللجنة المركزية، دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2016، ص 104 - 105.
2- الفقرة 7، المادة السادسة والعشرون، من القانون الأساسي لسنة 1925.
3- المادة 6 من قانون رقم 64 لسنة 1939.
4- المادة 9 من نظام انتقاء الموظفين رقم 32 لسنة 1940.
5- أجري أكثر من 200 تعديل على هذا القانون، وبالإضافة إلى صدور عدد من القوانين ذات الصلة ومنها:
أ-قانون الدرجات الخاصة رقم 8 لسنة 1966 وتعديلاته.
ب- قانون انضباط موظفي الدولة والقطاع العام رقم 14 لسنة 1991.
ت-قانون مجلس شورى الدولة رقم 65 لسنة 1979 وتعديله الأول رقم 17 لسنة 2013.
ث- قانون الملاك رقم 25 لسنة 1960.
ج- قانون الخدمة الخارجية رقم 45 لسنة 2008 .
ح- قانون المحافظات غير المنتظمة في إقليم رقم 21 لسنة 2008 وتعديلاته.
خ- قانون الخدمة والتقاعد العسكري.
6- الفقرتان: أ، ب، المادة 46 من الدستور العراقي لسنة 1964.
7- الفقرة د، المادة 69 من الدستور العراقي لسنة 1964.
8- الفقرات: د، ه، و، ز، المادة الخمسون من الدستور العراقي لسنة 1968.
9- الفقرات: هـ، و، من المادة 58 من الدستور العراقي لسنة 1970.
10- الفقرة ج، المادة 62 من دستور العراقي لسنة 1970.
11- جريدة الوقائع العراقية، العدد 2726 في 20 /8/ 1979.
12- الفقرة د، المادة التاسعة والثلاثون من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية لسنة 2004.
13- المادة الثانية والأربعون من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية لسنة 2004.
14- الفقرة خامسا، المادة 80، من الدستور العراقي لسنة 2005.
15- الفقرة الثانية عشرة، المادة 2 من النظام الداخلي لمجلس الوزراء.

الاتجاهات الحديثة في توليد الطاقة من مصادر متجددة

د. عادل كنيش مطلوب
مستشار علمي سابق في وزارة العلوم والتكنولوجيا

دفعت المشاكل الخطرة، في الآونة الأخيرة، لأزمة الاحتباس الحراري، العلماء الى السعي لإيجاد مصادر متجددة للطاقة كفوءة بدلا من الطاقة المتولدة من الوقود الاحفوري، لما للأخير من دور أساسي في الاحتباس الحراري، إضافة الى المصادر الأخرى مثل مصادر اللحوم من الماشية. إن التطورات الحاصلة في هذا المجال لما لها من خدمات جليلة للإنسانية الا إنها في نفس الوقت ترسل رسائل تحذير، ذات دلالات مهمة، الى الدول المعتمدة على النفط كمصدر رئيسي في اقتصادها، والتي عليها تنويع مصادرها، لتجنب حالات الإفلاس التي ستتعرض لها.

ستستعرض هذه المقالة آخر البحوث والتقنيات التي تم نشرها في المجلات العلمية العالمية المتخصصة، والتي تشمل الحقول الاتية:

1. رفع كفاءة الالواح الشمسية المستخدمة في توليد الطاقة.
2. الذكاء الصناعي ودوره في توليد طاقة بكفاءة لم تعرف من قبل.
3. التخزين الحراري
4. عمليات اللكونتوم (Quantum Processes) ودورها في زيادة كفاءة المواد المستخدمة في توليد الطاقة.
5. المفاعلات النووية لتوليد الطاقة.

الألواح الشمسية

تعد الألواح الشمسية قطعا رائعة من التكنولوجيا، لكن هناك حاجة ماسة إلى حل كيفية جعلها أكثر كفاءة - في العام الماضي، حل العلماء لغزا عمره 40 عاما حول إحدى العقبات الرئيسية أمام زيادة كفاءة هذه الألواح.

أوضحت دراسة1 أجريت في عام 2019 وجود خلل مادي في السيليكون المستخدم لإنتاج الخلايا الشمسية لم يسبق اكتشافها من قبل. يمكن أن يكون مسؤولاً عن انخفاض الكفاءة بنسبة 2 في المائة، الذي يمكن أن تراه الخلايا الشمسية في الساعات الأولى من الاستخدام: ما يعرف بالتحلل الناتج عن الضوء (LID).

إن حاصل ضرب هذا القصور بالعدد المتزايد من الألواح المركبة في المزارع الشمسية في جميع أنحاء العالم، يعادل كمية كبيرة من آلاف الملايين من وحدات

الطاقة لمصادر يجب توفيرها من مصادر طاقة غير متجددة لتعويضها.

في الواقع، تقدر الخسارة في الكفاءة في جميع أنحاء العالم من التحلل الناتج عن الضوء ما يعادل طاقة أكثر مما يمكن أن تولده محطات الطاقة النووية الخمسة عشر في المملكة المتحدة. يمكن أن يساعد الاكتشاف الجديد العلماء في تعويض هذا النقص.

للعثور على ما كان من الممكن تحديده في السابق؛ تمت مراجعة 270 ورقة بحثية على مدار أربعة عقود، استخدمت آخر دراسة تقنية كهربائية وبصرية تسمى التحليل الطيفي عابر المستوى (DLTS) للعثور على نقاط الضعف في السيليكون. ما وجده التحليل الطيفي عابر المستوى: عندما تتعرض الخلية الشمسية لأشعة الشمس ينتج عنها شحنة إلكترونية، لكن تدفق هذه الشحنات الالكترونية يكون معاقا، وهذا بدوره يقلل من مستوى الطاقة الكهربائية التي يمكن إنتاجها.

وجد الفريق أن هذا العيب يظل خامداً إلى أن يتم تسخين الألواح الشمسية؛ حيث ذكر أحد الباحثين، إيان كرو، من جامعة مانشستر: "لقد أثبتنا وجود العيب، إننا الآن بانتظار إصلاح هندسي للتغلب على ذلك".

كما وجد الباحثون أيضًا أن السيليكون عالي الجودة يحتوي على ناقلات شحن (الإلكترونات التي تحمل طاقة الفوتون) لها "عمر افتراضي" أطول، وهو ما يدعم فكرة أن هذه التراجع مرتبط بتدهور الكفاءة.

والأكثر من ذلك، فإن تسخين المادة في الظلام، وهي عملية تستخدم غالبا لإزالة التراجع في السيليكون، يبدو أنها تعكس هذا التراجع.

يستمر العمل على رفع معدلات كفاءة الألواح الشمسية إلى الأعلى، مع استمرار حدوث اختراقات في المختبرات، كما تقدم الطبيعة الكثير من نصائح الكفاءة. الآن وبعد حل لغز التحلل الناتج عن الضوء، يجب أن تستفيد من المزارع الشمسية في جميع أنحاء العالم.

ففي هذا الصدد تم استخدام تقنية2 رفعت من متوسط كفاءة الالواح الشمسية التجارية من 11 و22 بالمائة الى نسبة هائلة تصل إلى 80 في المائة.

تعتمد التقنية الجديدة على مجموعة من الأنابيب النانوية الكربونية أحادية الجدار، والتي تستعيد الفوتونات الحرارية للأشعة تحت الحمراء - وتلك هي الحرارة - التي تفقدها الخلايا الشمسية. بعد ذلك، تحول تلك الطاقة الى ضوء بطول موجي مختلف، والذي بدوره يمكن إعادة تدويره إلى كهرباء.

إن المشكلة هنا تكمن في أن الإشعاع الحراري هو من نوع النطاق العريض، في حين أن تحويل الضوء إلى كهرباء، لا يكون فعالاً إلا إذا كانت الانبعاثات في نطاق ضيق. كان التحدي هو ضغط فوتونات النطاق العريض ووضعها في نطاق ضيق.

كما إن التدوير الجديد لتكنولوجيا قديمة3 يعد بتخفيف الضغوط المتزايدة على نقطة الترابط بين الماء والطاقة التي تهدد مستقبلنا.

هذان الموردان هما وسائل راحة

يعتبرها الكثيرون منا أمرا مفروغا منه؛ لكن أكثر من 780 مليون شخص حول العالم يفتقرون حاليا إلى سهولة الحصول على المياه النظيفة. حتى أن مزيدا من الناس لا يحصلون على الكهرباء.

كما ان هناك علاقة ثنائية مزدوجة بين المياه النظيفة والكهرباء، والتي نادراً ما نفكر فيها كثيرًا؛ فإن محدودية الوصول إلى المياه العذبة نسبيا تجعل من المستحيل توليد بخار فعال للكهرباء على نطاق ملموس. وبدون وجود مصدر مناسب للطاقة، قد يكون من الصعب إزالة التلوث من الماء أو حتى الوصول إليه في المقام الأول.

يمكن أن توفر حقول الألواح الشمسية الكهرباء للسكان في المناطق النائية والجافة. لكن رشها بالماء هو وسيلة جيدة لإبعاد الغبار عنها، وهو أمر لا يتم بسهولة في مثل هذه المناطق القاحلة.

لضرب عصفورين بحجر، أدرك الباحثون وراء هذا المشروع الأخير أنهم قادرون على حل كلتا المشكلتين من خلال إنشاء خلية ضوئية تستخدم أشعة الشمس كوسيلة لتوليد الكهرباء وتقطير المياه.

مما لا يثير الدهشة، أن ربط الخلايا الكهروضوئية مع تطهير المياه ليس بالأمر الجديد. تستخدم شركة ناشئة تدعى Zero Mass Water الطاقة الشمسية لتكثيف المياه السائلة الممتصة مباشرة من الجو، على سبيل المثال.

ولكي تكون مفيدة، على الرغم من ذلك، يجب أن تكون هذه الأجهزة صغيرة وبأسعار معقولة، مما يترك مساحة كبيرة للتحسين.

صمم مهندسو هذا الجهاز الأخير خلاياهم مع الأخذ في الاعتبار الكفاءة، وطوروا مكونات التقطير تحت خلية ضوئية من السليكون قياسية إلى حد ما، بطريقة لا تؤثر على إنتاج الطاقة للخلية.

إن ما يزيد قليلاً على 10 في المائة من أشعة الشمس التي تجمعها خلايا الطاقة الضوئية في يوم صافٍ، يتجه نحو توليد تيار كهربائي، وهي كفاءة ليست بعيدة جدا عن تكنولوجيا الطاقة الشمسية التقليدية.

جزء من الإشعاع الشمسي المتبقي يصبح طاقة حرارية، والتي عادة ما تضيع. بدلاً من ذلك تمتص تلك الحرارة بواسطة كومة تشبه الفطيرة من أغشية نافرة من الماء مخلوطة بين المواد المختارة للمساعدة في التبخر والتكثيف.

تجبر الحرارة الماء على التحول إلى بخار كما هو الحال مع الطاقة الشمسية. ولكن أثناء تكثيفها، يتم نقل الطاقة الحرارية إلى أغشية أقل لتكرار العملية، مما يؤدي إلى معدل تقطير أعلى.

من خلال تكديس الأغشية بهذه الطريقة، وجد الباحثون بأنهم يمكن أن يحسنوا من اللقطات الشمسية التقليدية، ويحتمل أن ينتجوا حوالي خمسة أضعاف كمية المياه النظيفة.

لقد وجدوا بأن عرض متر مربع واحد فقط من جهاز التقطير الغشائي متعدد المراحل هذا ينتج أكثر من 1.6 لتر من مياه البحر في الساعة، كل ذلك دون المساس بكمية الكهرباء التي تنتجها الخلية الكهروضوئية في الأعلى.

في العام الماضي، شكلت إنتاجية الطاقة الشمسية أكثر من 500 جيجاوات من

الكهرباء في العالم. بحلول عام 2025، يعتقد الباحثون أننا قد نقترب من مضاعفة هذا الرقم.

هذه أخبار جيدة، ولكن لتحقيق ذلك، سنحتاج إلى حوالي 4 مليارات متر مربع من الأرض. إن مضاعفة ذلك بأغشية التقطير يمكن نظريًا تنقية ما يعادل 10 ٪ من مياه الشرب لعام 2017.

على سبيل المثال، تحلية المياه لديها أيضا القدرة على خدمة أعداد كبيرة من السكان، ولكن فقط في حالة توفر الطاقة. في عام 2016، ساهمت مياه البحر بنسبة 3 في المائة من المياه العذبة في دول الشرق الأوسط، ولكنها تحتاج إلى 5 في المائة من الكهرباء لجعلها عملية.

وأخيرا نسبة الى Michigan State University يمكن استخدام ما يصل إلى سبعة مليارات متر مربع من السطوح الزجاجية في الولايات المتحدة لتوليد الكهرباء لتلبية "تقريبا كل" احتياجات الطاقة الكهربائية في أمريكا.

الذكاء الصناعي

من الواضح أن الذكاء الاصطناعي قد شهد عدة سنوات من التطور الهائل، وذلك بفضل وفرة البيانات والانخفاض الهائل في تكلفة الطاقة الحاسوبية - بمساعدة بالطبع من عمالقة الإنترنت.

تمكنت شركة ناشئة جديدة من تسخير الطاقة الشمسية لتحقيق أكبر تأثير من أي وقت مضى، بتوليد حرارة كافية من مجال الألواح ذات المرايا كافية لتزويد معامل إنتاج الاسمنت والصلب والزجاج - وهي معامل تعتمد عادة على الوقود الأحفوري.

تمشيا مع عصرنا الحديث، أصبحت هذه الحرارة والكفاءة الزائدة ممكنة من خلال الذكاء الصناعي: برنامج كمبيوتر يمكنه وضع المرايا بشكل مثالي، لتركيز أشعة الشمس بأكثر الطرق كثافة.

إن أشعة الضوء التي تركز؛ قادرة على إنشاء فرن شمسي يصل إلى 1000 درجة مئوية (1832 درجة فهرنهايت)، وهو أمر لم يحدث من قبل في بيئة تجارية. وهذا يعني أن الطاقة الشمسية يمكن أن تحل محل الوقود الأحفوري لمجموعة من الوظائف الصناعية، وليس فقط توفير الكهرباء.

لدى العالم نافذة محدودة لتخفيض انبعاثات الغازات الدافئة بشكل كبير، والكهرباء يمثل أقل من ربع الطلب العالمي على الطاقة. إن هذه التقنية هي قفزة تكنولوجية للأمام في معالجة الـ 75 في المائة الأخرى من الطلب على الطاقة: باستخدام الوقود الأحفوري في العمليات الصناعية والنقل. مع التكلفة المنخفضة والحرارة العالية للغاية، لدينا فرصة لتقديم مساهمات ذات مغزى في حل أزمة المناخ.

من ناحية استخدام الذكاء الصناعي، نتحدث بشكل أساسي عن رؤية الكمبيوتر هنا: استخدام الكاميرات عالية الدقة لتحديد موضع كل مرآة، مدعومة بخوارزميات معقدة يمكنها تحسين الزاوية التي يتم ضبطها عليها.

علاوة على ذلك، فإن هذه التقنية يمكن استخدام أنظمتها لتوليد درجات حرارة تصل إلى 1500 درجة مئوية (2732 درجة فهرنهايت). هذا يكفي لإنشاء أنواع

خالية من الوقود الأحفوري بنسبة 100 ٪ مثل الهيدروجين أو تشكيل الغاز (sy-gas)، من خلال عمليات تقسيم ثاني أوكسيد الكربون وتقسيم المياه.

لطالما تم الحديث عن وقود الهيدروجين كطريقة نظيفة وصديقة للبيئة لتلبية احتياجات النقل لدينا، في حين يمكن استخدام تشكيل الغاز (توليف الغاز) للتدفئة أو تحويله إلى وقود حيوي. المشكلة مع كليهما هي القدرة على إنتاجها عمليا وبتكلفة معقولة.

مع عمليات توليد الحرارة عبر الوقود الأحفوري تشكل حوالي 10 في المائة من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون على مستوى العالم، تعد هذه التقنية بإحداث تأثير كبير في كمية ثاني أكسيد الكربون الذي يقذف الى الغلاف الجوي.

كل هذه الاحتياجات هي في زيادة مستمرة، ما يعني أن هناك حاجة إلى مزيد من الاستثمار - بالإضافة إلى حلول لتخزين الطاقة المولدة في الأيام التي لا تشرق فيها الشمس.

مع أخذ ذلك في نظر الاعتبار، لن نكون قادرين على التخلص من الوقود الأحفوري على المدى القصير، لكن تقنية الذكاء الاصطناعي، ربما قد تساعدنا بتحقيق خطوة كبيرة.

التخزين الحراري

على الرغم من أن الشمس هي مصدر الطاقة الذي لا ينضب تقريبا، فإنها تتوفر بحوالي نصف الوقت فقط الذي نحن بحاجة إليها، خلال النهار، تصبح الشمس مزود للطاقة الرئيسية لتلبية الاحتياجات البشرية، يجب أن تكون هناك طريقة فعالة لحفظها واستخدامها خلال الليل والأيام العاصفة. تركزت معظم هذه الجهود على تخزين واسترداد الطاقة الشمسية على شكل الكهرباء، ولكن الاكتشافات الجديدة يمكن أن توفر طريقة ذات كفاءة عالية لتخزين طاقة الشمس من خلال تفاعل كيميائي وإطلاقه في وقت لاحق كحرارة.

فبحسب مجلة Advanced Energy Materials فإن المفتاح الرئيس لتمكين تخزين طويل الأجل ومستقر للحرارة الشمسية، هو بتخزينها على شكل تغيير كيميائي بدلاً من تخزين الحرارة نفسها4. وبينما تبدد الحرارة لا محالة مع مرور الزمن بغض النظر عن كيفية العزل الجيد لها، لكن نظام التخزين الكيميائي يمكنه الاحتفاظ بالطاقة إلى أجل غير مسمى في تكوين جزيئي مستقر، حتى يتم إطلاقها عبر هزة حرارية صغيرة (أما بالضوء أو بالكهرباء).

إن المفتاح لهذا الاكتشاف هو جزيئات يمكن أن تبقى مستقرة في أي تركيبتين مختلفتين. فعند تعرضها لأشعة الشمس، تأجج طاقة الضوء الجزيئات وتجعلها في حالة "شحن". والجزيئات يمكن أن تستمر على هذا المنوال لفترات طويلة. ثم، عندما تأجج بدرجة حرارة محددة جداً أو محفزات أخرى، فإن الجزيئات ترجع مرة أخرى إلى وضعها الأصلي، طالقة دفعة من الحرارة أثناء هذه العملية.

وسبق ذلك في عام 2017، حيث أدت سلسلة من أوراق بحثية أربعة5 إلى الدخول في حل جديد مثير للاهتمام، وطرحت هذه البحوث سائلا متخصصا يسمى

الوقود الشمسي الحراري، يمكنه تخزين الطاقة من الشمس لمدة تزيد عن عقد من الزمان. إن الوقود الحراري الشمسي يشبه بطارية قابلة لإعادة الشحن، ولكن بدلا من الكهرباء، يمكنك توجيه ضوء الشمس عليها والحصول على الحرارة، عند الطلب.

السائل في الواقع هو جزيئات تتكون من الكربون والهيدروجين والنيتروجين، وعندما تتعرض الى أشعة الشمس، فإنها تفعل شيئا غير عادي: تتم إعادة ترتيب الروابط بين ذراتها وتتحول إلى نسخة جديدة نشطة من ذاتها، تسمى "أيزومر". مثل الفريسة التي تصطاد بفخ، يتم التقاط الطاقة من الشمس بالروابط الكيميائية القوية للايزومر، وتبقى هناك حتى عندما تبرد الجزيئات إلى درجة حرارة الغرفة.

عندما تكون الطاقة مطلوبة - مثلا في الليل أو خلال الشتاء - يتم ببساطة سحب السائل من خلال محفز يعيد الجزيء إلى شكله الأصلي، مما يطلق طاقة على شكل حرارة.

عمليات اللكونتوم

(Quantum Processes)

هناك تفاصيل لدراسة منشورة حديثا6 تشير الى كيفية زيادة عدد الإلكترونات نتيجة عملية اللكونتوم التي تنتج عند سقوط الضوء على واجهة معدنية - عازلة. يعتقد الباحثون بأن هذه النتيجة يمكن أن تؤدي إلى صناعة أفضل للخلايا الشمسية أو الكشف عن الضوء.

إن النهج الجديد يستند الى الاكتشاف بأن آثار اللكونتوم غير المتوقعة تزيد من عدد حاملات الشحنة، التي تعرف باسم الإلكترونات و"الثقوب"، التي تأثرت طليقة عندما تكون فوتونات الضوء بأطوال موجية مختلفة تضرب سطوح معدنية مغلفة بفئة خاصة من أوكسيد المواد المعروفة بالعوازل عالية - الفهرس. تولد الفوتونات ما يسمى بالبلازمونات السطحية – وهي سحابة من الإلكترونات المتأرجحة التي تحتوي على نفس التردد للفوتونات الممتصة.

تم الاعلان عن الاكتشاف المدهش في مجلة " Physical Review Letters". استخدم الباحثون ورقة فضية مغطاة بمؤكسد، يقوم بتحويل الطاقة الضوئية إلى استقطاب للذرات عند الواجهة.

إن الدراسة تكشف عن حقيقة مدهشة: وهي إن امتصاص الضوء المرئي يتم التحكم به مباشرة من مقدار مدى عمق تسرب الإلكترونات على الواجهة بين المعدن والعازل. إن قوة التأثير، تعتمد مباشرة على ثابت العازل للمواد – والذي هو مقياسا جيدا لكيفية منع مرور التيار الكهربائي، وتحويل تلك الطاقة إلى الاستقطاب. في دراسات سابقة هذا شيئا قد تم تجاهله.

حققت التجارب السابقة إنتاج مرتفع من الإلكترونات في هذه المواد ولكنها أحدثت عيوبا فيها. كما لم تكن كافية لشرح لماذا لوحظ هذا الامتصاص العريض عبر طبقة رقيقة لهذه المواد. لكن تجارب الفريق تدعم الآثار المكتشفة حديثا على أساس اللكونتوم كتفسير لتفاعل القوى.

كما وجدت الدراسة أنه باختلاف تكوين وسمك طبقة من المواد العازلة للكهرباء

(مثل أكسيد الألومنيوم وأكسيد هافنيوم وأكسيد التيتانيوم) بترسيبها على السطح المعدني، فبإمكانهم التحكم بكمية مقدار الطاقة التي تصدر من الفوتونات الواردة في توليد زوج من الإلكترونات والثقوب في المعدن – مقياسا لكفاءة النظام في التقاط طاقة الضوء. وبالإضافة إلى ذلك، يسمح النظام بمجموعة واسعة من الأطوال الموجية أو الألوان الخفيفة التي سيتم استيعابها.

ينبغي أن تكون هذه الظاهرة سهلة نسبيا لتسخيرها في الأجهزة المفيدة، نظراً لأن المواد التي ينطوي عليها تستخدم على نطاق واسع في المجال الصناعي. إن أكسدة المواد هي بالضبط النوع الذي يستخدمه الناس لصنع ترانزستورات أفضل؛ ويمكن تسخيرها الآن لإنتاج خلايا شمسية أفضل ومتحسسات للضوء فائقة السرعة.

إن إضافة طبقة عازلة، فعالة بشكل مستغرب في تحسين كفاءة استغلال الضوء، ونظرا لأن الخلايا الشمسية التي تستند إلى هذا المبدأ تكون رقيقة للغاية، فأنها سوف تستخدم مواد أقل من خلايا السليكون التقليدية.

وكذلك بسبب استجابتها للنطاق العريض، فإن هذه النظم أيضا تستجيب بشكل أسرع للضوء الوارد: حيث بالإمكان أن نتلقى أو نكشف عن إشارات بنبض أقصر من متحسسات الضوء الحالية، وهذا يمكن أن يؤدي إلى إنتاج نظم "ضوء - واي فاي" جديدة، ويقترح – استخدام الضوء لإرسال واستقبال البيانات بسرعة عالية.

إن مما لا شك فيه فإن هناك تسخير لخصائص اللكونتوم من المواد النانوية سيفضي إلى خلق طفرات تكنولوجية مستقبلية.

المفاعلات النووية

بحسب FUTURISM في الشهر الأول من عام 2019 يعتقد مجموعة من الخبراء بأن هناك نوعا واحدا فقط من الطاقة يمكن أن ينقذ كوكبنا، لأنه من وجهة نظرهم؛ حتى لو نفذت كل دولة من مصادر الطاقة المتجددة بنفس الوتيرة التي نفذت في ألمانيا، وهي دولة رائدة عالمياً في هذا المجال، فإننا لم نصل إلا إلى خمس الهدف العالمي للكهرباء النظيفة.

وبهذا المعدل، سيستغرق الأمر 150 عاما لإزالة الكربون بالكامل، وفقا لهؤلاء - لكن العديد من علماء المناخ يقدرون بأن لدينا فقط حوالي ثلاثة عقود قبل أن نصل إلى النقطة الحرجة للمناخ.

وحتى إذا استطعنا تنفيذ طاقة من الرياح والطاقة الشمسية بمعدل أسرع، فإنهما مصدران للطاقة غير متناسقين يتطلبان أجزاء كبيرة من الأرض. "ما يحتاجه العالم هو مصدر للكهرباء خالي من الكربون يمكن زيادته إلى نطاق واسع بسرعة كبيرة وتوفير الطاقة بشكل موثوق به على مدار الساعة، بغض النظر عن الظروف الجوية - وكل ذلك دون توسيع المساحة الكلية المخصصة للتوليد الكهربائي. وهذا يمكن تلبيته باستخدام الطاقة النووية".

إن المخاوف المضللة بشأن الطاقة النووية حالت دون نموها. عندما يفكر الناس في الطاقة النووية، فإنهم يفكرون في كارثة تشيرنوبيل والنفايات المشعة.

لكن عدد الأشخاص الذين لقوا حتفهم

نتيجة لكارثة تشيرنوبيل - التي يزعم الخبراء أنها كانت حادثة الطاقة النووية القاتلة الوحيدة في 60 سنة - يتضاءل مقارنة بعدد الذين لقوا حتفهم نتيجة لحوادث صناعية أخرى غير نووية.

كما أن كمية النفايات الناتجة عن الطاقة النووية أقل بكثير من كمية النفايات السامة التي ينتجها الفحم وغيره من أنواع الوقود.

يؤكد اثنان من الخبراء: "إن الاستخدام الكامل للكهرباء في الولايات المتحدة باستخدام الطاقة النووية من شأنه أن ينتج كمية من النفايات طويلة الأجل التي يمكن وضعها في علبة الصودا". فهم يقولون في نهاية المطاف، نحن بحاجة إلى إزالة وصمة العار عن الطاقة النووية ودمجها في الجهود المبذولة لتجنب كارثة المناخ بسرعة، وعلى نطاق واسع، كونها الاستراتيجية الوحيدة المتكاملة".

المصادر :

1- https://aip.scitation.org/doi/10.1063/1.5091759
2- https://pubs.acs.org/doi/abs/10.1021/acsphotonics.9b00452
3- https://www.nature.com/articles/s41467-019-10817-6
4- David Zhitomirsky, et al., "Solid-State Solar Thermal Fuels for Heat Release Applications," Advanced Energy Materials, 2016; DOI: 10.1002/aenm.201502006
5- The most recent study in the series has been published in Energy & Environmental Science.
6- David L. Chandler, MIT News

كورونا والتلوث البيئي

د. كاظم المقدادي
باحث في الصحة والبيئة، عراقي مقيم في السويد

لم يشهد العالم، طوال العقود الثمانية المنصرمة، انشغالا بمرض معد كانشغاله بكورونا، الذي رغم مرور أكثر من عام على انتشاره ما يزالُ يجتاح العالم. واقترانا بذلك، يتواصل البحث والدراسة بشأنه من قبل طيف واسع من المؤسسات العلمية والمئات من العلماء والباحثين في الصحة والبيئة والطب والتكنولوجيا والاقتصاد والاجتماع والنفس والتربية والتعليم، من المهتمين بتداعيات انتشاره الصحية والاقتصادية - الاجتماعية، والنفسية والتربوية، الخ..
متابعتنا هذه تسلط الضوء على نتائج البحوث والدراسات البيئية المنصبة على دور التلوث البيئي في انتشار كورونا.

البيئة والتلوث البيئي

منذ مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية في حزيران 1972 في ستوكهولم، ونشر مبادئ اعلانه، أخذ الوعي البيئي يتزايد ويتسع الإدراك بأهمية حماية البيئة بوصفها الوسط الذي يعيش فيه البشر، يتنفسون هواءه، ويأكلون طعامه، ويشربون ماءه، ويتمتعون بخيراته، ويمارسون حياتهم، ويقومون بأنشطتهم اليومية المختلفة، كالعمل، والدراسة، واكتساب المعرفة، والرياضة، والراحة، والترفيه، وفيه يتكاثرون، ويربون أجيالاً، ويستهلكون موارده الطبيعية، طعاماً وشراباً وطاقة ومواد، وغير ذلك..

ومن هذا المنظور فان البيئة ليست حكراً على الانسان ولا ملكاً له وحده. مثلما هي ليست حكراً ولا ملكاً لدولة أو مجتمع أو عرق ما، وإنما هي ملك لكل من يسكن على كوكب الأرض، بشراً وحيوانات ونباتات وكائنات أخرى حية وغير حية وجماد.

ومع أن الانسان هو أكثر الكائنات الحية احتياجاً لكوكب الأرض لوجوده، إلا أنه أكثر من لوثه وعمل على تدميره، شاء أم أبى..

مصطلح التلوث البيئي يدل على النشاط البشري الذي يتسبب في إلحاق الضرر بالبيئة الطبيعية، عن طريق إدخال مواد غير طبيعية في البيئة الطبيعية، وهذه المواد غير الطبيعية تسبب بدورها تغيرات سلبية ومؤذية فيها، فينجم عنها تغير للخصائص الطبيعية، الفيزيائية والكيميائية

والبيولوجية، مما يفضي الى تدهور ظروف الحياة الطبيعية لعناصر البيئة (الانسان، الهواء، الماء، التربة، الحيوان، النبات، الخ) التي تعرضت للتلوث.

واليوم، أصبحت الملوثات كثيرة جداً لدرجة لا تعد ولا تحصى، منها السامة والخطرة، ومنها الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية والإشعاعية. ومنها المنظورة، وغير المنظورة. ومنها الصلبة والسائلة والغازية، ومنها المركبة..

للتلوث البيئي مخاطر وأضرار كثيرة، وينجم عنه تلف وخراب جسيم يصيب الجسم قبل غيره. وقد شغل التلوث البيئي، خاصة النوع الخطر منه، ويشغل العالم، دولا وحكومات وشعوبا ومجتمعات وأفرادا، ولو بمستويات مختلفة من الانشغال والاهتمام. لكن الغالبية منتبهة الى ما سببه التلوث من اثار سلبية خطرة على البشرية، سابقاً وحاضراً، وما يهدد المستقبل والأجيال المقبلة.

ضمن الملوثات البيولوجية، تعرضت البشرية في العصر الحديث الى اوبئة خطرة عديدة، خاصة التي سببتها فايروسات. واخرها فيروس كورونا.. فما هو هذا الفيروس؟

فيروس كورونا وانتشاره

ينتسب فيروس كورونا Coronavirus لفصيلة واسعة الانتشار من الفيروسات، معروفة بأنها تسبب أمراضاً عديدة تتراوح بين نزلات البرد الشائعة واعتلالات أشد وطأة، مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS) ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم (SARS)، التي انتشرت كوباء..

الوباء Epidemic هو حدوث حالات إصابة بمرض معين، بعدد أكثر من المتوقع، في منطقة معينة، يصيب مجموعة من الناس خلال فترة زمنية محددة.. وتترافق الأوبئة مع نسبة وفيات عالية وشروط حياتية سيئة[1].

في عام 2019 تم اكتشاف نوع جديد من فيروسات كورونا، وشخيصَ كمسبب لانتشار المرض الذي انتشر في ذلك العام وسمي "فيروس كورونا المستجد" (Covid - 19)..

وفي آذار 2020 أعلنت WHO أنها صنفت "كوفيد- 19" كجائحة.

الجائحة Pandemic هي وباء ينتشر بين البشر على نطاق شديد الاتساع، يتجاوز الحدود الدُوليَّة، وحتى قارة مثلا، أو قد تتسع لتضم كافة أرجاء العالم، كما هو الحال مع كورونا.. الأنفلونزا.. الإيدز.

قد تحدث الجوائح (جمع جائحة) لتؤثر على البيئة والكائنات الزراعية من ماشية ومحاصيل زراعية وأسماك وأشجار، وغيرها[1]..

وقد بلغ عدد ضحايا الجائحة لحد الآن أكثر من 68 مليون مصاباً، وقتلت أكثر من مليون و600 ألف من البشر في أرجاء العالم حتى منتصف كانون الاول من العام الماضي. ولم تتم السيطرة عليه حتى الآن. ويتوقع ان يتجاوز عدد ضحاياها في نهاية 2020 قرابة 78 مليوناً.

طبيعة الفيروس: يُعتقَد أنَّ هذا الفيروس تحوَّرَ في عائِله المُعتاد وهو الخفاش أو الوطواط، ثم انتقل إلى الإنسان، إما عن طريق أكل الخفاش مباشرةً أو بعد أن انتقل

من الخفاش إلى حيوان يأكله بعض الناس في آسيا يسمى بالـ"بانقول" أو "أم قرفة"، وهو حيوان ثديي له رأس صغير وخرطوم ممدود ومغطّى بحراشف شبه مُسننة يأكل النمل[2].

ويتميّز هذا الفيروس بسرعة انتشاره مقارنة بفيروسات كثيرة أخرى[3]. وما ساعد على ذلك سهولة التنقُّل بين المُدُن والدُّوَل. ويمكن للمؤشرات العلمية الناتجة عن الخبرة البحثية المتراكمة وبالمقارنة أن تدلنا على حصول تطور جيني في الطبيعة الهيكلية للفايروس، جعله يمتلك قدرة عدوانية مَرَضيّة. ويعتقد طيف واسع من العلماء أن التخريب الذي حصل في الطبيعة على يد الانسان، مهما كانت دوافعه، وعبر عقود وعقود، أدى الى حصول تغيرات جغرافية ومناخية وبيئية كالاحتباس الحراري، التصحر، ذوبان القطب الشمالي، ثقب في طبقة الاوزون ...الخ، ساعدت على انتشاره(4).

مفاجئة صادمة وعجز تام

في غضون أشهر قليلة قلب (Covid 19-) العالم رأساً على عقب. ولعل أبرز المفارقات المخجلة للرأسمالية المتوحشة وللعولمة المستهترة هو التخبط الذي لا مثيل له للدول، خاصة زعيمة "العالم الحر" أمريكا، الذي اتسم باستهانة وقحة بالمخاطر، ورعونة في التصريحات، واتهامات كاذبة لا يسندها العلم، ومحاولة التنصل من المسؤولية، وتناقض في المواقف والإجراءات، وبرامج مكافحة مختلفة.. والحصيلة فشل ذريع، رغم فرض إجراءات الإغلاق والتباعد الاجتماعي وحظر التجوال، والعديد من وصفات الأدوية، والبروتوكولات، وغيرها.. والنتيجة، رغم كل الإجراءات المتخذة، لم يتوقف عدد ضحاياه عند حد، وتتواصل الأزمة العامة الخانقة، وتعطل الحياة والأنشطة اليومية في غالبية دول العالم. وخسائر بآلاف المليارات، وتداعيات صحية ونفسية واقتصادية - اجتماعية وتربوية وتعليمية وثقافية، ستبقى تأثيراتها لعقود من الزمن..

المفارقة المهينة، ان الدول العظمى، رغم ما تمتلكه من قوة، بما فيها الأسلحة، وخاصة أسلحة الدمار الشامل، وفي مقدمتها الأسلحة النووية، التي أنفقت عليها مئات المليارات، وتكنولوجيا راقية، ومصانع عملاقة، ومؤسسات وشركات عابرة للقارات.. لم تتمكن من ردع فيروس صغير لا يرى بالعين المجردة، ولا يتجاوز حجمه 100 نانومتر (النانومتر mn هو جزء من مليار جزء من المتر).. وذلك، لأن هذه الدول لم تكن مأخوذة بالحسبان، ولا مستعدة أبداً لمثل هذه الجائحة، ولذا وقفت أول الأمر موقف المستهتر، والمستهين بخطرها، ثم، تالياً، موقف العاجز تماماً عن التصدي للوباء القاتل..

وعملياً، وجهت الجائحة ضربة قاصمة للمؤسسات والكارتلات التي أعماها جشعها، وجنت المليارات على حساب إهمال البيئة، وتحدي الطبيعة، والإضرار بها، وعلى حساب حقوق الإنسان. فاستحقت لعنة التأريخ الى أبد الآبدين.

لقد هزّ الزلزال الذي احدثه كوفيد-19 أركان السياسة الصحية لكل بلدان العالم المبنية أساسا على طبيعة النظام

الاقتصادي السائد في كل بلد. وزعزع تعاظم أعداد الوفيات الثقة بأداء الجهات الصحية. وأحدث الوباء شرخا كبيرا في الحالة النفسية لعموم الناس، الذين تمثل أمامهم أمران:

الاول - إدانة الحكومات، حيث وجهت الشعوب إصبع الاتهام الى تقصير وفساد تلك الحكومات.

والثاني – القبول بقضاء الله وقدره..

لقد أطّر قادة الأنظمة الرأسمالية، منذ البدء، مجريات اخبار كورونا المتواترة المتصاعدة، وفي محاولة تغطية فشل اداراتهم بالمعرفة المسبّقة بمجريات الأحداث، حاولوا محاولات بائسة زهيدة في تغيير مسار تفكير ووجهة انظار الناس والمختصين عن الحقائق التي تكشف عورة انظمتهم الفاشلة الفاسدة/ فاتضح ذلك من خلال: الاستهزاء والاستخفاف بالأخبار الواردة عن ظهور مرض جديد ناتج عن فايروس مدمّر على اعتبار أن الفايروس ظهر في الصين وكأن الأمر لا يعني ادارات الأنظمة الرأسمالية. والتربص المتبادل بسياسة النظامين الاقتصاديين العالميين. وتباطؤ الاجراءات الوقائية التي اتبعها ادارات بعض الانظمة[4] .

تحذيرات علمية أُهمِلت

طوال عقود والعلماء يحذرون من سلوك البشر- خاصة ما يتعلق بالبيئة، من خلال استنزاف الموارد الطبيعية، والإستهلاك المفرط، وإزالة الغابات، والزحف على موائل الحياة البرية المتنوعة - الذي ساعد الأمراض على الانتشار من الحيوانات إلى البشر على نحو متكرر.

وتأكيداً للتحذيرات العلمية، أفادت مجموعة من الخبراء في تقرير نُشر مؤخراً بأن العالم يشهد تزايداً في الأمراض التي تسببها الفيروسات التي انتقلت من الحيوانات إلى البشر، وآخرها فيروس كورونا. وأكد برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) والمعهد الدولي لبحوث الثروة الحيوانية، إن حالات الإصابة بفيروس "إيبولا" و"متلازمة الشرق الأوسط التنفسية" و"حمى غرب النيل"، و"حمى الوادي المتصدع" (Rift Valley f-ver)، هي أمثلة أخرى على الأمراض حيوانية المنشأ، التي تظهر بسبب تدهور بيئتنا الطبيعية[5].

وأفاد البروفيسور ماثيو بايليس، من جامعة ليفربول: "في السنوات العشرين الماضية، كانت لدينا تهديدات كبيرة.. ولقد هربنا من 5 رصاصات، لكن السادسة أصابتنا". ونبه: "هذه ليست آخر جائحة نواجهها، لذا نحتاج إلى النظر عن كثب في الأمراض الموجودة في الحياة البرية"[6].

وأكدت تقديرات المركز الأمريكي للامراض والوقاية منها (CDC) ان اغلب الأوبئة التي انتشرت في العالم، سابقا وحاليا، نجمت عن انتقال مسببات الأمراض البيولوجية، مثل الفيروسات، من الحيوانات الى الإنسان، وحدوث طفرات جينية فيها، كانت تتطلب التعامل معها كقضية تتعلق بالأمن الوطني والصحي.

وبينت دراسة بريطانية, ان 60 % من الأوبئة للفترة بين 1960 و2004 كان مصدرها الحيوانات. وأكد UNEP في عام 2016, زيادة انتشار الأوبئة الحيوانية

على مستوى العالم، وان 60 % من جميع الأمراض المعدية هي امراض حيوانية مرتبطة بصحة النظم الإيكولوجية. وأن الأمراض حيوانية المنشأ لا تقفز للإنسان من تلقاء نفسها، وإنما تنتقل إلى البشر بسبب الإضرار بالبيئة الطبيعية الناجم عن الممارسات المسيئة للبيئة، مما يغير الطريقة التي تتفاعل بها الحيوانات مع البشر[7].

وقالت إنغر أندرسون، المديرة التنفيذية لـ UNEP: قبل ظهور كوفيد 19، تسببت الأمراض حيوانية المنشأ بخسائر اقتصادية تُقدر بحوالي 100 مليار دولار.. ويموت سنويا حوالي مليوني شخص من ذوي الدخل المنخفض والمتوسط بسبب الأمراض حيوانية المنشأ التي لا تلقي بالا لخطورتها.. وغالباً ما تكون الوفاة لهذه الأسباب في المجتمعات التي تعاني من مشكلات معقدة في التنمية، ومن الاعتماد المفرط على الثروة الحيوانية، والقرب من الحياة البرية..".

ونقلت وكالة الأنباء الألمانية عن ديليا راندولف، عالمة الأوبئة البيطرية في المعهد الدولي لبحوث الثروة الحيوانية: «بينما فوجئ كثيرون في العالم بفيروس كورونا المستجد، لم يكن الفيروس مفاجئاً لأولئك الذين يعملون في مجال أمراض الحيوان، مثلنا... لقد كان هذا وباء متوقعا جداً، لاسيما وثمة اتجاه واضح للغاية، منذ ثلاثينات القرن الماضي، أظهر أن 75 في المئة من الأمراض البشرية الناشئة مصدرها الحياة البرية". وأكدت البرفسورة كيت جونز، من جامعة كوليدج لندن: "تبين الأدلة بشكل عام أنّ الأنظمة البيئية التي غيّرها الإنسان.. ترتبط غالباً بزيادة خطر إصابة البشر بالعديد من العدوى"[8].

وباء كورونا يؤكد دور التلوث البيئي

تشير الدراسات إلى أن الارتفاع المستمر في مستويات تلوث الهواء أدى إلى حدوث زيادة كبيرة في عدد الوفيات الناجمة عن الإصابة بفيروس كورونا. فالتلوث يجعل من يعانون منه لعقود، أكثر عرضة للإصابة، فضلا عن أن جزيئات المواد المُلوثة للهواء قد تشكل وسائط ينتقل عبرها الفيروس [7].

وحذرت منظمة الصحة العالمية (WHO) من أن زيادة مستويات تلوث الهواء قد تمثل عامل خطورة بالنسبة لحالات الإصابة الحادة بفيروس كورونا. لاسيما وهو يؤدي إلى إضعاف جهاز المناعة لدى الإنسان.

وكانت دراسة أجرتها جامعة كاليفورنيا عام 2003 بينت أن الأشخاص الذين يعيشون في مناطق تعاني ارتفاع نسبة تلوث الهواء يزيد لديهم بأكثر من الضعف احتمال تعرضهم للوفاة بسبب الإصابة بالمرض.

وبينت دراسة أمريكية أخرى أن معدلات الوفاة الناجمة عن الإصابة بفيروس كورونا تزداد بنحو 15 في المئة في المناطق التي سجلت مجرد زيادة طفيفة في مستويات التلوث بالجسيمات الدقيقة في السنوات التي سبقت تفشي الوباء.

وأشارت دراسة أولية إلى أن الفيروس المُسبب للوباء الحالي، يمكن أن ينتقل في ثنايا الجسيمات (Particulates)الدقيقة العالقة في الجو. وأكدت دراسة حديثة

لجامعة هارفارد، بأن عدد حالات الوفاة الناجمة عن الإصابة بفيروس كورونا في الولايات المتحدة، تأثر بشكل كبير بارتفاع مستوى الجسيمات المذكورة، التي يصل نصف قطرها إلى 2.5 ميكرومتر. وكشفت الدراسة، التي شملت 3080 مقاطعة أمريكية، أن معدلات الوفاة ازدادت بشكل كبير بين المقيمين في مقاطعات تشهد تلوثا منذ أمد بعيد، يتراوح ما بين 15 و20 عاما. وأوضحت أن زيادة الجسيمات المذكورة عن المعدل الطبيعي بميكروغرام واحد لكل متر مكعب، أدت الى ارتفاع 15 في المئة في عدد الوفيات بفيروس كورونا المستجد[9].

وأفادت البيانات الأمريكية بأن المستوى السنوي لهذه الجسيمات ظل يفوق باستمرار الحد الآمن في هواء مناطق من ولاية نيويورك الأمريكية. ويعتقد الباحثون أن ذلك قد يكون أسهم جزئيا في اتساع نطاق تفشي الوباء في هذه الولاية، التي جاءت في المرتبة الأولى من حيث عدد الوفيات، مقارنة بالولايات الأخرى. وأن عدد الوفيات التي شهدها حي مانهاتن في نيويورك جراء فيروس كورونا كان سيقل على الأرجح لو جرى تقليص مستويات وجود تلك الجسيمات في أجواء الحي بواقع ميكروغرام واحد لكل متر مكعب على مدار العشرين عاما الماضية[7].

وفي إيطاليا، كشفت دراسة مماثلة لمستوى جودة الهواء في إقليميْ لومباردي وإميليا رومانيا الواقعيْن في شمالي البلد، عن وجود علاقة متبادلة، بين عدد حالات الوفاة المُسجلة بسبب الإصابة بوباء كورونا ومستويات التلوث المرتفعة في هاتين المنطقتين. ويذكر أن إقليم لومباردي، شهد غالبية هذه الحالات بفارق كبير عن باقي أقاليم البلاد، إذ سُجِلت فيه 13,325 حالة وفاة من أصل 26,644 حالة تم تسجيلها في إيطاليا بأسرها بحلول 26 نيسان 2020، أما إقليم إميليا رومانيا فاحتل المركز الثاني بعدد المتوفين، حيث وصل إلى 3,386 شخصاً في تلك الفترة[7].

وكشفت الدراسة التي أعدتها جامعتا سيينا في إيطاليا وأرهوس في الدنمارك، ان معدل الوفيات في المنطقتين المذكورتين قد بلغ نحو 12 في المئة، مقارنة بـ 4.5 في المئة في بقية إيطاليا. وتقول الدراسة التي نشرها " Science Direct" إنه "ينبغي اعتبار مستوى التلوث العالي في شمالي إيطاليا عاملا مساعدا إضافيا في زيادة معدلات الوفاة المسجلة في تلك المناطق"[9].

وفي الدول الأخرى، أشار تقرير للبنك الدولي لعام 2019، الى أن العديد من الدول المتضررة تقع في جنوبي آسيا، والشرق الأوسط، وجنوبي الصحراء الكبرى، وشمال إفريقيا. وتؤكد تقارير لـ WHO وللأمم المتحدة بأن مدنا في تشيلي والبرازيل والمكسيك وبيرو، تعاني من مستويات خطرة من تلوث الهواء. وأكد تقرير عن جودة الهواء في العالم، أن الهند تضم معظم المدن ذات المستويات العالية من تلوث الهواء، وأفاد سيزار بوغايسان، من "رابطة الأطباء الممارسين لرعاية الجهاز التنفسي"، إن جميع الأشخاص الذين توفوا في الفلبين من جراء الإصابة بفيروس كورونا كانوا يعانون حالات

مرضية سابقة، معظمها مرتبط بتلوث الهواء".

وأكدت WHO أن تلوث الهواء يتسبب بالفعل في وفاة نحو 7 ملايين شخص كل عام. ويعيش أكثر من 90 في المئة من سكان العالم في أماكن تتجاوز فيها نسبة تلوث الهواء، الحدود الاسترشادية، خاصة في الدول الفقيرة.

وكانت دراسة في عام 2003، كشفت عن أن احتمالات وفاة المصابين بـ"متلازمة الالتهاب التنفسي الحاد" (سارس)، التي يسببها فيروس وثيق الصلة بكوفيد- 19، زادت بنسبة 84 في المئة لدى من كانوا يعيشون في مناطق تسودها معدلات عالية من التلوث[9].

وأعلن آرون برنستين، مدير مركز المناخ والصحة والبيئة في العالم بجامعة هارفارد: "ما لدينا من أدلة في هذا الشأن واضح للغاية، إذ تفيد بأن احتمالات الوفاة بسبب الإصابة بفيروس كورونا تزيد بالنسبة لمن يعيشون في بقاع، تصبح أكثر تلوثا بمرور الوقت"(7).

وأكدت نتائج دراسة لجامعة هارفارد أن التجمعات التي تضم أبناء أقليات يعانون من الفقر يكونون أكثر عرضة لتلوث الهواء، ما يسهم في زيادة احتمالات إصابتهم بعدوى فيروس كوفيد – 19، وتدهور حالتهم حال الإصابة به. وأظهرت دراسة أُجريت عام 2018 في الولايات المتحدة أن بعض الأقليات العرقية تتعرض لتلوث الهواء، بنسبة تفوق نسبة ما موجود في المجتمع، حيث بينت أن الأمريكيين من أصحاب البشرة السمراء وذوي الأصول الإسبانية واللاتينية، يتعرضون لكمية من الجسيمات التي يصل قطرها إلى 2.5 ميكرومتر وذلك بنسبة تتراوح بين 56 و63 في المئة. وأكدت جينا مكارثي، وهي رئيسة مجموعة أمريكية تعنى بالبيئة، إن "الهواء الملوث يحول دون أن يحظى الملونون، ممن يعيشون في مجتمعات ذات دخل محدود، بفرصة لمواجهة الوباء الذي يجتاح العالم حاليا"(7).

من نتائج إجراءات الإغلاق

أدت إجراءات الإغلاق المُطبقة في دول مختلفة من العالم، بما فيها وقف عمل مصانع، وخلو الشوارع من ازدحام السيارات، إلى تراجع مستويات التلوث بشكل كبير على سطح كوكبنا. وتفيد بيانات مرتبطة بأحد المؤشرات المتعلقة بجودة الهواء في العالم، بأن المدن المعروفة بمعاناتها من وجود مستويات عالية من الجسيمات التي يصل قطرها إلى 2.5 ميكرومتر في أجوائها، شهدت تراجعا حادا في معدلات التلوث، منذ فرض إجراءات الإغلاق، إذ انخفضت بنسبة 44 في المئة في ووهان و54 في المئة في سيؤل و60 في المئة في نيودلهي (7).

وبينما كان ضباب التلوث يحاصر المدن بشكل كبير سابقاً، كشفت صحيفة " I-sider" صوراً فوتوغرافيّة تظهر الفرق الكبير في المشهد خلال فترة الإغلاق، بعدما أصبحت الرؤية جليّة وواضحة في بلدان عدّة حول العالم، مثل أندونيسيا، والهند، وإيطاليا، وباكستان وغيرها [10].

وأظهرت دراسات عديدة انخفاضاً مذهلاً في بعض الأحيان في تركيز بعض ملوثات الهواء في الولايات المتحدة

والصين وأوروبا، بفعل الأزمة الاقتصادية الناجمة عن إجراءات احتواء تفشي الجائحة، التي فرضت قيوداً على التنقلات والحركة المرورية. وكان التأثير واضحاً بشكل خاص في ما يتعلق بثاني أوكسيد النيتروجين والجسيمات.

فخلال تطبيق تدابير الإقفال في فصل الربيع، شهدت إسبانيا، مثلا، انخفاضاً بنسبة 61 في المئة في ثاني أوكسيد النيتروجين في الهواء، وبلغ هذا الانخفاض 52 في المئة في فرنسا و48 في المئة في إيطاليا، وفقاً لوكالة البيئة الأوروبية [11].

وفي مصر، أحس المواطنون من سكان مدينة القاهرة أن تغيرا ملحوظا قد حدث في نسب التلوث التي كانت تتعرض لها مدينته، والتي كانت تصنف ضمن أسوأ 10 مدن في العالم من حيث التلوث وجودة الهواء. وأكدت وزيرة البيئة ياسمين فؤاد أن الإجراءات الاحترازية التي طبقتها الحكومة المصرية كان لها دور في الحد من نسب التلوث العالية التي تعانيها القاهرة الكبرى وبعض مدن الجمهورية، إذ انخفضت معدلات حركة السيارات والنقل الجوي بالطائرات وتقيّد النشاط البشري خلال ساعات الحظر الليلي، فضلا عن تحول بعض القطاعات والوظائف إلى العمل من المنزل. وأوضح د. مصطفى مراد، مسؤول مراقبة جودة الهواء بوزارة البيئة المصرية، إن جودة الهواء تحسنت في القاهرة الكبرى بنسبة 36 في المئة، وفي المدن الساحلية والدلتا بنسبة تزيد على 40 في المئة. ونتج هذا التحسن الملموس عن انخفاض نسب الملوثات من غازات الكربون والكبريت وأبخرة عوادم السيارات والماكينات. وأكد د.حسن أبو بكر، أستاذ العلوم البيئية بجامعة القاهرة أن حافلة النقل العام مثلا تنفث في السماء نحو 10 أطنان من الانبعاثات الكربونية والعوادم سنويا، وان الطائرات تنفث كميات هائلة من عوادم الوقود خلال عمليات الإقلاع والهبوط داخل المطارات، وهو ما يتسبب في وقوع أضرار بيئية فادحة[12]

دروس من الإغلاق

إن تراجع الانبعاثات المُسببة لتلوث الهواء، لا يشكل برأي العلماء سوى نتيجة قصيرة المدى لإجراءات الإغلاق، وإنه من المرجّح أن تتدنى جودة الهواء من جديد إذا تقرر إنهاء تطبيق هذه التدابير، وعدنا إلى ممارسة أنشطتنا على الوتيرة ذاتها، التي كانت سائدة في الفترة السابقة للأزمة الراهنة.

وحذر العلماء من أنه يتعين علينا إبقاء مستويات التلوث عند أدنى حد ممكن، لتقليل آثار أي موجة إصابة ثانية بكوفيد-19. فقد أكدت دراسة لجامعة هرافارد سلطت الضوء على العلاقة الوثيقة بين انبعاثات الغازات المُسببة لتلوث الهواء والصحة العامة، وأبرزت الكيفية التي يمكن أن يؤدي كلا العاملين من خلالها إلى شل النمو الاقتصادي، أكدت على أهمية مواصلة فرض قواعد الحد من تلوث الهواء لحماية صحة البشر.

ولاحظ الخبراء أن التراجع الذي حصل في مناسيب التلوث، حتى لو كان ظرفياً وموقتاً، أسهم من دون شك في إنقاذ أعداد من الأرواح، إذ أن تلوث الهواء

مسؤول عن 7 ملايين حالة وفاة مبكرة سنوياً في كل أنحاء العالم. وقالت باولا كريبا، خبيرة جودة الهواء في جامعة نوتردام في إنديانا: «نعتقد أن 2190 وفاة مرتبطة بتلوث الهواء تم تجنبها في أوروبا خلال الحجر الذي طبق في الربيع، في مقابل تفادي 24200 وفاة في الصين، في ما يتعلق بالآثار على المدى القصير (خصوصاً تلك الحادة المرتبطة بالتلوث الشديد للغاية)». وأضافت «أما من حيث التأثير طويل المدى (مشاكل الجهاز التنفسي المزمنة، وأمراض القلب والأوعية الدموية، وسرطان الرئة...)، فإن عدد الوفيات التي تم تجنبها أعلى بكثير»، ويراوح بين 13600 و29500 في أوروبا، وبين 76400 و287000 بالنسبة إلى الصين، وفقاً لسيناريوهات متنوعة. وقدّر (مركز أبحاث الطاقة والهواء النظيف) عدد الوفيات التي تم تجنبها بفضل تدابير الحجر الربيعية بـ11 ألفاً في أوروبا. وقالت لوري ميليفيرتا من المركز: إذا كان إنقاذ هذه الأرواح يمثل جانباً إيجابياً للوباء الذي أودى بحياة 1.3 مليون شخص حتى الآن، فإن هذه التجربة هي قبل كل شيء، بالنسبة للمدافعين عن الهواء الصحي، دليل إضافي على الحاجة إلى محاربة هذا التلوث الضار. وتُعزز هذا الاقتناع مجموعة من الدراسات التي تُبرز احتمال وجود تأثير سلبي لتلوث الهواء لجهة زيادة حدة الإصابات بـ«كوفيد - 19» واحتمالات الوفاة الناجمة عنه.. والنتائج متشابهة في سياقات وبلدان مختلفة جداً، ما يُظهر أن الأدلة الموثقة بدأت تصبح قوية [11] .

أحدث التحذيرات العلمية

حذر فريق دولي مؤلف من 22 عالما في مجالات الأحياء والبيئة وخبراء الأمراض، تحت مظلة "المنبر الحكومي الدولي للعلوم والسياسات في مجال التنوع البيولوجي وخدمات النظام الإيكولوجي."، من احتمال وجود ما يصل إلى 850 ألف فيروس غير مكتشفة حتى الآن في الطيور والثدييات، مثل الخفافيش والقوارض، التي يمكن أن تصيب البشر في يوم من الأيام. وان مخاطر الانتشار تتزايد بسرعة، مع ظهور أكثر من 5 أمراض جديدة بين البشر كل عام، يمكن لأي منها أن تتحول إلى وباء.

واعتبر العلماء أنه بدون اتخاذ إجراءات لحماية الحياة البرية، فإن البشر "سيواجهون أوبئة أكثر تواترا وسوءا".، وشددوا على أن هناك حاجة إلى حدوث "تحول" لمنع ظهور الأمراض حيوانية المنشأ، بدلا من الاستجابة لها بتدابير الصحة العامة واللقاحات الجديدة. وهذا التحول يستدعي إنهاء "الاستغلال غير المستدام للبيئة"، بما في ذلك إزالة الغابات وتجارة واستهلاك الحيوانات البرية غير الآمن..

وقدّر الخبراء أن مثل هذه الخطوات ستكلف ما بين 40 إلى 58 مليار دولار سنويا، لافتين إلى أن هذا "جزء بسيط" من تكلفة مكافحة الأوبئة مثل كورونا. فبحلول شهر تموز 2020 وحده، كانت جهود مواجهة "كوفيد19-" قد كلفت حوالي 8 - 16 تريليون دولار[13].

وترى ماريا نيرا، مديرة الإدارة المعنية بالصحة العامة والمحددات البيئية

والاجتماعية للصحة في WHO أنه "ليس بوسعنا الخروج من هذه الأزمة، ونحن نُبقي على المستويات نفسها من التلوث. يجب أن نتعافى منها على نحو صديق للبيئة.. فلا يجب النظر إلى تقليص مستويات التلوث باعتباره أمرا مفيدا فقط للصحة العامة، وإنما كأحد المحفزات الاقتصادية الرئيسية كذلك". ودعت الحكومات الى وجوب أن تأخذ نتائج الدراسات العلمية في الحسبان، وتتخذ القرارات بشأن كيفية تخفيف إجراءات الإغلاق". واختتمت: "أننا بحاجة إلى تحاشي الوقوع في إغراء العودة لاستخدام الوقود الأحفوري بكثافة، أو الاستخدام الكثيف للسيارات، باسم تحقيق الانتعاش الاقتصادي". وأصافت: ينبغي أن تتم الاستفادة من رد الفعل العالمي، الذي نشهده الآن إزاء وباء كورونا، لخلق مجتمع أكثر صحة واستعدادا للتعامل مع مثل هذه المواقف الطارئة. واختتمت: "سيتسنى لنا أن نستنشق هواءً أكثر نقاء، بعدما تختفي الكمامات من على وجوهنا"(7) .

ونشر قادة عالميون في مجالات الطبيعة والتنوع البيولوجي والصحة، هم: ماركو لامبرتيني - المدير العام للصندوق العالمي للطبيعة، وإليزابيث ماروما مريما - الأمينة التنفيذية لاتفاقية الأمم المتحدة للتنوع البيولوجي، وماريا نيرا - مديرة قسم البيئة والتغيُّر المناخي والصحة في WHO. مقالا مشتركاً أوضحوا فيه لماذا على العالم أن يتبنى خطة للتعافي من جائحة كورونا، تشمل رعاية الطبيعة والزراعة المستدامة والطاقة النظيفة، وأي شيء آخر هو اقتصاد زائف. وجاء فيه: عام 1997، تم حرق مساحة كبيرة من الغابات المطيرة في جنوب شرق آسيا لإفساح المجال لإنتاج زيت النخيل. ويُعتقد أن مزيجاً من إزالة الغابات والحرائق والجفاف أجبر المئات من خفافيش الفاكهة على ترك موائلها الطبيعية والاتجاه نحو بساتين الفاكهة المزروعة على مقربة من مزارع الخنازير. هذه الظروف أدّت إلى ظهور فيروس "Nibah"، الذي انتقل من الخفافيش المصابة إلى الخنازير، ومنها إلى مربّي الخنازير، فأصاب 250 منهم. وقتل على مدى العامين التاليين أكثر من 100 شخص. وكان ينبغي أن يكون ذلك بمثابة تحذير.

اليوم، وبعد مرور 20 عاماً، نواجه أزمة صحية على نطاق مختلف تماماً، حيث يتسبب فيروس "كوفيد 19" بأكبر أزمة صحية واجتماعية واقتصادية مأساوية في الذاكرة الحية.

لقد رأينا العديد من الأمراض تظهر على مرّ السنين، مثل "زيكا" و"أيدز" و"سارس" و"إيبولا". وعلى الرغم من أنها تبدو مختلفة تماماً للوهلة الأولى، إلا أنها نشأت جميعها عن مجموعات من الحيوانات، في ظل ظروف بيئية ضاغطة جداً. كما أن جميعها تُظهر أن سلوكنا المدمّر تجاه الطبيعة يعرّض صحتنا للخطر، وهو واقع صارخ تجاهلناه بشكل جماعي لعقود طويلة. وتشير الأبحاث إلى أن معظم الأمراض المعدية الناشئة تأتي مدفوعة بالأنشطة البشرية(14).

وأصدر UNEP تقريرا عن كيفية كسر تفشي مثل هذه الأوبئة [15]. ووفر التقرير

استراتيجيات حكومية من شأنها الحيلولة دون انتشار الأمراض في المستقبل. وعلقت المديرة التنفيذية لـ UNEP: "رأي العلم واضح في هذا الأمر، فإذا استمر استغلال الحياة البرية وتدمير النظم البيئية، نتوقع أن نرى في السنوات المقبلة سيلا مستمرا من هذه الأمراض تنتقل من الحيوانات إلى البشر"[15]..

ووافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على الاحتفال بيوم 7 أيلول باعتباره اليوم الدولي الجديد لنقاوة الهواء من أجل سماء زرقاء، والذي يسلط الضوء على أن تلوث الهواء هو الآن أكبر تهديد بيئي للصحة، ولكن يمكن الوقاية منه. لدينا الحلول والتكنولوجيا لتغيير هذا الوضع. لتحسين نوعية الهواء، نحتاج إلى جهود كل فرد – بدءا من الأفراد والشركات الخاصة ووصولا إلى الحكومات. لا يجب أن يكون تلوث الهواء جزءا من مستقبلنا الجماعي. سيجعلنا الهواء النقي نتمتع بأكثر صحة ويحمي الطبيعة ويساعد في تحقيق أهداف تغير المناخ العالمي[16].

الهوامش :

1- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

2- حمد نورين بن أحمد الأهدل، تصنيف وتركيب فيروس كورونا المستجد المسبب لمرض(COVID-19)، منصة النقاش، علوم الصحة، منظمة المجتمع العلمي العربي، 29/ 10/ 2020

3- Lam,T.T; Shum, M.H; Zhu, H.C, et al; Identifying SARS-CoV-2 related coronaviruses in Malayan pangolins. Nature, 285-583. 2020.

4- د. مزاحم مبارك، عن الجائحة.. الواقع والتساؤلات والآمال، صحة: "طريق الشعب"، 26/11/2020 .

5- خبراء يحذرون من ازدياد الأمراض بسبب الفيروسات التي تنتقل من الحيوانات للبشر، "عربي "، BBC News 7/7/ 2020.

6- فيكتوريا جيل، فيروس كورونا "لن يكون الوباء الأخير"، علوم "عربي 7/6/ 2020"BBC News.

7- إيزابيل غاريتسين، فيروس كورونا: كيف يؤدي تلوث الهواء إلى زيادة مخاطر الوباء؟،BBC News arbic.com، 11/5/ 2020

8- الفيروسات التي تنتقل من الحيوان إلى الإنسان «في تزايد»، نايروبي - "الشرق الأوسط أونلاين"، 6/7 / 2020 .

9- نافين سينغ خادكا، فيروس كورونا: تلوث الهواء قد يؤدي إلى زيادة مخاطر الموت بسبب الإصابة بالفيروس، "عربي BBC News"، 20/4/ 2020.

10- صور "قبل" و"بعد" تكشف آثار فيروس كورونا على البيئة حول العالم، "إنسايدر"، 23/ 4/ 2020 .

11- تلوث الهواء يفاقم خطورة الإصابات بفيروس كورونا، باريس- Middle East Online، 21/ 11/ 2020.

12- عطية نبيل، فيروس كورونا: تراجع نسب تلوث الهواء في مصر بعد تطبيق إجراءات مكافحة الفيروس، القاهرة - BBC، 8/5/ 2020.

13- دراسة تحذر: 850 ألف فيروس قد تنتقل من الحيوانات للبشر، "عربية Sky News"، ترجمات، 31/10/ 2020.

14- تحذير لإصلاح علاقتنا بالطبيعة، منتدى البيئة: مجلة البيئة والتنمية"، 29/06/ 2020.

15- برنامج الأمم المتحدة للبيئة يطلق تقريرا عن كيفية كسر تفشي الأوبئة، "اليوم السابع"، 7/7/ 2020.

16- UNEP، رسالة السيدة إنغر أندرسن المديرة التنفيذية للبرنامج بمناسبة اليوم الدولي لنقاوة الهواء من أجل سماء زرقاء، سبتمبر 2020.

العنف الأمني المسيّس ضد المتظاهرين
الأسباب والنتائج

د. معتز محي عبد الحميد

تمهيد

ان مبدأ (عسكرة الشرطة) منذ بداية السبعينات من القرن الماضي وحتى الان، تركت آثارا تدميرية على مسلك الشرطة، وعلى أدائه المهني، وان التوسع المفرط في التوجه نحو العسكرة الواسعة لإدارات الشرطة، شكل تهديداً خطراً للأمن والسلم المدني في البلاد، حيث اثرت هذه الظاهرة على مدنية العمل الأمني، والعقيدة الامنية التي يتحلى بها منتسبيها من ناحية الانضباط وتنفيذ الاوامر والخضوع التام لسياسة الدولة المفرطة بالعنف والقمع والخطاب البوليسي المتشنج.

العقيدة الأمنية في اجهزه الشرطة المتوارثة بالعراق هي (عقيدة عسكرية غير مكتملة) (وليست أمنية) والتي اصبحت متنافرة مع العصر حيث ما زالت تنظر إلى القدرات العسكرية على أنها أهم مصادر القوة، فإنه رغم كون المؤسسة الشرطوية العراقية لا تزال تؤمن بالقوة ومشبعة بثقافة كراسات الحقبة السوفياتية التقليدية ومؤمنة بكراسات الستينات التي ركزت على شعار الشرطة المصرية، (الشرطة في خدمة الشعب) منهجا وسلوكا وثقافة قومية متطرفة متقاطعة مع حقوق الانسان، واحترامه وحقه في التظاهر والتعبير عن رؤيته السياسية. وثمة عوامل كثيرة ومتعددة ساهمت بصورة أو بأخرى في خلق المناخ الأمني المعقد والقائم على استراتيجيات الإكراه والقسر، ومن بينها التاريخ الطويل المشحون بالحروب وشيوع استعمال الاسلحة وتصفية الخصوم بالقتل، بالاضافة الى ظاهرة (تعدد الأجهزة) وعدم وضوح صلاحيات كلّ منها، وغياب قيادة مؤسساتية تشكل مرجعية لها بالترافق مع غياب قوانين ناظمة لأعماله واستمرار بقاء نفس الأشخاص الذين تم اختيارهم من السياسيين على قمة هرم السلطة في الداخلية. كل ذلك ساهم في تحويل هذه الأجهزة إلى إقطاعيات لمسؤوليها، ومركز نفوذ لقادتها، حيث لم يعد دورها واضحا ومبررا وجودها.

• وقائع واحداث

منذ حركة الاحتجاج التي انطلقت في شباط 2011 وحتى أحداث ساحة التحرير

الأخيرة التي وقعت ليلة 27 - 28 تموز الماضي، لم تحدث تظاهرة في العراق من دون ضحايا بين المدنيين، لا فرق إذا كانت التظاهرات ذات طبيعة سياسية أم مطلبية، ام كانت بسبب سوء الخدمات، باستثناء طبعا «المظاهرات» التي تديرها أحزاب أو القوى السياسية، فلا أحد يستطيع المساس بهذه «الاحتفاليات» بكل تأكيد.

ويبدو أن من بين المسؤولين المتنفذين والأجهزة الأمنية والأحزاب الحاكمة المسلحة، ثمة من يريد ويسعى جاهداً لجعل الممارسات القمعية الإجرامية جزءاً من المشهد السياسي والاجتماعي الراهن، حفاظاً على السلطة والثروة والنفوذ من أي تهديد.. ففي أعقاب انطلاق احتجاجات تشرين الأول 2019، ذكرنا أن استخدام العنف المفرط ضد المحتجين السلميين، بما في ذلك استخدام العتاد الحي بغرض القتل، ليس أمرا «عرضيا»، أو «فرديا»، بل هو يشكل ممارسة منهجية تعمد اليها القوات العسكرية والأمنية، بمعزل عن طبيعة الأوامر الصادرة حول عدم استخدام العتاد الحي، أو الرمي بشكل مستقيم بغرض القتل. هذا إذا افترضنا جدلا وجود أوامر صريحة وصارمة بذلك، وفي كل مرة يتهرب الجميع من المسؤولية تجاه هذا «القتل» المجاني. وبعد سقوط الضحايا تكون اللغة الإنشائية هي الرد الحكومي الوحيد، مع بعض «التلميح» بأن ثمة «آخرين» ربما يكونون وراء هذا القتل، سواء سموا «مندسين» أم «طرفا ثالثا»، أم ابتكرت لهم وصفا آخر مستقبلا.

• من هو الطرف الثالث؟

وفي أعقاب مقتل ثلاثة متظاهرين وجرح أكثر من 20 آخرين في شهر تموز الماضي، صدر بيان عن الناطق الرسمي باسم القائد العام للقوات المسلحة، تحدث عن القوات الأمنية، وقال إنها «تمتنع عن اللجوء للوسائل العنيفة الا في حال الضرورة القصوى وتعرض المنتسبين لخطر القتل»، وأنها تتعرض للاستفزاز «لغرض جرّها إلى مواجهة مدفوعة الثمن من جهات لا تريد للعراق أن يستقر»، ثم تأتي وزارة الداخلية وتخبرنا بكل «سلاسة» أنها رصدت «مجموعات إجرامية خطيرة في ساحة التحرير تسعى لصنع الفوضى عبر ضرب المتظاهرين من الداخل»، وإلى أن ثمة عناصر تحاول «تنفيذ أعمال اغتيال لنسبها إلى القوات الأمنية».

في حين بعد احداث تشرين الأول من العام الماضي، ظهر مصطلح «الطرف الثالث»، أو «الميليشيات»، تبعا لتموضع الواصف، ولم تتهم إحدى القوات العسكرية والأمنية، بمختلف صنوفها ومسمياتها، مع انها كانت متواجدة في مسرح الاحتجاجات، وشريكة أصيلة في عمليات القتل والعنف المفرط. وكانت في أحسن تقدير «تغطي» على عمليات القتل التي يمارسها الطرف الاول. لا أحد يريد أن يعترف بأن قواتنا الأمنية العسكرية، ليست مهنية، وأنها مسيّسة، وهي مستعدة لإطلاق النار بالطريقة نفسها التي كانت تطلق بها النار قبل نيسان 2003، دفاعا عن النظام السابق والطبقة السياسية القابضة على السلطة، من دون أن ترتجف يدها ولو للحظة.

• العنف الامني.. التدريب والممارسة

في 23 نيسان 2013 هاجمت قوات سوات التابعة لوزارة الداخلية، مخيما لمعتصمين مدنيين وسلميين في الحويجة في محافظة كركوك، وتم قتل ما يزيد على 50 شخصا بدم بارد. وتم التمثيل بجثثهم، كما رأى الجميع في فيديو يوثق ذلك! وجاء في بيان وزارة الدفاع بُعيد المجزرة أن «مندسين من تنظيم القاعدة والبعث المنحل أطلقوا نيران أسلحتهم على قوات الجيش العراقي المتمركزة في المنطقة، ما دفعت تلك القوات إلى الدفاع عن نفسها والرد بالمثل على النيران»، لكن اللجنة التحقيقية التي كلفت بالتحقيق في هذه الواقعة كذبت ضمنيا ما جاء في هذا البيان في اليوم التالي، عندما قررت «عد جميع الضحايا الذين سقطوا في ساحة الاعتصام شهداء... وتتكفل الحكومة العراقية بعلاج الجرحى... وإطلاق سراح كافة الموقوفين في هذه الأحداث». ومرة أخرى لم يعاقب أحد حتى اللحظة على تلك المجزرة.

• نهج دائم للحكومة

هذا النهج جسّده نوري المالكي خلال أعوام 2010 - 2014، معتبراً كل من يتظاهر ويحتج على سوء الخدمات والفساد الإداري والمالي هو عدو لسلطة حزبه (الدعوة)، وهو الذي أعلنها جهاراً نهاراً "أخذناها وبعد ما ننطيها".. ومن هذا المنطلق مارست حكومته ضد المتظاهرين السلميين المطالبين بتحسين الخدمات والظروف المعيشية، شتى أنواع العنف المفرط، واختطفت العديد منهم وأخفت مصيرهم حتى اليوم، واغتالت العديد من نشطاء المظاهرات، وعرضتهم الى تعذيب وحشي، وانتزعت التعهد بعدم التظاهر مرة أخرى من متظاهرين عديدين.

ذات النهج سار عليه حيدر العبادي وتطوّر في عهده، بإطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين السلميين من قبل الأجهزة الأمنية والمليشيات المسلحة، فسقط منذ تموز 2018 وحتى الآن المئات من الشهداء والألوف الذين اصيبوا بإصابات وجروح بليغة، وتم اعتقال المئات من المتظاهرين السلميين، عبر مداهمات ليلية، وإخفاء مصير العشرات منهم. وقد تم العثور على جثامين متظاهرين في مناطق بعيدة عن مدنهم عقب اختطافهم، مثل الشهيد أحمد الحلو الذي اختطف في النجف، وتم العثور على جثمانه بعد أسابيع في منطقة الزعفرانية جنوب شرقي بغداد. وبنفس الاتجاه سارت عليه حكومة عادل عبد المهدي.

• قوات حفظ القانون.. ام قوات للقتل؟

اتسعت دائرة السخط الشعبي ضد (قوات حفظ القانون) لانتهاكها الاخلاقيات الإنسانية والوظيفية والمهنية بالتعامل مع هذا الصبي محمد، وحوادث القتل للمتظاهرين؟ الإجابة كيف تشكلت هذه القوات، ومن أي فئات؟ ومن الجهات المشاركة بهذا التشكيل لكي نصل الى أسباب هذه الانتهاكات؟

كيف تشكلت القوات؟

بتاريخ 15/10/2019 بجلسة استثنائية لمجلس الأمن الوطني لمناقشة الورقة الخاصة بسياق عمل قوات حفظ القانون (المقر المسيطر/ الهيكل التنظيمي/ المهام والواجبات/ جهة الارتباط)، قرر مجلس الأمن الوطني تشكيل قيادة قوات حفظ القانون لتأدية مهام حماية الفعاليات الاجتماعية الكبرى والحفاظ على القانون، وتعزيز حرية التظاهر

السلمي، وبشكل منظم يكفله الدستور، وحماية المتظاهرين وحريتهم في التعبير عن الرأي بشكل سلمي، وفي جميع المحافظات، مع مراعاة حقوق الانسان وضمان سير المرافق العامة وانسيابية حركة المرور والطرق والحفاظ على الممتلكات العامة والخاصة وسلامة المجتمع.

عناصر وفئات التشكيل

بتاريخ 20 تشرين الاول 2019، صرح المتحدث باسم وزارة الداخلية اللواء سعد معن، ان عمل قوات حفظ القانون، سيكون حماية أرواح المواطنين والممتلكات العامة والخاصة، وان "حجم قوات حفظ القانون بحجم فرقة عسكرية، مكونة من منتسبي قوات الداخلية من مكافحة الشغب وشرطة الطوارئ والرد السريع"، لافتا الى ان "القوات لن تستقبل متطوعين جدد"، و"سيكون ارتباط هذا التشكيل بوزارة الداخلية حصرا".

ورشّحت إدارات مكافحة الشغب والرد السريع والاتحادية والطوارئ العناصر غير المنضبطة والسيئة لهذا التشكيل للتخلص منهم، فتشكل لواءان ينحصر عمل اللواء الأول بأفواجه من جسر السنك ومقترباته والشوارع الفرعية بالسنك.

التدريب والتأهيل

لم تقَم أي دورة تأهيلية لهم كالتذكير بأخلاقيات مهنة رجل الشرطة، والتذكير بحقوق الانسان، وآداب المهنة، محددات وحدود العمل الشرطي، واجبات رجل الشرطة، او كيفية تفتيش الأشخاص والسيارات، وأقيمت لهم دورة تدريب عسكرية شكلية لمدة تسعة أيام لأغراض تدريبية (اسقاط فرض).

عناصر القيادة

اغلب القيادات هم من ضباط الجيش وضباط الدمج. وأرفدوا أخيرا بضباط من خريجي دورة الضباط العالية 51 ضابطا حديثي التخرج، مضى على تخرجهم شهر واحد.

في أعقاب مقتل ثلاثة متظاهرين، وجرح أكثر من 20 آخرين في تموز الماضي، صدر بيان عن الناطق الرسمي باسم القائد العام للقوات المسلحة تحدث عن القوات الأمنية، وقال إنها «تمتنع عن اللجوء للوسائل العنيفة الا في حال الضرورة القصوى وتعرض المنتسبين لخطر القتل»، وأنها تتعرض للاستفزاز «لغرض جرها إلى مواجهة مدفوعة الثمن من جهات لا تريد للعراق أن يستقر»، ثم تأتي وزارة الداخلية وتخبرنا بكل «سلاسة» أنها رصدت «مجموعات إجرامية خطرة في ساحة التحرير تسعى لصنع الفوضى عبر ضرب المتظاهرين من الداخل» وإلى أن ثمة عناصر تحاول «تنفيذ أعمال اغتيال لنسبها إلى القوات الأمنية»!

• مفهوم التظاهر لدى الاجهزة الامنية

لا تنظر القوات العسكرية والأمنية العراقية إلى نفسها بوصفها «قوة مكلفة بإنفاذ القانون»، بل بوصفها تمثل القانون نفسه. وبالتالي فان من يخالف القانون، أو يتهم بذلك، أو يراد اتهامه بذلك اعتباطا، فهو «يتحدى» ممثلي القانون أنفسهم، فضلا عن أن فكرة «السلطة المطلقة» تتلبس الأفراد المنتمين لهذه القوات، بطريقة تبدو مرضية غالبا، بسبب نقص التدريب، وافتقاد المهنية، والبنية الذهنية، الثقافية، وبالتالي فإن من «يتظاهر إنما هو يتحداهم شخصيا، ويعترض على سلطتهم المطلقة،

بمعزل عن طبيعة هؤلاء المتظاهرين، أو سبب تظاهرهم، لهذا فان ردود أفعالهم تنطلق من هذين المعطيين بشكل أساسي».

وعلى سبيل المثال.. فإن جميع الجرائم التي ارتكبت بحق المثقفين وشخصيات معروفة في ساحة التظاهر من العراقيين، لم تكن بدافع السرقة أو التسليب أو العداوات والمشاكل العشائرية. ولم تكن أيضاً بسبب نزاع بين مثقفين لتصل الى مرحلة الإقدام بتهور على إنهاء حياة الآخر، بل إن جميعها يكاد يوحدها الهدف والغاية من ارتكابها، وهي إسكات صوت المثقف، او اعتبار موقفه أو كتاباته تمس بعض ما يعتقده القاتل أو من أصدر الأمر له بارتكاب الجريمة، مقدساته او معتقداته السياسية أو الدينية، ولهذا لم يجد القتلة حلاً وفقا لذهنياتهم الإجرامية والمحدودة سوى طريق الجريمة، ليكون قتل المجني عليه عبرة لغيره من المثقفين، ومن الأصوات التي تعمل في مجالات الدفاع عن الحقوق، ليخفت صوتها أو يسكت تماماً.

• تطور العنف الأمني واستخدام الاسلحة

إن طريقة استخدام قنابل الغاز المسيل للدموع، إضافة إلى أنواع الأسلحة التي استُهدف بها المتظاهرون في بغداد، تعد مؤشرا واضحا على هدف القتل العمد، نظرا لعدم تناسبها مع طرق فض الاحتجاجات، كما يوضح، وهو ما تؤكده شهادات العديد من المتظاهرين والمسعفين الموجودين في ساحة التحرير ببغداد.

وألقت قوات الأمن القنابل المسيلة للدموع في بداية الاحتجاجات السلمية لتفريق المتظاهرين، ولم يكن تأثيرها قاتلا، إذ كانت تتسبب باختناق المحتجين على أقصى تقدير، لكن الوضع تغير عقب أسبوعين من استمرار المظاهرات؛ إذ تغيرت طريقة إطلاق القنابل وصارت ترمى بشكل مباشر باتجاه المتظاهرين من أجل قتلهم، كما يروي المتظاهران عباس الكوخي، وعلاء علي لاحدى وكالات الانباء.

• إرهاب المتظاهرين

قُتل حيدر علاوي العامري (17 عاماً)، في الثامن والعشرين من تشرين الاول الماضي 2019، بسبب "مقذوف دخاني في الرأس" كما جاء في شهادة وفاته.

حيدر الذي يصنف طفلا بحسب اتفاقية حقوق الطفل الدولية الصادرة عام 1989، أصر على المشاركة في الاحتجاجات بالعاصمة، كما يقول والده علاوي، مضيفا: "قال لي عيب عليّ أن أبقى في المنزل والشباب يتظاهرون".

ويعد الطفل حيدر واحدا من بين 560 محتجا قُتلوا منذ بدء المظاهرات وحتى الان. فيما بلغ إجمالي عدد المصابين وفقاً لمفوضية حقوق الإنسان العراقية ثلاثة وعشرين ألف مصاب، من بينهم 16 ضحية، قتلوا بسبب تعرضهم لإصابات في الرأس والصدر بقنابل الغاز المسيل للدموع، وفق ما وثقه تقرير بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق (يونامي) عن التظاهرات.

• الهدف القتل

تعد المسافات التي أطلقت منها القنابل المسيلة للدموع دليلا على قصد الموت، فالأصل أن تطلق تلك النوعية من القنابل من على بُعد 250 متراً على الأقل، وكذلك إلى الأعلى (في الجو) حتى لا تصيب أحداً بشكل

مباشر، وتكون قد بردت عندما تسقط أرضاً.

ويعكس استمرار قوات الأمن العراقية في قتل المتظاهرين هدف تخويفهم وإرهابهم إلى أقصى درجة، كما يكشف عنصر في القوات الأمنية العراقية، مؤكداً أن أعداداً كبيرة من عناصر الأمن التي كانت تطلق القنابل لم تكن مدربة على استخدامها مسبقاً ولم يكن هناك أي تعليمات بشأن طريقة استخدامها، وتابع موضحا: "وقتها لم تكن القيادة أصدرت تعليمات بشأن إيقاف استهداف المتظاهرين بالقنابل".

• طرق متنوعة للقتل

وقعت أكثر عمليات قتل المتظاهرين في بغداد قرب جسري السنك والجمهورية وسط العاصمة، إذ كان المتظاهرون تحت الجسرين بينما تمركزت قوات مكافحة الشغب في الأعلى، كما يروي احد المصابين، مؤكداً أنه "بعد الخامس والعشرين من تشرين الاول بدأت القوات بإطلاق قنابل علينا، لم نتعامل معها سابقاً، كانت تشل الحركة، ونكاد نموت بمجرد استنشاق دخانها".

وتقول مسعفة في إحدى الفرق الطبية: إن "القوات الموجودة في أعلى الجسرين كانت تلقي القنابل صوب المحتجين والمسعفين، بينما يتهكمون عليهم ويسخرون منهم، كما كانت زوارق الشرطة النهرية تُساعدهم في الوصول إلى المتظاهرين عبر النهر، لإلقاء القنابل ثم يعودون".

إضافة إلى ذلك، يقول شهود عيان وثقت احدى المنظمات الانسانية إفاداتهم في ساحة التحرير، أن قوات مكافحة الشغب كانت تستخدم عدة أنواع من القنابل، وكلها كانت تطلق بشكل أفقي ومباشر باتجاه المتظاهرين.

وتؤكد المسعفة نورس الجابري استناداً إلى ما شاهدته أن القنابل المستخدمة ضد المحتجين ثلاثة أنواع: الأولى صوتية، وكانت شظاياها وقت الانفجار تصيب المتظاهرين القريبين منها، بالإضافة إلى القنابل المسيلة للدموع، أما النوع الثالث فيحتوي على غازات تؤدي إلى تشنج الجسد بالكامل.

• قنابل منتهية الصلاحية

وألقيت على المتظاهرين قنابل منتهية الصلاحية منذ أعوام 2013، 2014، 2015، كما اكدتها جهات محايدة، ما جعلها أكثر سُميّة وأكثر صعوبة في العلاج، كون المادة الفعالة سامة، وفقاً لطبيب وصف لنا الحوادث ... أن الإصابات التي رآها استهدفت الرأس والصدر والبطن والأقدام، وبعض القنابل تسببت بتهتّك أعضاء الجسد، قائلا: "أمسكت بمعدة متظاهر وطحال لآخر، ورأيت كلياتٍ عديدة متمزقة، وكان آخر ما رأيت مُخ صفاء السراي (ناشط عراقي ولد عام 1993 وقتل بقنبلة غاز) خارج جسده".

وتؤكد عضو مفوضية حقوق الإنسان العراقية الدكتورة أنس العزاوي، قائلة: "القنابل التي استخدمت ضد المحتجين تحتوي على غازات تشل الحركة، وليست من ضمن القنابل المصنفة لفض التظاهرات السلمية، كما أن بعضها يمكن اعتباره ضمن الأسلحة المحرم استخدامها ضد المدنيين دولياً بسبب تركيبها ووزن العبوة".

ولم يقتصر القتل على قنابل الغاز المسيل للدموع، إذ جرى استخدام الذخيرة الحية أيضا في العاصمة ومحافظات أخرى في الجنوب، وفق ما وثقته منظمة هيومان رايتس ووتش في تقريرها الصادر في 8

تشرين الثاني 2019 بعنوان "قنابل الغاز المسيل للدموع تقتل المتظاهرين"، وبالرغم من صدور أوامر بوقف استخدام الذخيرة الحية من رئيس الوزراء المستقيل عادل عبد المهدي، فإن قوات الأمن واصلت استخدام القوة المفرطة ضد المحتجين، وفق تقرير المنظمة الحقوقية الصادر في 4 كانون الاول بعنوان "مخاوف حول قُدرة القيادة على السيطرة".

• مصدر القنابل

لقد استخدمت ضد المتظاهرين العراقيين قنابل غاز مسيل للدموع من نوع M651، وقنابل دخان M713، حصل عليها العراق من منظمة الصناعات الدفاعية الإيرانية، إضافة إلى قنابل دخانية من شركة أرسنال البلغارية، وقنابل من عيار 40 مم، من نوع LV CS، التي من المحتمل أن تكون من تصنيع شركة Arsenal البلغارية، وكذلك قنابل M99s الصربية، التي صنعتها شركة Balkan Novotech، وفقا لما جاء في تقرير منظمة العفو الدولية الصادر في 31 تشرين الأول من عام 2019.

وتهاجم بعض تلك القنابل الجهاز العصبي وتسبب شللاً لمدة نصف ساعة أو أكثر، كما يوضح طبيب في وزارة الصحة العراقية قائلا: "تتكون الغازات المسيلة للدموع من جزيئات صلبة متناهية الصغر، تتحول عند إطلاقها في الجو إلى غازات، وتتسبب بإصابة مستنشقيها بأعراض مختلفة، تتراوح ما بين دموع العينين والسعال واحتراق الرئتين، وتؤدي أحيانا للإصابة بحروق أو بالعمى المؤقت، وتقود في حالات نادرة إلى تقيؤ متواصل يفضي إلى الموت".

• المحاكم والبحث عن الجناة

مسلسل اغتيال المتظاهرين والمثقفين والناشطين في مجالات المجتمع المدني وحقوق الإنسان يصاحبه استنكار وشجب عام. ويشمل الشجب والاستنكار حتى من الجهات المتهمة بالاغتيال وارتكاب الجرائم، كما أن السلطات المختصة بالتحقيق تشمّر عن سواعدها وتشرع بالبحث عن الجناة، وتتوعد القتلة بالقصاص العادل وتطبيق حكم القانون، وكشف الجهات وأسماء مرتكبي تلك الجرائم، غير أن تلك الوعود ما تلبث أن يطويها النسيان، فتتركها الجهات التحقيقية على رفوفها وتقدمها بعد حين الى قضاة التحقيق، حتى يتم تقييدها في سجلات السلطة ضد مجهول، حيث يقرر قاضي التحقيق وفقا لأحكام الفقرة (ج) من المادة (130) من قانون أصول المحاكمات الجزائية غلق الشكوى (مؤقتا) باعتبار أن الفاعل مجهول، وأن الجهات التحقيقية استنفذت جميع الطرق لمعرفة الجناة، ولم تتوصل الى نتيجة، ولم يكن أمامها دليل أو قرينة يمكن الاستفادة منها.

والغريب في الأمر أن بعضا من هذه الجرائم يتم ارتكابها في وضح النهار، ووسط شوارع آهلة بالناس، وأمام أنظار العديد من المواطنين والمفارز التي تملأ الشوارع، غير أن جميع تلك القضايا تفتقر الى الشهادات العيانية والمنتجة، كما تفتقر الى فراسة ومعرفة وتدقيق المحقق المختص بهذه القضايا، وهو ما تفتقر إليه اللجان التحقيقية المشكلة او في مراكزنا الأمنية.

وبالرغم من أن الغلق المؤقت للقضايا يجيز العودة الى اتخاذ الإجراءات القانونية خلال فترة سنتين من تأريخ صدور قرار الغلق

المؤقت، فإن اغلب إن لم يكن جميع الجرائم لم يتم الإعلان عن التوصل الى الجناة خلال تلك الفترة القانونية المحددة.

وبعد ارتكاب أي جريمة من هذه الجرائم تسري الشائعات والأقاويل بين الناس حول اتهام جهات أو أشخاص بشكل غير رسمي، غير أننا لا نجد أحداً تقدم بجرأة للإدلاء بشهادته، مما نتيقن معه أن الخشية من الشهادة والخوف من الجهات المتهمة بالفعل سبب وجيه ومقبول، مع أن السلطات التحقيقية والجهات القضائية يمكن ان تساهم في حماية الشهود لتسهيل مهمة الاستماع الى شهاداتهم.

العزوف عن الشهادة موقف يسهل عمل الجناة، ويعزز من الجرائم التي يمكن ارتكابها مستقبلا، وعدم الإخبار عن الجرائم يجعل القتلة وهم يرتكبون جرائمهم بحق بشر يستسهلون إقدامهم على ارتكاب الجريمة بدم بارد، والقانون العراقي يعاقب كل من قتل نفسا عمدا بعقوبة السجن المؤبد أو المؤقت حسب مقتضى الحال، وفي حال الترصد والإصرار واستعمال السم أو التفجيرات أو كان القتيل من أصول الجاني وغير تلك الأسباب التي أوردتها المادة (406) من قانون العقوبات لتصل العقوبة الى الإعدام.

وإذا كان التحقيق الجنائي علما يعتمد على التخصص والمهارة والذكاء للتوصل الى الجناة، فإن التعاون المشترك بين المواطنين والأجهزة الأمنية والقضائية يشكل سبباً هاماً في التصدي لمثل هذه الجرائم، والحد من تسجيلها ضد مجهول، وقد وصل التحقيق في بعض الدول المجاورة الى اعتماد التقنية والتكنلوجيا في عمليات كشف الجرائم، وهي لا غنى عن اعتمادها في العراق حتى يمكن التصدي لمثل هذه الجرائم التي تهز الأمن والطمأنينة بين العراقيين، وحتى لا يبقى القتلة يسرحون ويمرحون، وفي مأمن من القصاص والتطبيق القانوني السليم.

ان تكرار ارتكاب مثل تلك الجرائم في وضح النهار يهدد الوحدة الوطنية واستقرار الأمن وتطبيق حكم القانون، وإذا كان الجميع يريد تطبيق ما نص عليه الدستور من كفالة حرية التعبير، فان الدستور نفسه ضمن لكل إنسان الحق في الحياة والأمن والحرية، وتلك الأمور من مستلزمات الحياة المدنية التي تتباهى بها الشعوب، وتحرص على تدوينها في نصوص دساتيرها وقوانينها، وكلنا نعرف أن الدم المراق هو دم عراقي غال، لذا فإن عملية إرجاعنا الى الوراء أمر يحلم به القتلة لصغر عقلياتهم، وأن أي جريمة مهما كانت ظروفها تستطيع الأجهزة الأمنية (لو بذلت قليلا من الجهد الأمني والاستخباري) أن تتمكن من كشفها والتوصل الى المجرمين الذين قاموا بتنفيذها، وأن هذه الأجهزة لا تخشى من أحد ما دامت تقوم بتطبيق القانون دون أي اعتبار لمراكز القتلة ومواقعهم في المجتمع، وأن هذه الأجهزة غير عاجزة مطلقا أمام تحدي الجناة، وتتوصل الى كشف بعض الخيوط وتفضح الجناة ومن يقف خلفهم أو يحرضهم أو الجهات التي تأمرهم بارتكاب مثل تلك الجرائم، وأن هؤلاء القتلة يستخفون بقدرة الأجهزة الأمنية والاستخبارية، وعلينا أن نتذكر أيضاً بأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

ولم نزل نقول بأن انتشار السلاح بشكل غير قانوني بين الناس أمر لم يعد مقبولا، وعلى الحكومة أن تكون أكثر جدية في حصر السلاح بيد الأجهزة الأمنية والعسكرية، وتقييد

الجهات التي يتم منحها اجازات السلاح، إذ أن هذا يسهم بشكل فعال في الحد من تلك الجرائم، ويمكن أن يحفظ دماء الناس وأمنهم.

• شرطة مدنية بدون سلاح

لا شك أن زحف الجيش على مهام الشرطة والانابة عنها، خطورة لا يدركها السياسيون الحاليون بالوقت الحاضر، لانشغالهم بصراعات حزبية وشخصية. إن عسكرة الشرطة العراقية وتسلطها أدّيا إلى عسكرة المجتمع برمته، فجعل العنف مكونا أساسيا في الشخصية العراقية. هذا المرض العضال لن ينتفي إلا بقرار يمنع الشرطة من استخدام رتب الجيش، وتغيير المسميات إلى مسميات عالمية للشرطة. هنا تنتهي الهالة المحيطة بلواء الشرطة، وتنتهي الرغبة العارمة في المجتمع في التسلط. البداية تبدأ من تفكيك الجيش الموازي، وتحويل قطاع الشرطة الوطنية إلى قوة صغيرة ولكن مدربة بمهارات عالية تستخدم فقط وقت الضرورات الأمنية القصوى مثل الـ«إف بي آي» أو الـ«إم آي فايف». إن الامن والنظام والسلم الاجتماعي لا تفرضه مظاهر العسكرة واجواء الثكنات، وانما تفرضه وتضمنه الخطط والاجراءات المهنية والسليمة، مقترنا معها تسليح للدولة وفق مقتضيات ومتطلبات الامن الوطني للبلاد، دون ان يكون على حساب رفاهية وازدهار وتقدم وتنمية المجتمع علميا وثقافيا واقتصاديا، ما جعل استخدام السلاح الرسمي يدل على عدم التمييز بين النطاق الوظيفي وما هو خارجه.

وقوع درجات عنف عالية بسبب استفزازات اعتيادية، يدل على سهولة الاستثارة وضعف القدرة على ضبط النفس، ويلقى ظلالا حول كيفية التعامل مع المحتجزين.

ان رد الفعل المفاجئ باستخدام السلاح الرسمي يظهر ميلا كبيرا للسيطرة بالقوة، وقصورا بتقدير حجم المشكلة، فرد الفعل يفوق كثيرا نطاق الموقف. وصف سياق الحوادث يكشف شعورا بالتفوق، والتماهي مع السلطة والنظام، وانعدام الاعتدال والإدراك الموضوعي لصورة الذات.

• الشرطي قاهرا ومقهورا

الفقر والحرمان المتزايد، مع انتشار الأمية والبطالة، مقارنة بمظاهر الغنى الفادح لدى البعض زاد من تراكم عداء المواطن البسيط تجاه الطبقات العليا والقيادات السياسية الحاكمة. وأصبح استخدام المواطن للعنف إحدى وسائل الحصول على الحق، وليس وسيلة للاعتداء على الآخرين. رجال الشرطة يعانون أيضا شظف العيش كجموع المواطنين من الطبقات المتوسطة والدنيا، لكنهم أيضا يُستخدمون كأدوات لقهر المواطنين المحتجين على الأوضاع. في ظل احتقان الأوضاع، يصبح عنف الشرطة أداة وحيدة للسيطرة على الموقف، أي أصبح رجل الشرطة قاهرا ومقهورا معا.

• التدريب والممارسة في الشارع

يؤكد تماثل أشكال العنف وأدوات التعذيب على منهجيته ودور إعداد ضابط الشرطة لهذا الأداء. تبدأ الخطوة الأولى داخل كلية الشرطة. فقد أفاد ضباط كثيرون بأن القبول بالكلية يكون بالوساطة أو الرشوة، لكن ما يحدث بعد ذلك أسوأ بكثير. تسير الأمور داخل الكلية في خطين متوازيين: إقناع الطالب أنه فوق الجميع لأنه ينتمي للشرطة؛ وإهانة الطلبة وإذلالهم

من أعلى لأسفل. فيتحقق بذلك القهر الهرمي، ويكون الشخص مقهورا من أعلاه وقاهرا لمن دونه. ويتم حل خلافات الطلاب بالاقتتال، مما يرسي قاعدة استخدام العنف والانتصار الجسدي كوسيلة مباشرة لحل العقبات. يكتمل تلقين العنف (بعد التخرج) من الضباط الأقدم إلى الأحدث. فأول تدريب عند وصول ضابط حديث الى وحدات الشرطة، أن يأخذه الضابط الأقدم إلى الموقف ويبدأ بضرب المحتجزين، ويطلب منه المشاركة الفورية. ويكون أمام الضابط الصغير إما عدم المشاركة فيصبح سخرية ومتهما بالضعف والخوف، أو يشارك لينال احترام وقبول المحيطين. هناك مقرر دراسي هزيل عن حقوق الإنسان بمناهج كلية الشرطة. لكن هزاله وظروف تدريسه ومناهج التدريب الأخرى المحيطة به، تجعله عبثا بعد التخرج، امام مغريات السلطة والاحزاب وتسلطها على زمام ادارة الملف الامني.

ونتيجة لضعف البرامج الدراسية، وبدائية وسائل التدريب وافتقاد أدوات الاستدلال والبحث، مقابل عدم محاسبة رجال الشرطة على العنف، سيكون حل هذه الضغوط بتعذيب المشتبه بهم لتحصيل اعترافات بالقوة وتسليم القضايا المطلوبة والتخلص من الضغوط. لا يهم بعد ذلك حفظ لجان التحقيق للقضايا، ولا براءة المتهمين، ولا تضييع حقوق الضحايا. فلا يحاسب أحد على اعترافات الأبرياء. وتظل قرارات لجان التحقيق المشكلة (والسرية دائما) بحفظ التحقيق لعدم وجود فاعل حقيقي أهم الضمانات لحماية القتلة. ويشير هذا الى فشل الجهاز الأمني والقضائي في عمله. ما يخشى هو ازدياد قرارات حالات الحفظ، فذلك يعني انزلاق المحاكم لمنظومة القهر وتلفيق القضايا بدلا من تحسين الأداء الأمني، ما يتطلب إصلاح المنظومة الامنية والعدلية كلها وعدم الاكتفاء بمعيار واحد.

المصادر :

1- الفريق الركن رعد الحمداني – واقع المؤسسات الامنية والعسكرية العراقية الجديدة – مركز دراسات الاستقلال – تشرين الثاني – 2008.

2- علي عبد العزيز مرزه الياسري - استراتيجية الامن القومي العراقي - مقدمة اساسية في ثقافة بناء الدولة - اصدار المركز الوطني للتخطيط المشترك، بغداد، كانون الثاني، 2009.

3- باراك سالموني - قطاع الأمن القومي العراقي ما بعد 2011 - معهد واشنطن للدراسات الاستراتيجية والدولية - نشره المجهر السياسي.

4- د. معتز محي عبد الحميد - وسائل مواجهة الارهاب وتحديات الامن الوطني – بحث مقدم الى الندوة الدولية – السياسات الامنية والمخاطر الارهابية – مراكش – المغرب – 2017.

5- رياض هاني بهار – الشرطة العراقية مسيرة مهنية – موقع كتابات – kitabat. Com

6- د محمد قدري سعيد – الجيش والشرطة والشعب ومستقبل الوطن – السياسة الدولية – العدد – 205 – 2016.

7- د. معتز محي عبد الحميد – ادارة الملف الامني والصراع السياسي في العراق – بحث مقدم في ورشه الامن والمجتمع – بيت الحكمة – 2016.

8- د. عبد القادر محمود – المخبر السري بين الكشف عن الجريمة والاخبار الكاذب – مجلة الحقوقي – بغداد – 2014.

9- د. احمد ابراهيم خضر – ظاهره الفساد في جهاز الشرطة – مجلة المجتمع – الكويت – 2011.

10- جريدة العربي الجديد – لندن - العدد – 1887 – الاثنين 18 تشرين الثاني - 2018.

11- جريدة المدى – العدد – -3725 الخميس – 6 - 10 - 2019.

قراءة في كتاب
"الجهاد في الغرب: صعود السلفية المقاتلة"

د. هاشم نعمة

بات تكرر وقوع الأعمال الإرهابية في البلدان الغربية خصوصا في أوروبا من قبل الجماعات الإسلامية المتشددة، يستقطب الكثير من الاهتمام من قبل الكتاب والصحفيين والسياسيين والرأي العام، لكن ثمة القليل من الأبحاث الأكاديمية الرصينة التي تعمقت في تحليل الأسباب الجذرية لصعود الجماعات السلفية المقاتلة في الغرب. وإسهاما في هذا النقاش المهم اخترنا تقديم قراءة عن الكتاب المذكور لمؤلفه الباحث الدكتور فرايزر إيغرتون، ترجمه عن الإنكليزية فادي ملحم والصادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2017. اتبع المؤلف منهجا أكاديميا في التحليل والاستنتاج، واستند إلى الكثير من المصادر ذات الصلة، إذ غطت 60 صفحة من صفحات الكتاب البالغة 288.

يضم الكتاب مقدمة وستة فصول وخاتمة. وجاءت عناوين الفصول على النحو الآتي: مُلّا مجنون أم مقاتل من أجل الحرية؟ ما هي مشكلة هؤلاء الناس، يأخذنا إلى كل مكان: دور المخيال السياسي، وسائط المعلومات الشاملة وتكوين المجتمع المقاتل، حركة الانتقال من الفعلي إلى الأيديولوجي، لماذا أنا؟ دور السرديات الأوسع والوسطاء.

يذكر المؤلف في المقدمة أن هذا الكتاب يهتم أساسا بالسلفية المقاتلة في الغرب. ويلامس أيضا قضايا أخرى ذات علاقة بالإرهاب. فالإرهاب خصوصا نموذجه هذا، يشكل موضوع الساعة. وهو يدخل ضمن إطار منهجي محدد، تقوم فيه ظواهر قليلة بأسر الخيال الشعبي لمدة طويلة. فالسلفية المقاتلة أصبحت واحدة من أبرز الظواهر المثيرة للجدل في الحياة السياسية المعاصرة، بعدما حفّزتها بشكل خاص هجمات 2001 في الولايات المتحدة، وزادها قوة المزيد من القتل في مدريد ولندن وأمستردام وباريس. ودعمتها قصص عن كثير من التهديدات الأخرى التي يُنوى تنفيذها، أو التي حيل بينها وبين التنفيذ. لكن على الرغم من ذلك، وربما بسبب خطورة هذا الموضوع، لا تزال الخلافات حوله مستعرة في مسائل مختلفة مثل دور الدين، وتأثير المظالم السياسية، ومستوى الاندماج الاجتماعي،

وطبيعة تهديد هذا النوع من الإرهاب ومداه. هذا ما نلمسه في الواقع، حين نجد أن معظم المحللين في هذا المجال لا يتفق في شأن أبرز العناصر المكونة للسلفية المقاتلة، والتهديد الذي تشكله.

تفسير الدين

يدّعي السلفيون المقاتلون أن ما يحركهم أو يحفزهم هو تعاليم الإسلام، ويشددون على أنهم يعيشون ويموتون من أجل الواجب الديني. يبدو أن أفعالهم تعطي مصداقية أكبر لمزاعم كهذه، مع وجود كثير من الأمثلة عن نساء ورجال مصممين على الذهاب إلى الموت، بسبب اعتمادهم تفسيرا معيّنا للإسلام.

المشكلة هنا تكمن في أن الاقتباس من الإسلام أو من أي دين آخر، يعني أن هذا الدين هو كيان من السهل تحديده وفهمه، في حين توجد مجموعة من النصوص التي تشكل معا تعاليم العقيدة الإسلامية، من الضروري تفسيرها وتحليلها أيضا. إذ ان من الممكن تفسير الآيات العنيفة التي يدّعي السلفيون المقاتلون أنها غير قابلة لأي تفسير بديل، بشكل مختلف، كما هو الحال في كل المفاهيم الدينية التي تعتمد على النص والدروس التاريخية، وذلك أمر يمكن أن يتسبب في اختلافات كبيرة. فعلى سبيل المثال، يشدد الشيخ المصري محمد سيد طنطاوي على السياق الذي وردت فيه هذه الآيات؛ فبالنسبة إليه وإلى آخرين، لا يمكن حمل هذه الآيات على محمل مستقل، عمومي وشامل، بل يُنظر إليها في سياقها التاريخي. فهي لا تدعو إلى شن حرب متواصلة على غير المسلمين، لكنها تسمح للنبي محمد بالدفاع عن نفسه في المدينة.

منذ مئات السنين كان المسلمون يعيشون في وئام اجتماعي وسياسي واقتصادي مع جيرانهم اليهود والمسيحيين، حيث تُظهر معاملة المسلمين لليهود بأن التسامح الديني (1) كان هو القاعدة وليس الاستثناء. وتُعتبر الأندلس المثال الواضح على هذا الأمر، وهناك غيره من الأمثلة: العباسيون في بغداد، والفاطميون في القاهرة، والعثمانيون (الذين استقبلوا اليهود السفرديم المطرودين من إسبانيا عام 1492).

ويرى المؤلف أن البحث في النصوص والتعاليم الدينية، للحصول على تفسيرات مباشرة عن الإرهاب يُعد أسلوبا غير مفيد؛ فبالإمكان إيجاد كثير من الدعوات التي ترفض العنف، إلى جانب تلك التي تدعو إلى العكس. وتتوافر لكل منها حجج متباينة كليا. بالنسبة إلى السلفية المقاتلة، يقع دور الدين في السردية الخاصة التي يُبلّغ عنها الشرع، من دون أن يوجبها، لكنها تصاغ لديهم وفقا لأشكال الفهم السياسي الذي يريده المقاتلون. ويجب فهم الجوانب الدينية والسياسية للقتال على أنها موجودة في سردية خاصة جدا، ترى في الغرب عدوا للأمة التي يشكل المقاتلون جزءا منها، الأمر الذي يستدعي بحسب تأويلهم ردا عنيفا جدا.

الاغتراب البنيوي

منذ حوالي نصف قرن، أعطى روبرت نيسبت دورا مركزيا لنظرية الاغتراب في علم الاجتماع المعاصر، واعتبر أنها "وصلت إلى درجة كبيرة من الأهمية". ويُعتبر هذا الادعاء صحيحا في كثير من

الكتابات عن السلفية المقاتلة في الغرب اليوم. ويصف كثير من الكتّاب مبدأ الاغتراب بأنه حاسم وخطِر لفهم هذه الظاهرة. لكن لسوء الحظ لم يجر توضيح معنى الاغتراب دائما، ولا الأثر المحتمل الذي يسببه. وهناك في الحقيقة شقان رئيسان في عملية التنظير للاغتراب في السلفية المقاتلة، الفردي والبنيوي.

ويؤكد المؤلف أن الفكرة القائلة إن الاغتراب البنيوي يفسّر الانتقال إلى الراديكالية، ثم التشدد والقتال لاحقا، تحظى بدعم ملحوظ يتجاوز دعم الاغتراب الفردي. ويعتمد هذا التفسير عدد من المحللين الأكثر دراية في مجال السلفية المقاتلة. وهو تفسير يعتمد بقدر كبير على فكرة الاغتراب الجيلي التي تشدد على جذب السلفية المقاتلة فئة الذكور من الشباب على نطاق واسع. ويشير التحليل المستند على الجيل إلى أن جاذبية السلفية المقاتلة تكمن في الأوضاع غير المسبوقة التي يعيشها شباب هذه الفئة. وبحسب أوليفيه روا هناك ثلاث فئات: الجيل الثاني من الشبّان الذكور، والشبّان الذين جاءوا إلى الغرب من شمال إفريقيا أو منطقة الشرق الأوسط للعمل أو الدراسة، والمتحولون دينيا من (الأقليات العرقية غير المسلمة، مجرمون سابقون من ذوي البشرة السمراء أو من منطقة الكاريبي والذين أسلموا في السجن، مدمنون على المخدرات وجدوا في الإسلام خلاصا من الإدمان، أو أشخاص انضموا إلى رفاقهم المسلمين بعد تبنّيهم الكفاح والقتال). وهم عادة يعتنقون نمط الحياة الغربي، ويبتعدون عن التيار الرئيس للمسلمين.

يجد المقاتلون أنفسهم بعيدين في الوقت نفسه عن جيل أهلهم، وعن المجتمع الأوسع الذي يعيشون فيه. وفي هذا يقول روا: نحن لا نتعامل مع ردة فعل جماعة مسلمة تقليدية، بل مع إعادة صياغة دينية ملائمة لثورة عامة يقوم بها جيل هائم، يتأرجح بين جذوره الثقافية والحياة الغربية. ويصف معلق آخر "الراديكاليين اليوم بالسلالة الجديدة. وهم لا يثورون ضد مجتمعهم فحسب، بل ضد جماعتهم الخاصة نفسها، وزعمائها التقليديين"(ص57 - 58).

لا يتفق المحللون الذين يعتمدون نهج الاغتراب البنيوي بشأن السبب الذي يدفع هؤلاء الشبّان إلى الشعور بالاغتراب. فيرى معظمهم أن المسلمين الغربيين (2) يعانون الرفض العِرقي، وأن السلفية المقاتلة تقدم إليهم ملجأً من هذه المعاناة.

تشكل فكرة الإقصاء العرقي في المجتمعات التي يعيشون فيها، والتي شهدت ولادة كثيرين منهم، الجانب الأكثر شعبية في منهج "الاغتراب البنيوي". من المرجح أن يكون المهاجرون السابقون قد تعرضوا لمثل هذه المعاناة، لكن شعورهم بها لم يكن على قدر شعور أبنائهم الذين يمتلكون توقعات بمستقبل أفضل، تفوق كثيرا توقعات آبائهم. فالأبناء الذين ولدوا في المجتمع الغربي لم يتوقعوا أن يتعرضوا للإجحاف الذي تعرّض له آباؤهم، ولم يقبلوه. وقام بعض الكتّاب والمحللين بشرح تفصيلي لهذا الإقصاء، فقدم كيبيل مثالا جيدا عن هذه الفكرة بقوله "لا دماء مسلمي شمال إفريقيا التي سُفكت فيما هم يقاتلون مع الجيش الفرنسي في الحربين العالميتين الأولى والثانية، ولا العَرق الذي بذله العمال المهاجرون منهم، خلال عيشهم في أحوال

سيئة جدا لإعادة إعمار فرنسا (وأوروبا) في مقابل أجور زهيدة بعد عام 1945، لا تلك الدماء ولا هذا العَرق ساعدا أولادهم على الشعور بأنهم مواطنون في فرنسا أو في أوروبا"(ص 60).

وفقا لهذه المقاربة تُثبت السلفية المقاتلة فاعليتها؛ فهي تقدم هوية إلى أشخاص يتساءلون عن الهوية الخاصة بهم، بعدما شك فيها الآخرون وازدروها. أما في الحلقات السلفية، فيتم تذكيرهم دائما بأن عرقهم يتفوق على جنسيتهم، وبأن مسقط رأسهم أو عرقهم أو دينهم، أهم من البلد الذي يعيشون فيه. ويردّ هؤلاء الشبان على لغز اللاأدري، فيكتشفون لأنفسهم هوية جديدة، مؤكدة للذات وعابرة الأوطان، وهي أنهم مسلمون.

بحسب هذه المقاربة المهمة، يعتمد الكثير من الكتّاب المعروفين في هذا المجال الفكرة القائلة إن النقص في الهوية يدفع نسبة من الشبان المسلمين إلى البحث عن هوية بديلة، أو يحملها على تقبل بديل يُقدَم إليهم. ويرى خوسروخافار أن الاغتراب يقود إلى التطابق مع أقلية مسلمة راديكالية، ومن ثمة إلى شعور بالصداقة والتعاطف القويين مع مسلمين آخرين يعانون الظلم والاستبداد في مكان آخر من العالم. ومعاناة المسلم وتهميشه في المجتمع، يتراءيان له كانعكاس لمعاناة المسلمين في العالم كله. وتقوم أسباب المعاناة هذه، وهي الالتزام بالإسلام الحق، وعدوانية الغرب تجاه الإسلام والمسلمين، بترسيخ تصور ما عن علاقة نقية بين أبناء الدين الواحد. ويرى المؤلف أن شعبية هذه المقاربة الرائجة، والمعرفة الكبيرة التي يتمتع بها دعاتها، يجب ألا تحجبا المشكلات الكبيرة التي تلتبس بها. وهي مشكلات، في حال اجتماعها، تقوّض جديا مفهوم الاغتراب كتفسير وحيد لنهج الكفاح المتسم بالقتال.

عالج ماركس ودوركهايم (الذي يستخدم مصطلح التفكك الاجتماعي)، وسارتر وغيرهم مسألة الاغتراب وقاموا بدراسات تطبيقية على نحو مفيد حول مفهومه. لكن ما قام به أولئك الكتاب اللامعون، يختلف اختلافا كبيرا عن استعمال كثيرين اليوم لمفهوم الاغتراب في سياق الحديث عن السلفية المقاتلة. فنادرا ما يوضح مستعملو هذا المفهوم اليوم ما الذي يريدون قوله حين يطبقونه على هذه الظاهرة. وليس المقصود هنا أن الاغتراب لا يشكل أحد العوامل التي يمكن أن تساهم في التشدد، بل الإشارة إلى أن استعمالاته السابقة، لا تُظهر ماهيته بوضوح، أو كيف يعمل ويؤثر.

يشدد المؤلف على أنه قُدم القليل من الأدلة التجريبية لدعم الادعاءات التي تقول إن الشعور بالاغتراب يؤدي دورا أساسيا في السلفية المقاتلة. ولم يُنجز أي تحقيق منهجي حول طريقة وأشكال اغتراب السلفيين، وكيف أصبحوا كذلك، أي حول الادعاء التفسيري الرئيس الذي يقدمه كثير من المحللين.

يوضح بيب في تقرير منهجي عن الانتحاريين، إن قليل من هؤلاء كانوا "مهمشين اجتماعيا، ومجرمين مجانين، أو حتى فاشلين... ذلك أن معظمهم يمتلك شخصية تتناسب مع شخصية معاكسة تماما: فهم طبيعيون من الناحية النفسية، ويتمتعون بأوضاع اقتصادية تفوق المتوسط في مجتمعاتهم، ويندرجون جيدا في الشبكات الاجتماعية"(ص 67).

يقود هذا الأمر إلى نقطة فلسفية أوسع. فالاغتراب هو حالة معقدة ومتباينة ومتغيرة إلى حد كبير. وهو موجود بدرجات؛ إذ يختلف في البنية والعمق لدى الأفراد المختلفين، ولدى الفرد الواحد أيضا، في الوقت نفسه. فالقول إن أحدهم يشعر بالاغتراب هو اختصار لشيء أكثر تعقيدا. وإذا كان من الضروري التعاطي مع هذا التعقيد في التحليل أو غيره، فيجب إدراكه إدراكا كاملا والتبصر فيه. وهذه مهمة صعبة جدا، في نظر المؤلف، ولم تحصل في الكتابات الخاصة بالسلفية المقاتلة.

دور المخيال السياسي

لم يكن أبادوراي أول من أشار إلى دور المخيال وأهميته السياسية؛ ففي كتابه (الجماعات المتخيلة)، يصف بندكت أندرسون كيف سهّل التقارب بين الرأسمالية وتكنولوجيا الطباعة على الناس - أولئك الذين لم يلتقوا من قبل، ومن غير المرجح أن يلتقوا في المستقبل - عملية تخيّل أنفسهم جزءا من الجماعة نفسها، على الرغم من إقامتهم في أماكن متباعدة، ومن اعتمادهم أساليب حياة مختلفة. ووفقا للمنطق الذي يعتمده أندرسون، يمكن أن تقود هذه التغيرات في الأوضاع الكامنة إلى صعود أوهام سياسية بديلة، وهذا مهم جدا لفهم السلفية المقاتلة اليوم.

يذكر المؤلف أنه يجدر التشديد هنا أن المخيال السياسي ليس رحلة في الخيال، لكنه غير محدد ماديا. هناك أوضاع مختلفة تحدد كيف ينظر الأفراد إلى العالم، وكيف يعتبرون أنفسهم جزءا من هذا العالم. فمن خلال النقل الشامل للأخبار والحوادث بـ "اللغة المحلية أو القومية"، أصبح بإمكان الناس اعتبار أنفسهم فرنسيين أو ألمانا مثلا، وإضفاء هوية مشتركة على الآخرين في أماكن بعيدة، وفيما يتعلق بالأمة المقاتلة وليس بالدولة - الأمة، أصبح السؤال: ما هي العوامل التي تُسهل على الأفراد بناء المخيال السلفي المقاتل؟ إن المخيال السياسي السلفي يشتد حين يتخيل المجاهد نفسه مدافعا عن المسلمين في العالم. ويتكون هذا المخيال ويصير فاعلا عندما تجتمع حوادث عالمية منوعة، وتتداخل مع حوادث محلية. وأصبح هذا ممكنا في المرحلة الراهنة من الحداثة المعولمة.

كتب الكثير من الكتّاب عن التحول الدراماتيكي بين الزمان والحيّز (الفضاء المكاني)، وتأثير هذا التحول ما بين الحيّز والمكان. واعتمد هؤلاء الكتّاب على ما سبق من الكتابات. وكان كارل ماركس قد توقع منذ خمسينيات القرن التاسع عشر، "قضاء الزمان على الحيّز" لأن "رأس المال يخترق بحكم طبيعته أي حاجز في الحيّز المكاني ... للسيطرة على الكرة الأرضية وأسواقها". وفي منتصف القرن الماضي وصف مارتن هايدغر مرحلة بروز "اللامسافة" و"إلغاء كل إمكان لبعد المسافة"(ص 84). وقبل نصف قرن، كان من الممكن اعتبار هذه التأكيدات سابقة لأوانها. لكن الكثير منها تحقق، نتيجة لتغير العلاقة بين الفضاء والمكان.

يُعتبر الحنين إلى الماضي، أمرا شائعا في جميع المجتمعات. ومن الممكن ألا ينجم هذا الحنين مباشرة عن ذكريات موضوعية بالكامل، لكنه يتشكل من ذاكرة حوادث معيشة ومختارة، وينمو بتأثيرها. يرتبط الأمر كثيرا بالإعلام وحركة الانتقال اللذين

ينشآن سياسة حنين تعتمد على شيء آخر غير التجربة. في الواقع ينطبق هذا الوضع على السلفية المقاتلة، إذ تقود ظاهرة اضمحلال الحدود الجغرافية (نزع الصفة الإقليمية) إلى تصور مجتمع سياسي بلا حدود إقليمية. ومع تراجع أهمية الموقع الجغرافي، أصبح بالإمكان خلق موقع جغرافي خيالي، حيث لا تعود هوية المرء مرتبطة بالمكان الذي، ما عاد بدوره، مرتبطا بمعرفة المرء وخبراته. لا يعتبر السلفي المقاتل - وهو نتاج المخيال السياسي - أن الأمة من وحي الخيال. علما تأتي فكرة الأمة، وهي مركزية في مشروع السلفية المقاتلة، من وهم يقود إلى الحنين، لكنه حنين بلا ذاكرة. وتسمح حركات الانتقال الكبرى للناس بتغيير مستمر في هوياتهم، وتعرضهم لمجموعة أكبر من الاحتمالات التي يمكن أن تؤثر في مخيالهم السياسي. وليس هناك أفضل من السلفية المقاتلة لإظهار هذه الصورة.

إن التصورات السياسية للسلفيين المقاتلين في الغرب اليوم ليست حنينا إلى عالم تركوه وراءهم، بل هي إعادة تخييل لعالم لم يشاهدوه من قبل، وليس موجودا إلا في مخيلتهم الجمعية. وتُعتبر وسائل المعلومات الشاملة العامل الأساس في هذه العملية، وهي التي تسهل إنشاء مشروع سياسي منفصل عن تجربة حية أو معيشة. فلم يكن أعضاء مجموعة هوفستاد (نسبة إلى مدينة لاهاي) يهتمون كثيرا بالحوادث الجارية في المغرب، مسقط رأس معظم آبائهم، إلا إذا تلاءمت مع نظرة السلفية المقاتلة، وشكلت جزءا من معركة وجودية بين الإسلام والغرب، إذ كانت اهتماماتهم عالمية أكثر منها محلية.

تكوين المجتمع المقاتل

يقول أحد المحللين، الذي أنجز بحوثا كثيرة عن المواقع السلفية على الإنترنت: إن "التواصل مع متعاطفين آخرين ينشئ نوعا من المجتمع الافتراضي، وشعورا بالوحدة والانتماء إلى جماعة وقضية. ويعكس ظهور المواقع المقاتلة على الإنترنت، خصوصا غرف التواصل بلغات أخرى غير العربية، كالإنكليزية والفرنسية والهولندية والسويدية: أولا، حاجة (المجاهدين في الشتات) إلى أن يكونوا جزءا من المجتمع الجهادي. ثانيا، أهمية الإنترنت في إنشاء مثل هذه المجتمعات" (ص 128). ويؤدي الدخول إلى المنتديات المقاتلة ومجموعات التواصل، إلى المشاركة في مجتمع محدد، وتأكيد هوية هذا المجتمع، وهوية الفرد كونها جزءا منه. هذه ظاهرة وصفها القليل من المحللين، ومنهم سيجمان الذي قال: "ما عاد المجتمع الافتراضي مرتبطا بأي دولة أو شعب، ويتوافق هذا الوضع مع الأمة السلفية الأسطورية"(ص 129).

لا تعود سطحية المعرفية الدينية إلى فقر فكري لدى السلفيين المقاتلين، ولا إلى العقيدة التي يعتمدونها، لكنها تُظهر أن ارتباط أكثر الغربيين الذين ينضمون إلى هذه العقيدة، إنما هو ارتباط عاطفي وليس فكريا. والصور هي التي تشجع عملية الارتباط وتمكّن لها.

تعتبر حالات الانتقال الكثيرة في حياة السلفيين المقاتلين جزءا مهما من الإجابة على لغز انتمائهم. فانخلاعهم المكاني يعزز من إمكان اعتمادهم رؤية للعالم غير منتمية إلى مكان أو إقليم. وساهم ذلك في تمكينهم من تخيّل أنفسهم جزءا من جماعة عالمية

تتجاوز سواها من الجماعات وتتخطاها. الرؤية غير المنتمية إلى أي أرض أو إقليم، التي يعتمدها السلفيون المقاتلون، هي رؤية في شأن مجتمع افتراضي منفصل بشدة عن تصورات الأرض| الإقليم، ومثل هذا المجتمع هو أمة متخيَّلة. ولا يهتم السلفيون المقاتلون الغربيون بتقسيم العالم بلدانا أو انتماءات إقليمية؛ فعالمهم ينقسم إلى "مسلمين وكفار".

لا يبدو غريبا القول إن اهتماماتهم ليست إقليمية؛ إذ لا تنحصر أهمية هذه البلدان في أراضيها الإقليمية. فالدفاع عن أفغانستان والعراق والبوسنة، في نظرهم ليس دفاعا عنها كبلدان في ذاتها، بل هو دفاع عن الكيان الذي تشكل جزءا منه. وما يهم هنا هو الأمة وضرورة الدفاع عنها.

لم تظهر السلفية المقاتلة من العدم؛ فهي فرع أيديولوجي منبثق من ثقافات مسلمة أوسع، ولا يُمكن فهمها دون فهم تلك الثقافات، أو من دون فهم السياق الذي يضع المقاتلون أنفسهم فيه. ينطبق هذا مثلا على المتمردين في العراق كما يسميهم المؤلف، أولئك الذين يبنون على السرديات الثقافية الشائعة بين سكان المناطق التي يسعون إلى الحصول على الدعم منها. ويستعينون بموضوعات سياسية وعاطفية لها حضورها في ثقافات العرب والمسلمين وتقاليدهم في العراق (3) والعالم. وتعتمد روايات المتمردين على ثلاث مسائل: الإذلال والعجز بسبب التواطؤ والخلاص بالإيمان والتضحية.

الهوامش :

1- للمزيد حول التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي، راجع: محمد أركُون، قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم؟ ترجمة هاشم صالح، بيروت، 2009، ص 229 - 271.

2- حول وضع المسلم الغربي، وضع المسلم العربي راجع: تهامي العبدولي، أزمة المعرفة الدينية، دمشق، 2005، ص 60 - 64.

3- للمزيد راجع العمل الهام: فالح عبد الجبار، دولة الخلافة التقدم إلى الماضي ("داعش" والمجتمع المحلي في العراق)، بيروت، 2017، خصوصا الفصل التاسع: شيوخ وعشائر، دولة الخلافة والمجتمع التقليدي، ص 259 - 325.

نصوص قديمة

شباب (فهد) وصبا الحركة الشيوعية في العراق*

زهير الجزائري **

في عام 1901 ولد يوسف سلمان يوسف في بغداد (وقيل أيضا أنه ولد في قرية "برطله") وعرف منذ أواخر الثلاثينات من القرن العشرين باسم (فهد)، وهو الاسم الحركي الذي ظل يلازمه حتى لحظة استشهاده البطولي، وهو يعتلي انشوطة المجد يوم 14 شباط 1949 هو ورفيقاه حازم وصارم. وبين لحظة الولادة ولحظة الاستشهاد فسحة قصيرة بلغة الزمن، لكنها برغم ذلك كانت فاصلا حافلا بالعطاء الكبير الذي قدمه هذا الثوري الباسل والوطني الغيور والأممي الكبير والمناضل الجسور. ولا شك في أن الحديث عن الرفيق الخالد فهد في ذكراه العشرين بعد المئة، يفترض أولا وقبل كل شيء الحديث عن دوره الأساسي في بناء الحزب الشيوعي العراقي، ونشر الفكرة الشيوعية في ظروف العراق كتطبيق خلاق ومبدع للماركسية، وهو ما يتولى القيام به مقال الزميل زهير الجزائري الموسوم: شباب (فهد) وصبا الحركة الشيوعية في العراق، المنشور ضمن باب (نصوص قديمة) في هذا العدد.

(الثقافة الجديدة)
كانون الأول 2020

في صف واحد في (مدرسة الارسالية الامريكية) في العشار، كان يدرس صبيان ولدا في العام نفسه (1901 م)... ينحدر أولهما من عائلة مسيحية فقيرة، هاجرت من ارياف الموصل الى البصرة، طلبا للرزق، هو يوسف سلمان يوسف (فهد) – (مؤسس الحزب الشيوعي العراقي وسكرتيره العام.. فيما بعد). أما الثاني فينتمي لعائلة من ملّاك الارض في القرنة اصبح فيما بعد جلاد فهد وقاتله (بهجت العطية). افترق الصبيان حتى قبل أن تتكون بينهما علاقة زمالة، لأن الشاب يوسف ترك المدرسة بعد مرض والده ليتحمل اعباء الايام

الصعبة على عائلته، ودخل حياة العمل الشاق مبكرا. لم يلتق الصبيان فيما بعد، ولكنهما بقيا يتابعان اخبار بعضهما بدافع الفضول وبحكم متطلبات العمل.. فقد بدأ الاول بتأسيس أولى الخلايا الشيوعية في تربة العراق القاسية، ودخل الثاني سلك البوليس السياسي ثم اصبح رئيسا له، واصبح هاجسه الاول متابعة ولجم كل ما يقوم به زميل صباه العنيد.

أول درس في الوطنية

في الثامنة عشرة من عمره انتقل فهد من البصرة الى الناصرية مع اخيه داود للعمل في ماكنة الثلج. وفي شوارع المنتفك، ومن ناسها الفقراء تعلم اول الدروس في الوطنية، فقد كان (عرب المنتفك) كما وصفهم ضابط البوليس السياسي في تقريره لعام 1919 "مثل مسحوق البارود تفجرهم اصغر الشرارات": أي تبدل في الادارة الحكومية، حتى ولو كان تبديل الطبيب الحكومي، أو أي تشريع قانوني جديد، يقابل بالارتياب والغضب والمظاهرات والتمرد.

مع اول اخبار ثورة العشرين في الفرات، بدأ فلاحو المنتفك يزيّتون بنادقهم وينظمون الاهازيج ومذكرات التأييد. وقد أدرك الانكليز الخطر الذي يكمن في وصول الشرارة الى برميل البارود، لذلك غادروا ارياف المنتفك، ليكونوا قريبين من الثكنات التي تستوطن المدن. وفي محاكمته عام 1947 قال فهد

للمحقق: "ان هذه الثورة زرعت في اعماقي بذرة الحب لبلادي".

في هذه الفترة كان الانكليز يدركون صلاحية التربة العراقية للبذور الشيوعية، لذلك استبقوها بنشر كراريس مترجمة أرادت ان تكسب عطف العراقيين على أسرة رومانوف (الرقيقة) التي أسال الشيوعيون (القساة) دمها الشفاف على بلاط القصور القيصرية. كراريس تكرر تلك المقولات المعهودة عن (دموية الشيوعيين وتهتكهم ومعاداتهم للدين والعائلة). لكن العراقيين الذين خبروا دعايات الانكليز وأكاذيبهم اعتادوا ان يستقبلوا بالارتياب كل ما تقوله صحافة الانكليز. وقد اطلقت صحافة الفرات الثائرة هذا السؤال صريحا: لماذا يهاجم

الانكليز بهذه الحرقة، البلشفية ودولة البلاشفة؟ ولذلك تملك العراقيين الفضول لمعرفة الشيوعية من مصدر آخر.

"من والده سمع فهد أول تعريف بالشيوعية" كما قال لي احد اقارب فهد ومعايشيه. فقد عمل (سلمان) الشاب متنقلا بين ايران والعراق والهند والقفقاس. وخلال جولاته الطويلة تعرف على شيوعيين ساعدهم على التنقل، وسمع منهم شرحا للفكرة الشيوعية. الوالد الذي تعب من الترحل الطويل، تحدث لولديه يوسف وداود باعجاب عن الشيوعيين الذين رآهم، وعن الفكرة الشيوعية التي تمنى لو يتعرف إليها. وهكذا سمع الولدان عن الشيوعية لأول مرة من أبيهما.

التبشير الفكري

منذ أواسط العشرينات بدأ فهد يتابع الفكرة الشيوعية التي بدأت تتردد في بعض الصحف والكراريس بين مهاجم ومدافع.. تتردد مع اخبار الثورة البلشفية وقيام اول (دولة فقراء) في العالم. ولكن قبل الشيوعية وصلت ممهداتها: فكر التنوير ودعوات الاستقلال وبدايات الفكر الاشتراكي... افكار ثورة تركيا الفتاة وكتابات عبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وأمين الريحاني ويوسف ابراهيم يزبك وكتابات سلامة موسى. "وكنا نتداول بلهفة مجلة الشمس اللبنانية وعدد الهلال الذي يتحدث عن التيارات الفكرية وبينها الاشتراكية، كما تابعنا معركة السفوريين والحجابيين في صحافة بغداد"، كما قال حميد رشيد الكسار، احد اقدم اصدقاء فهد، ورفيق خلاياه الاولى في الناصرية.

في بغداد كانت أوليات الفكرة الشيوعية قد تسربت الى الصحف العراقية منذ أوائل العشرينات، فقد كتب وترجم الرعيل الاول من الماركسيين حسين الرحال، محمد سليم فتاح، محمود احمد السيد، عوني بكر صدقي، عبد الله جدوع، مصطفى علي مقالات طويلة ومتسلسلة عن تاريخ الملكية الفردية والعائلة اعتمادا على مؤلف انجلز (جريدة العراق 22 و25 تشرين الثاني 1924 على سبيل المثال) وعن القوانين الاشتراكية وقانون فائض القيمة (عوني بكر صدقي في مجلة العالم العربي)، كما نشر محمود احمد السيد تعريفات أولية في الواقعية مع تطبيقات عنها مثل قصة "البعث" لتولستوي وقصائد الكاتب التركي (رشاد نوري) نشرت في (الحاصد). وكانت مكتبة (مكنزي) في بغداد مصدرا مهما للادبيات الماركسية الاولى. فصاحب هذه المكتبة كان يعرض بعضا من مؤلفات ماركس وانجلز وصحافة الشيوعيين البريطانيين والفرنسيين. ومع رواد هذه المكتبة كان يتسلل أوائل الماركسيين العراقيين ليشتروا هذه الكتب ويقرأوها ويترجموا عنها.

وقد استغل الرعيل الاول من الماركسيين العراقيين ثغرات الرقابة البريطانية فاجتمعوا واصدروا أول مجلة ماركسية في العراق (الصحافة) في 28

كانون الاول 1924. وخلال أعدادها الخمسة تحولت المجلة الى ندوة للفكر الماركسي، وعرضت المبادئ الاولى للشيوعية في الاقتصاد والاجتماع والفلسفة. وقد استقبلت المجلة بحملة رجعية حامية. حتى ان محمد بهجت الاثري ونجم الدين الواعظ دَعَوا الى قتل الرحّال وجماعته لأنهم متهتكون ملحدون. وهكذا اغلقت أول صحيفة ماركسية بعد صدور عددها الخامس، مخلفة أثرا عميقا في الذهن العراقي المتعطش للفكر الآخر الذي لا يكف الانكليز عن مهاجمته.

وقد فسّر البوليس السياسي أسباب (النزوع الثوري والماركسي) بين المثقفين العراقيين بأنه ناتج عن شعور بالحيف ورغبة في تسنم المسؤوليات، تتناسب مع كفاءاتهم الذهنية. ووجد علاجا يمكن ان يشفي هؤلاء الشباب في ثوريتهم: الوظيفة. وقد وزعت الادارة البريطانية الوظائف بقصد ابعادهم عن النشاط السياسي: حسين الرحال عيّن في مديرية الجمارك ثم مترجما في وزارة الدفاع. محمود احمد السيد عين محررا في جريدة (الاوقات البصرية). عبد الله جدوع عين في مديرية البريد والبرق.... الخ. وقد ابتلعت الوظيفة بعضا منهم، وواصل البعض الآخر مساعيه لتكوين رأي عام شيوعي عراقي.

خلايا الناصرية

بين الناصرية والبصرة كان يوسف سلمان ـ فهد يعمل بشكل مختلف تماما. فقد ادرك قبل غيره ان الشيوعية ليست مجرد خيار ذهني، أو فكرة للتداول والمساجلة، انما هي دليل عمل. لذلك بدأ يتعلمها ويبنيها في نفس الوقت. ومنذ عام 1927 بدأ يكوّن "خلايا الرفاق". في هذه الفترة كان فهد قد فتح أول مكتبة في الناصرية. "في هذه المكتبة بدأت لقاءاتنا الاولى. نذهب إليه لشراء كتاب او مجلة معينة. وبعد مناقشات طويلة نخرج منه وقد اشترينا كتابا آخر. وفي الثانية نأتيه لنطلب منه ان يختار لنا بنفسه كتابا مفيدا كالأول. وهكذا.. وفي المرة الثالثة او الرابعة يمد يده الى مكان خفي ليسلمنا خلسة كتابا مغلفا، تداولته أيدٍ كثيرة، كتاب للاستعارة وليس للشراء. وأتذكر أني تسلمت منه البيان الشيوعي مخطوطا باليد...".

وقد اصبحت هذه المكتبة الصغيرة مركز جذب للشباب الوطني في المدينة. ومن جهة اخرى جذبت انظار المخبرين لذلك اغلقها فهد، وعاد ليعمل في ماكنة الثلج. ولكنه لم ينقطع عن رفاقه الاوائل، فقد أخذوا يترددون عليه في الماكنة، ويختلون به هناك، ليستلموا منه وريقة او ايعازا. "كانت هذه الماكنة مفتوحة للرفاق ومع دويها كانت تدور حلقات التثقيف بالشيوعية". كانت مصادر الفكرة الشيوعية شحيحة جدا في مدينة الناصرية، فقد كان البحث عن هذه المصادر جزءا من عمل الرفاق الاوائل: ومنها بعض الصحف الانكليزية التي

كانت تصل الى الناصرية. وقد عثر فهد مرة على اعلان من (جمعية الصداقة السوفياتية – البريطانية) عن الكتب المتوفرة في مكتبتها. في الحال حرر فهد رسالة للجمعية. وبعد أيام وصلت رزمة كُتب مع البريد البريطاني الذي لا يخضع للتفتيش. بين الكتب كان الدستور السوفياتي وبعض خطب لينين.. فبدأ فهد بترجمتها فورا.

ومرة كان بعض شبان الناصرية يلعبون الكرة أمام ثكنة إنكليزية، حين اقترب منهم شاب انكليزي ببندقيته وبزته العسكرية. سألهم:

- انتم تكرهوننا، أليس كذلك؟

لم يجب الشبان، فقد نظروا إليه بارتياب صامت.

- أنا أعرف ذلك، وأدرك أن الحق معكم. أنا أكره وجودي هنا.

وبعد حديث طويل سألهم: أيوجد بينكم من يقرأ الانكليزية؟ فقالوا له أن لديهم صديقا يقرأها بطلاقة. ذهب الحارس الانكليزي الى خيمته وجلب منها كتاباً، وقال لهم: اعطوه هذا الكتاب، وليقرأه لكم!

كان الكتاب بعنوان (مشاهدات في بلاد الجليد) وهو مشاهدات شيوعي بريطاني في الاتحاد السوفياتي. فهد ترجم بعض فصول ذلك الكتاب الذي تضمن ردودا على ما تشيعه سلطات الاحتلال حول بلد الاشتراكية الاول. بين رفاق فهد البسطاء، كان فهم الشيوعية في الغالب بسيطا جدا: "حكومة فقراء، نظام ليس فيه اقطاعيون ولا سيد او مسود. وبينما كان رفيق اخرس اسمه طارش.. يشرح للناس الشيوعية بإشارة من يده توحي وكأنها تعني كسر قاصات الاغنياء وتوزيع ما فيها على الفقراء".

وكانت عملية التثقيف بالفكرة الشيوعية تقرن بتطبيقاتها على الوضع العراقي؛ فقد كان فهد حريصا على تقصي اوضاع عمال الميناء والسكك، وعلى وضع الريف عن طريق عدد من اصدقائه. وكان دائم التنقل على ظهر حصان بين الارياف والقرى ليتعرف إلى اوضاع الناس، يحمل معه دفترا يسجل فيه مشاهداته. "في تلك الفترة كان فهد يتابع باهتمام عملية النهب الاستعمارية في بلادنا، يقرأ الصحف ويقطع منها أرقاما ومعلومات عن الوضع الاقتصادي وأوضاع السوق ومداخيل الناس. وفي ماكنة الثلج كان يصغي باهتمام شديد عندما نحدثه عن أوضاع الناس. ومن الصحافة الاجنبية كان يتابع الازمة الاقتصادية العالمية القادمة، ويؤكد باستمرار انها ستترك بصماتها على بلادنا. ما من قضية تحدث عنها في الاقتصاد والسياسة إلا وكانت أمثلتها عراقية".

في طليعة النضال الوطني

وكان التمايز الشيوعي ينمو في احشاء العمل الوطني. منذ البداية قال فهد لأحد رفاقه "حقا إننا شيوعيون، لكننا لا نريد البدء من الآن بتطبيق الشيوعية. لأننا لا

نريد ان نلوي ذراع التاريخ بقوة". ولذلك كان عمل (خلايا الرفاق) يقترن بالعمل الوطني المعادي للاستعمار الانكليزي والحكومة العميلة. وكان (الرفاق) الاوائل معروفين بأنهم أكثر الوطنيين في الناصرية والبصرة حيوية وشجاعة. في المدارس كان المعلمون منهم لا يتركون درسا إلا واستخدموه لتحريض الطلاب ضد الانكليز. وقد كان احد الرفاق مدرسا للرياضة والكشافة في متوسطة المنتفك، وصادف أن كان مسؤولا عن المهرجان السنوي للمدرسة.. كل القصائد والمسرحيات التي أعِدت كانت مكرّسة ضد الانكليز بطريقة مبطنة. ولذلك غادر الانكليز القاعة غاضبين، واستدعي الاستاذ للتحقيق. "وكان الناس آنذاك يعتبروننا من الوطنيين المتطرفين. وقبل أن يؤسس (الحزب الوطني) فرعا في الناصرية، أوصانا فهد بدعم هذا الحزب المعادي للاستعمار، وحث الناس على تأييده. وقد مهدنا لتوسيع هذا التأييد من خلال اجتماعات الليالي المقمرة: ففي الليالي المقمرة من كل شهر كنا ننتشر في المدينة وندعو الوطنيين والمستقلين ذوي الحس الوطني لاجتماعات سرية في البساتين، أو في بيت احد الوطنيين. وكان فهد يفتتح هذه الاجتماعات ويبدأ طرح اسئلة او كلمة تندد وتفضح طبيعة الاحتلال البريطاني وضعف الحكومة التي يصفها بأنها دمية يحركها الانكليز من وراء الستار، وكذلك اهمالها لحقوق المواطنين. وفي واحد من هذه الاجتماعات قدّم فهد احد الفلاحين ليحدث الجالسين عما يفعله الاقطاعيون. وتحدث ذلك الفلاح عن إقطاعي يلقب بـ (الشواي)، وكيف انه اكتسب هذا الاسم لأنه يقوم بشي الفلاحين المتمردين بحرقهم ملفوفين في حصيرة. وكنّا في هذه الاجتماعات لا نميز انفسنا كشيوعيين، انما نتقدم كوطنيين فقط".

ومن خلال هذه اللقاءات تأسست في لواء المنتفك قاعدة شبه منظمة للحركة الوطنية المعادية للاستعمار. وفي أواخر العشرينات بدأ فهد ورفاقه يجمعون من هذه القاعدة الوطنية تواقيع على مذكرة مرفوعة الى رئيس (الحزب الوطني) جعفر ابو التمن، تطالبه بفتح مقر وفرع للحزب في الناصرية. وفي عام 1929 افتتح مقر الفرع بمهرجان جماهيري القى فيه فهد خطابا حماسيا لفت إليه انتباه الجماهير المحتشدة. وكان فهد ورفاقه من اوائل من حصلوا على استمارة عضوية الحزب. وعملوا داخل الحزب باتجاه تجذير وطنيته ببعد اجتماعي يربط الاستعمار بالاستغلال. واخذ رفاق فهد على عاتقهم تعليم عمّال الحزب الوطني وفلاحيه القراءة والكتابة. وكانت كلمة (النقابة) هي اولى الكلمات التي تعلموا كتابتها وتعلموا معناها.

هاجس المخابرات البريطانية

في أواخر العشرينات بدأت المخابرات البريطانية تحسب للشيوعية في العراق حسابا جديا... لم تعد الشيوعية مجرد فكرة

يتداولها المثقفون في المقاهي والمحافل. لقد بدا رفاق فهد يؤسسون على الارض بناء حقيقيا: خلايا وتنظيمات في المدن والارياف، في المعامل والمدارس، وحولها قاعدة وطنية عريضة معادية للاستعمار البريطاني.

وقد اشار التقرير الرسمي للمخابرات البريطانية لعام 1930: "اصبح ممكنا للأفكار الشيوعية ان تحرز نفوذا متزايدا بين الشبان العراقيين".

في هذه الفترة تركت الازمة الاقتصادية العالمية تأثيرها العميق على العراق بانحطاط اسعار القمح والتمور والحبوب العراقية بنسبة 40%. وضاقت فرص العمل وشاعت البطالة وتدنت القدرة الشرائية. وتدنت اجور عمال ميناء البصرة والسكك الحديد وعمال النفط. في هذه الفترة كان فهد قد ترك عمل الكاتب في شركة الكهرباء الحكومية، وحمل على ظهره زوادة للطعام ومطارة للماء، وراح يجوب البلاد العربية سائحا. كان قد ادرك ان معرفته بأوضاع بلاده غير كافية ما لم تتصل بمعرفته بالبلاد العربية الاخرى. ذهب فهد الى الاردن وفلسطين وسورية، يتصل بالناس ويجوب الاحياء الفقيرة ويدون هذه المشاورات في دفتره. وكان في طريقه الى مصر حين تلقى خبر معاهدة عام 1930 بين الحكومة البريطانية و(الحكومة) العراقية. قطع فهد رحلته وقرر العودة، فقد بدأت بالنسبة له فرصة العمل الجدي حينما اجتمع الفقر الشامل مع الاهانة الوطنية التي لحقت بالعراق بتوقيع هذه المعاهدة. عندما وصل فهد الى الناصرية جمع رفاقه واستنفرهم في عمل دائب ومتصل، يستنسخون المنشورات ويوزعونها في كل الاماكن. وكان احد عمال الكهرباء قد صمم اول كليشة لشعار الحزب الذي يجمع المطرقة والمنجل ووضعت فوق المنشورات التي غطت في ليلة واحدة مدينة الناصرية. وقد فوجئ مدير شرطة المنتفك يومها حين وجد على طاولته نسخة من هذه المنشورات التي تندد بالمعاهدة وتطالب الجماهير بالتصدي لها. وشهدت بساتين الناصرية وأريافها وساحاتها العامة موجة غضب عارمة ضد المعاهدة. وقرئ المنشور الذي كتبه فهد في اماكن التجمع والمقاهي. وكان نشاط فهد ورفاقه يهدف الى ضمان ديمومة الغضب وحركة الاحتجاج الجماهيرية وتصعيدها بأساليب مواجهة اعنف. وقد تجلت نتيجة هذا العمل الدؤوب وتركت آثارها في الاضراب العام سنة 1931 ضد قانون الضرائب. حقا، لقد شمل هذه الاضراب التاريخي كل مدن العراق. لكنه اخذ في الناصرية طابعا مختلفا. لقد شارك فيه كل ابناء المدينة تقريبا. وقد احتلت الجماهير الشوارع والمؤسسات وواصلت الليل بالنهار. كان فهد خلال هذا الاضراب ينتقل من موقع الى موقع يهمس في أذان رفاقه الذين توزعوا في كل المواقع، يلهبون غضب الناس ويوجهونهم ويوضحون لهم ابعاد القانون، الذي

يريد القاء تبعات الازمة على جماهير الشعب الفقيرة. وقد بلغ عنف الاضراب حدا جعل الحكومة تعامل هذه المدينة باجراءات مميزة. فقد اطلق البوليس النار على المتظاهرين الذين توزعوا على كل السطوح وراحوا يرددون الهتافات التي تطالب باسقاط السلطة كلها، وليس الغاء القانون وحده. وقامت السفن الحربية البريطانية بعرض قوة في مياه شط العرب لإرعاب الجماهير وخاصة عمال الموانئ والدوكيارد (المسفن). لقد منحت الجماهير الكادحة منذ تلك الايام ثقتها للشيوعيين الأوائل الذين اثبتوا انهم اكثر الوطنيين صلابة وإيثارا. ومنذ هذه الاعوام صعدت الخلايا الشيوعية من جنوب العراق باتجاه الشمال نحو بغداد.. في هذه الفترة كان فهد قد بلغ الثلاثين. وبدأت تتجلى خصاله القيادية لكل الذين عرفوه وساروا معه، وأولهم العمال.

سلاح للعمل وليس فكرة للتداول

منذ تأسيس أول خلية شيوعية في الناصرية تجلى ذلك الميل الاصيل الذي رافق فهد طوال حياته السياسية: أنْ تبنى الشيوعية بأيدي الناس البسطاء، وتأخذ مداها بينهم. وفي الوقت الذي كانت الشيوعية في بغداد مجرد فكرة يتداولها مثقفون أنيقون ابتلعت الوظائف معظمهم، كان هاجس فهد هو تحويل الافكار الشيوعية الى سلاح جماهيري. كان يذهب ويدفع رفاقه الى حيث توجد الجماهير الكادحة: "بناء على توجيهاته كنا نذهب الى المقاهي الشعبية وننقسم الى فريقين... فريق يهاجم الشيوعية بالاتهامات المعروفة: انها ضد الدين، ضد الاخلاق، ضد العائلة وفريق آخر يرد التهم. وخلال ذلك نخلق في المناطق الشعبية حالة جدل، وينقسم الناس ايضا بين مهاجم ومدافع ومتسائل. وكان فهد يجلس متنحيا ليراقب ردود فعل الجالسين ويختار من بينهم الرفاق القادمين". وقد حثّ فهد رفاقه على ان يتوجهوا أولا نحو الجماهير الكادحة والاهتمام بها واختيار العناصر القيادية الكفوءة من بين صفوفها، ورغم أن الطبقة العاملة لم تتبلور آنذاك كطبقة واعية لذاتها، ولم تكتسب بعد خبرتها النضالية، وان الفلاحين غارقون بالامية والجهل، إلا ان فهد حرص منذ تأسيس اول خلية شيوعية على ان يكون رفاقه الاوائل ممن (غرفوا الجوع بكلتا يديهم): غالي الزويد كان عبدا مملوكا لآل السعدون، حميد الكسار كان عامل بدالة، عبد الرحمن كان عامل كهرباء، بطرس كان خياطا... الخ هؤلاء كانوا اعضاء الخلية الاولى. وكلما توسع عمل الحزب وانتشرت خلاياه، عمل فهد على تخليص الحزب، وخاصة قيادته، من (الافندية)، أي العناصر البرجوازية والمثقفين الارستقراطيين الذين يطرحون الاعتراضات الذاتية أضعاف ما يعملون بين الجماهير. وكان يختار ويدرب العناصر المنحدرة من اصول بروليتارية للاضطلاع بدور قيادي. وقد قال لي (عبد تمر) إن فهد هو الذي رشحه

وقدمه لعضوية اللجنة المركزية: "كانت معارفي النظرية بسيطة آنذاك، وكنت اشعر اني لست جديرا بهذا المنصب، لكن فهد قال لي نحن لسنا بحاجة الى عباقرة بالفطرة. نريد أناسا يحركون الجماهير ويتعلمون منها".

وقد تركز عمل الحزب نفسه على المناطق العمالية: الميناء، السكك، النفط. وفي بغداد تركز العمل على منطقة باب الشيخ التي تضم أكبر عدد من عمال النسيج. كما اعتمد فهد على (المثقفين الشعبيين)، مثل زكي بسيم وحسين الشبيبي اللذين تركا وظيفتيهما وتوجها الى العمل بين صفوف الكادحين. وفي الفصل المكرس لفهد يصف الاستاذ حنا بطاطو ميزة فهد البروليتارية، وكيف اجبر نفسه وعمل كل ما في طاقته لكي لا ينفصل أبدا عن الطبقة العاملة وقضاياها. لقد تخلى عن الدراسة ومقاهي المثقفين وعن الوظيفة واختار دائما ان يكون عاملا ميكانيكيا في ماكنة الثلج في شركة الكهرباء، في معمل للعطور ببغداد: "ورغم انه كان يضم في داخله طاقة ثورية عارمة، إلا ان شخصيته بسيطة متحررة من أي خداع أو غش. لقد نجح في كسب ثقة العمال وارتضى ان يكون واحدا منهم. وما عاد يسعده اكثر من ان يسمى: عاملا". أول بيان ظهر في العراق عام 1932 يحمل الشعارات المعروفة: ياعمال العالم اتحدوا، عاش اتحاد العمال والفلاحين، عاشت جمهورية العمال والفلاحين في الاقطار العربية، كتبه فهد ووقعه بعنوان "عامل شيوعي". وفي كل كتاباته كانت كلمة العمال والطبقة العاملة ترد تلقائيا باستمرار، لأنهم حاضرون ابدا في ذهنه.. عنهم يبدأ الكتابة وإليهم يتجه الكلام. ومنهم تعلم فهد أن يصغي اكثر مما يتكلم، وينظم أكثر مما يتحدث، وإذا تحدث فبذلك الاسلوب الهادئ البطيء الشديد الوضوح، حتى إن بهجت العطية قال عنه: "يمتلك فهد قوة اقناع كبيرة وقدرة على شرح الافكار بأسلوب بسيط". لقد حدد فهد بوضوح وجرأة ميزة الشيوعيين: المبدئية العالية ووضوح الاهداف واستبدال الوعود بالعمل. وبدأ فهد تطبيق ذلك على نفسه. فمنذ أن اختار الشيوعية، كرّس لها ولقضية الشعب كل نفسه. رفض الوظيفة ودعة الحياة العائلية وكل المباهج العابرة، وعاش في السراديب والأوكار السرية.. حديقته الوحيدة هي تلك التجمعات العمالية التي احبت فهد وأحبها ونذر من أجل قضيتها حياته.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 132/ تموز 1981، ص 22 - 30 .**

*** * أعدت هذه المادة استنادا الى لقاءات مع رفاق فهد الأوائل والى كتاب الاستاذ حنا بطاطو "الطبقات الاجتماعية القديمة والحركة الثورية في العراق".**

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور القاضي سالم روضان الموسوي

حاوره: سوران قحطان

سالم روضان الموسوي قاضي متقاعد، خبير الفقه والقضاء في الجامعة العربية، محاضر في المعهد القضائي العراقي، باحث وكاتب في الشأن القانوني والقضائي. عرض طروحاته الفكرية والقانونية في العديد من المقالات والبحوث ونشرها في الصحف والدوريات العراقية والعربية. كما صدر له عدد من الكتب في الجانب القضائي والقانوني. من بينها "جريمة اثارة الفتنة الطائفية" و"جرائم القذف والسب عبر القنوات القضائية" و"دراسات في القضاء الدستوري العراقي".

الثقافة الجديدة: اهتماماتكم بالنقاش والكتابة في موضوعة الدستور كبيرة، ولكم في هذا المجال كتابكم الموسوم: "دراسات في القضاء الدستوري".

منذ اقرار الدستور عام 2005، اثيرت حول العديد من بنوده ملاحظات ومآخذ كثيرة. وكان المرحوم فالح عبد الجبار، قد اشر في احد مقالاته عن الدستور العراقي الجديد بعد اقراره، قائلا ما معناه انه يتضمن موادا حضارية بالغة الرقي ترسي النظام السياسي، نظرياً على الأقل، كما انه يتضمن بنودا مثيرة للقلق. بل ان بعضها كان يدور حول فلسفته ذاتها. بالتأكيد، كان لحداثة التجربة الديمقراطية في العراق، وللظروف والملابسات التي كتب في ظلها الدستور، وخضوع صياغاته لمساومات الفرقاء السياسيين وقتها، دورا في ان يتخذ الدستور الصيغة المعروفة. وقد كنت اشرت في احد مقالاتك الى معنى قريب من هذا.

مع انطلاق انتفاضة تشرين 2019، اثيرت مرة اخرى مسألة الدستور العراقي، وضرورة تعديله. وتحت ضغط الاحداث، شكّل البرلمان لجنة للتعديلات الدستورية، اثيرت حولها وحول عملها العديد من الملاحظات.

ان كتابة الدستور، وهو الوثيقة الاهم عند اي شعب من الشعوب الحديثة، لا تنتهي بمجرد اقراره، بل هي عملية طويلة ومستمرة، تبدا مباشرة من عمليات التفسير والتأويل ولا تنتهي حتى مع التعديل أو الاضافة، مهما كان عددها. لكن الدستور من الناحية الأخرى، ليس وثيقة عادية، فهو عقد اجتماعي بين المواطنين، ولذلك فإن عملية تعديله لا بد أن تخضع لضوابط وقواعد متفق عليها، كما أن هذه التعديلات لا بد أن تنبثق من مصالح الشعب، وان تستند على قاعدة توسيع مجال الحقوق والحريات وليس التضييق عليها. لكن على ارض الواقع، تتطور الدساتير مع تطور المجتمعات وحاجاتها. وتطورها هذا خاضع لطبيعة المشاكل التي يواجهها المجتمع، ولتوازن القوى السياسية ومستوى الصراعات الاجتماعية في فترة تاريخية ملموسة.

هل يمكنكم تعميق وجهة النظر في مسألة التعديلات الدستورية، من خلال اضاءة جوانبها الدستورية والقانونية المختلفة؟ خصوصا وان الدستور العراقي لا يمكن عدّه من الدساتير المرنة بأي حال من الاحوال.

- **سالم روضان الموسوي:** يمر العراق في هذه الأيام بأزمة حادة يسميها البعض بالأزمة السياسية وتمثلت بالاحتجاجات والاعتصامات التي ظهرت في ثلثي محافظات العراق مع تذمر أبناء المحافظات الأخرى من الوضع السياسي، وان كان لهم دور في ما مضى من السنوات في الاحتجاج والاعتصام، ومن يستمع إلى مطالب جميع المحتجين، سيجد بأنها تتعلق بسوء الخدمات التي تقدمها أجهزة الدولة وكذلك حالة الفساد الذي استشرى بأوساط ومفاصل الدولة، ويكاد يجمع المحتجون جميعاً على أن سبب هذه الأزمات هو الدستور حتى إن بعضهم طالب بإلغائه أو تغييره واللجوء إلى الحلول الثورية عبر حكومة عسكرية يسميها البعض حكومة

إنقاذ وطني، يتولاها رجال من القوات المسلحة. لذلك فان سبب هذه الأزمة هو الدستور ذاته، كما يراها المحتجون وشخصها ذوو المعرفة في القانون والنظم السياسية. وقد أصبح تعديله مطلبا لاغلب المحتجين إن لم يكن جميعهم سواء في هذه الأزمة الراهنة ام سابقاتها، بما يتفق وتحقيق نظام سياسي أفضل من القائم حالياً. وطالما إن الدستور هو نتاج استفتاء الشعب فان ظهور هذه الاحتجاجات الواسعة ضد ما ورد فيه، لا بد من الاهتمام بها ودراستها وعدم إهمالها، لان الشعب هو مصدر السلطات على وفق ما جاء في المادة (5) من الدستور النافذ، الذي خرج عليه المحتجون، لذلك أرى أن الحاجة أصبحت ملحة لتعديل الدستور وليس لإلغائه، لأن فيه حقوقا للمواطن لم يكن متوفر عليها سابقاً ولا بد من حمايتها وليس إلغاءها، فضلاً عن ذلك نوفر الحماية لوحدة العراق من تحقيق رغبات من يسعى للانفصال، لان ما يجب تعديله هو شكل النظام الذي تسير عليه مؤسسات الدولة، حيث ثبت من خلال سنوات العمل للفترة من تاريخ نفاذ الدستور ولغاية الآن إن شكل النظام السياسي لا يوفر الحصانة تجاه الفساد، ولا يحمي الدولة من الضعف والوهن الذي جعلها عاجزة عن التصدي لمافيات الفساد، وإنها أصبحت خاصرة رخوة في جسد الدولة العراقية، لان السلطة التنفيذية في ظل الإطار الدستوري القائم جعل منها متعددة مراكز القوى، ما أدى إلى تعدد مراكز إصدار القرار حتى وصل الأمر إلى التناحر بين مكونات تلك السلطة، فأصبحت يد من يترأسها مغلولة، فضلاً عن عدم قدرته على الخروج من سيطرة القوى التي أتت به إلى سدة الرئاسة. وهذه تعد من ابرز عناوين المحاصصة الطائفية، التي يمقتها الجميع لكن يلتزم بها المنتفعون من الطبقة التي ظهرت بعد نفاذ الدستور والتي تعمل بكل قوة لتعزيز وجودها، فإنها طبقة تتميز عن عامة الشعب في كل شيء حتى في خضوعها للقانون، فنرى أنها محصنة إمّا بحكم الدستور والقانون أو بحكم الأمر الواقع. ولغرض تعديل المواد الدستورية لا بد من وجود نواب يؤمنون حقاً بأهمية هذا التعديل، لان من تواجد في البرلمان لم يسع جاداً إلى ذلك، ولمسنا هذا من خلال العزوف عن أداء واجبهم الدستوري بتعديل الدستور الذي نص عليه بشكل صريح وإلزامي، وعلى وفق ما جاء في المادة (142) منه، ومنذ الدورة الأولى في عام 2005. لكن تقاعس النواب عن تنفيذ ذلك، رغم وصولنا إلى العام 2020. وهذا يعطي لنا تصورا بأنهم لن يفعلوا تلك التعديلات، لذلك لا بد من وجود نواب همهم الأول والأخير الخدمة العامة وتحقيق مطالب الشعب وتدارك الحالات السلبية التي ظهرت من خلال تطبيق الدستور والعمل به خلال تلك الفترة التي لم تأت بنواب إلا نواب الدورة الأولى والذين يتناوبون العمل بينهم أما في السلطة التشريعية، ومن لم ينجح في الوصول إليها يمنح منصباً في السلطة التنفيذية، ما أصبح من المحال أن نرى غيرهم في مفاصل الدولة، وهذا ولّد الإحباط لدى الجميع ودعاهم إلى الاحتجاج وبالصورة التي نشاهدها الآن، ومنها تعطيل الحياة العامة. ومن خلال قراءة نصوص

الدستور العراقي النافذ التي تتعلق بتعديله نجد انه من الدساتير الجامدة لأنه اشترط لتعديله شروطا تختلف عن تعديل القوانين الاعتيادية وعلى وفق ما ورد في المادة (126) والمادة (142)، لكن هذا الجمود على نوعين: نوع شديد جداً وهو الوارد في المادة (142) التي تضمنت حق الفيتو لثلاث محافظات. بينما المادة (126) كانت اخف من حيث الجمود، لان شروطها لم تتضمن ذلك الحق. وبهذا المعنى فان دستورنا قد رسم عدة طرق لتعديله، ولم يقتصر على آلية واحدة. حيث نص على كيفية وآلية تعديله في موضعين: الأول في المادة (126) التي وضعها في صلب الدستور وجعلها من المواد الختامية، والثاني في المادة (142) التي وضعت فيها آلية أخرى مؤقتة ومحددة بزمن، وبشرط انجاز محدد تنتهي بانقضائهما وانجازهما وكانت موضوعة في المواد الانتقالية. وهذا منح الدستور النافذ سمة الآخذ بالآليات الدائمة والمؤقتة في آن واحد، لكن الآليات الدائمة وهي المشار إليها في المادة (126) وضعها في صلب الدستور، وهي جزء من كيانه الدستوري تحيا بحياته وتموت بموته، بينما الآلية المرسومة في المادة (142) تنتهي وتموت حال انجازها زمنياً أو موضوعيا عند تقديم توصيات التعديل، والأخذ بها، بينما الدستور يبقى قائما ومستمرا في نفاذه وحياته. وأثير جدل كبير حول الدستور النافذ وعلى وجه الخصوص في الفترة التي تفعل فيها اللجنة المكلفة بالتعديلات الوارد ذكرها في المادة (142) من الدستور، وذهب بعض الكتاب إلى اعتبار أن نص المادة (142) من الدستور يعطل نص المادة (126) من الدستور، ولا يجوز العمل بالمادة (126) إلا بعد انجاز التعديلات بموجب المادة (142) من الدستور. وارى أن هذا القول غير صحيح، حيث لا تعارض بين نص المادتين (126) و(142) من الدستور، لأن كلاهما تنظم أعمال وآليات تعديل الدستور بشكل مختلف عن الآخر، وكل واحدة من تلك المواد لها أحكامها الخاصة بها، ولأسباب عديدة، منها الآتي:

1. إن المادة (126) من الدستور هي من المواد الأصلية في الدستور بمعنى أنها ليست انتقالية محددة بزمن وتنتهي بعد ذلك. وكل الدساتير تضع في نصوصها ما يضمن آليات التعديل وهذا متفق عليه من جميع فقهاء القانون الدستوري، لان عدم قابلية الدستور للتعديل هو بمثابة تقييد للأجيال القادمة، لا يقره العقل ولا المنطق ولا يجيزه مبدأ سيادة الأمة، لذلك أصل التعديل يكون على وفق المادة (126) من الدستور والاستثناء هو التعديل على وفق المادة (142) لأنها انتقالية ومؤقتة ومصيرها الزوال بعد انجاز المهمة الموكلة فيها.

2. إن المادة (126) من الدستور فيها محظور دستوري، يمنع تعديل بعض أحكامه، إما لقيد زمني مثل عدم تعديل الحقوق والحريات الواردة فيه إلا بعد انقضاء دورتين، أو حظر وقيد موضوعي ويتعلق بصلاحيات الأقاليم. بينما التعديل على وفق المادة (142) من الدستور لا محظور دستوري فيه، ولها ان تعدل أيّا من أحكامه من الديباجة، وحتى آخر حرف في مادته الأخيرة.

ومن خلال ما تقدم أرى بان وجود لجنة التعديلات الدستورية وممارستها لعملها في الوقت الحاضر فإنما تمارسه على وفق أحكام المادة (142) من الدستور التي تتضمن حق الفيتو لثلاث محافظات، وهذا العمل لا يمنع مجلس النواب أو رئيس الجمهورية مع مجلس الوزراء مجتمعا، من تقديم المقترحات للتعديلات التي يرونها مناسبة واللازمة لمعالجة الأوضاع التي تأثرت بغموض أو النقص في النصوص الدستورية. وتكون هذه المقترحات على وفق أحكام المادة (126) من الدستور، ولا ضير من تزامن عمل اللجنة مع أي عرض لمقترح بالتعديل يكون على وفق المادة (126) من الدستور، وتسير الاجراءات بشكل منعزل عن الآخر، لان لا يوجد تعطيل لأي منهما، وما ورد في الفقرة (خامساً) من المادة (142) من الدستور التي جاء فيها الآتي (يستثنى ما ورد في هذه المادة من أحكام المادة (126) المتعلقة بتعديل الدستور، الى حين الانتهاء من البت في التعديلات المنصوص عليها في هذه المادة)، ليس لتعطيل العمل بالمادة (126) من الدستور، وإنما لاستثناء العمل على وفق هذه المادة من الآليات التي وردت في المادة (126)، ويتعلق بالأمور الإجرائية وليس الموضوعية وعلى وفق ما تم ذكره سلفاً، لان هذه المادة (142) قد وضعت في الدستور بعد انتهاء لجنة كتابة الدستور من أعمالها، حيث كان ممثلو المكون السني يعارضون كتابة أي دستور في ظل الاحتلال، حتى تم إقناعهم بالمشاركة في التصويت بعد أن حدد له تاريخ في حينه، وكان من الشروط التي فرضها هؤلاء أن يحفظ حق المكون في إجراء أي تعديل على الدستور الذي لم يشتركوا في كتابته، فعلى اثر ذلك تمت صياغة هذه المادة (142) من الدستور كما ضمنت حق الأكراد والشيعة في ذات الوقت في نقض أي تعديل يتعلق بالمكاسب التي حصلوا عليها فوضعت لهم صلاحية النقض (الفيتو) لثلاث محافظات.

الثقافة الجديدة: في العراق، اصبحت ظاهرة "الفوضى التشريعية" جلية، ما تسبب في النهاية بانعدام ثقة المواطن او على الاقل لامبالاته بعملية التشريع، ولا بالقوانين المشرعة. فمن جهة، برزت مسألة عدم حيادية القوانين والاجتهادات التشريعية، فالعديد منها فصلت بما يحقق مصالح القوى المتنفذة. وبعضها اتسم بالغموض والالتباس بصياغاتها، مما يدلل على الارتجال والعشوائية. اما بعضها الاخر، فكان مليئاً بالتناقضات والنواقص، والتضاد مع قوانين وتعليمات سابقة. بل وصل الحال الى ان هناك قوانين تتصادم مع روح الدستور، والحقوق التي يمنحها. من جهة اخرى. وبعد 18 سنة من التغيير، ما زالت العديد من القوانين التي شرعها "مجلس قيادة الثورة" في النظام السابق، عندما كان يمثل السلطتين التشريعية والتنفيذية سارية المفعول، ولم يعَد النظر فيها، بل وحتى في إلغائها. وهي وان كان بعضها ادق صياغة مما نشهده الان، لكن بعضها الاخر يتناقض تماما مع حقوق الانسان والدستور.

الفوضى التشريعية هذه، وان كانت في بعض جوانبها تمثل انعكاسا للاختلالات

الحاصلة في استخدام الصلاحيات والسلطات، لكن جوهرها يكمن في سوء استخدام السلطة، لصالح اقلية متنفذة.

ما هي رؤيتك لهذه الظاهرة؟ وهل تستطيع ان توضح لقارئنا الاجراءات القانونية التي يمكن من خلالها ايقاف او تعطيل انفاذ التشريعات المجحفة بحق المواطنين؟

- **سالم روضان الموسوي**: إن المشرع العراقي لا يملك إستراتيجية تشريعية تبلور في أول انعقاد لمجلس النواب على أساس الأهداف الانتخابية التي كانت سبب اختيار الأعضاء فيه عند خوض الانتخاب، لذلك ترى أن المجلس يحاول أن يكون رد فعل للأحداث التي تصادف فترة انعقاده، وعند النظر إلى مجمل العملية التشريعية من وجهة نظر سلوكية، سترى أن القوانين قد عبرت لنا عن سلوك القائم على أمر السلطة في البلاد وطبيعة المناخ السياسي السائد وعلى مدى الحقبة الزمنية الممتدة منذ تشكيل الدولة العراقية ولغاية الان، وهذا يوجب على كل القائمين على العملية التشريعية في العراق أن يدركوا بأن ما يفعلوه في الخفاء من توافقات سياسية تعكسها القوانين التي يشرعونها، وان الشعب والمجتمع له البصيرة التي تدرك الخفايا والقدرة على التقييم لما يحدث، لذلك لا بد ان يلتفت مجلس النواب إلى ضرورة إحداث ثورة تشريعية، لان اغلب القوانين والتشريعات النافذة تعبر عن وجهة نظر وفلسفة السلطة القابضة على مقاليد الأمور في أي بلد. وهو الوسيلة التي تخضع المواطن للأوامر التي يتضمنها النص والذي عادة ما يعبر عن وجهة نظر من شرّعه ووضعه، وتعج المنظومة التشريعية في العراق بعشرات الآلاف من التشريعات مثلت كل العهود التي مر بها العراق منذ عام 1920 ولغاية الآن. لذلك تجد أحيانا أن النص القانوني معطل لان الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية قد تغيرت، وأصبح ذلك النص غير ذي جدوى ولا يتناسب مع الظرف الجديد لأنه صدر في ظل ظروف سابقة تختلف أو إنها تغيرت. وبوجود هذا الكم الهائل من النصوص التي تتعارض وتتشابك مع بعضها أحيانا مما يؤثر في صدور الأحكام القضائية، ويؤدي إلى تباينها بين حكم وآخر، فضلاً عن بعضها أصبح يتقاطع مع دستور عام 2005، لذلك أرى أن تكون المعالجة عبر وسيلتين: الأولى، نهوض مجلس النواب بدوره الحقيقي وإعادة النظر في هذه التشريعات. وهذه من أهم مهامه الدستورية، بل إنها المهمة الرئيسية. والوسيلة الثانية، اللجوء إلى القضاء الدستوري ممثلاً بالمحكمة الاتحادية العليا للطعن بعدم دستورية التشريعات التي تتعارض مع النصوص الدستورية النافذة. والمحكمة الاتحادية العليا كان لها دور مهم في هذا الصدد، حيث أصدرت عشرات الأحكام القضائية التي عطلت بموجبها النصوص التي تتعارض وأحكام الدستور. وأرى أن للمجتمع المدني بكل فئاته، دورا وفسحة في معالجة هذه الفوضى التشريعية عبر إقامة الدعاوى أمام تلك المحكمة للطعن بعدم دستورية النصوص التي تخالف الأحكام الدستورية النافذة.

الثقافة الجديدة: اشارت المادة (89) من الدستور العراقي الى ان السلطة القضائية الاتحادية في العراق تتكون من مجلس القضاء الاعلى، والمحكمة الاتحادية العليا، ومحكمة التمييز الاتحادية، وجهاز الادعاء العام، وهيئة الاشراف القضائي، والمحاكم الاتحادية الاخرى التي تنظم وفقا للقانون.

برأيك، هل اكتملت وترسخت المنظومة القانونية التي تنظم عمل كل مكون من مكونات السلطة القضائية؟ وهل ترسخت العلاقة القانونية بين هذه المكونات؟ وهل الاختلالات الحاصلة بين مكونات السلطة القضائية هي ذات طابع دستوري فقط، أم أنها ذات طبيعة سياسية ايضا؟

- **سالم روضان الموسوي**: إن عمل السلطة القضائية وبجميع مكوناته يعتمد على ثلاثة أنواع من القوانين: (النوع الأول يتمثل بالقوانين التي تنظم عمل المؤسسات القضائية، مثل قانون التنظيم القضائي وقانون مجلس القضاء الاعلى، وقانون المحكمة الاتحادية العليا وقانون مجلس الدولة وقوانين القضاء العسكري، وهذه قوانين تنظم هيكلية عمل تلك المؤسسات. والنوع الثاني يتمثل بالقوانين الموضوعية والتي تعالج المشاكل الاجتماعية، وتنظم العلاقات بين الأفراد، ومنها قانون العقوبات والقانون المدني وغيرهما من القوانين. أما النوع الثالث فيتمثل بالقوانين الإجرائية وهي القوانين التي تنظم كيفية إقامة الدعاوى وآليات السير فيها وكيفية إصدار الأحكام القضائية، ومنها قانون المرافعات المدنية وقانون أصول المحاكمات الجزائية وغيرهما). وهذه القوانين اغلبها من مخلفات أنظمة الحكم السابقة، وعبرت عن فلسفة تلك الأنظمة، وأصبحت غير قادرة على مواكبة التطور الحاصل في مبادئ حقوق الإنسان التي نص عليها الدستور النافذ، فضلاً عن وجود قضاء مستحدث لم يكن موجودا، وهو القضاء الدستوري، والذي يتمتع بخصوصية في طبيعته وإجراءاته، مما يتطلب وجود تشريعات خاصة به نفتقدها في الوقت الحاضر. لذلك لا يمكن القول بان قوانين السلطة القضائية قد اكتملت وإنما ما زالت بحاجة إلى تشريع القوانين ذات الصلة بالقضاء والعمل القضائي وتعديل النافذ منها حالياً، وهذا يقودنا إلى أن عمل تلك المكونات للسلطة القضائية في بعض مفاصلها مازال غير راسخ ومتأرجح. ونرى أن بعض المفاصل القضائية يجتهد لإيجاد البديل التشريعي لمعالجة الأمور التي ينظر فيها، واغلب قواعد المرافعات تكون عبارة عن أعراف قضائية استقر عليها العمل من اجل سد الفراغ التشريعي. وهذه تبقى عرضة للتغيير حسب وجهة نظر المطبق للقانون. أما عن التقاطع بين مكونات السلطة القضائية فإن الأمر بالنسبة للاجتهاد القضائي واقصد به إصدار الأحكام فلا يوجد أي اختلال أو تقاطع لان القانون رسم طرق الطعن في تلك الأحكام وعلى عدة درجات للتقاضي، ولا يجوز لأي جهة ان تتعدى على اختصاص جهة أخرى، وهذا ثابت على مستوى القضاء الاعتيادي المتمثل بالمحاكم التي تنضوي تحت لواء مجلس القضاء الأعلى. أما

بالنسبة للقضاء الإداري فانه يتبع إجراءات حددها القانون، ويكون تحت لواء مجلس الدولة، وفي القضاء الدستوري لا يمكن تصور وجود تعارض لان أحكام المحكمة الاتحادية العليا التي تمثل القضاء الدستوري نهائية وباتة وملزمة للجميع بموجب احكام المادة (94) من الدستور، باستثناء حالة غريبة حدثت قبل أيام عندما تعدى القضاء الاعتيادي على اختصاص القضاء الإداري في النظر في دعوى إبطال مرسوم جمهوري على خلاف القانون، وما استقر عليه الفقه الدستوري والإداري وهذه سابقة خطرة، وان كانت منفردة لأنها أتت في ظل وجود تأزم بين إدارة مجلس القضاء الاعلى وإدارة المحكمة الاتحادية العليا. وأرى بان هذا التأزم سببه صراع إرادات وليس اختلافا في وجهات النظر الدستورية والقانونية، لان معظم ما رشح عنه هو بيانات لكلتا المؤسستين ومقالات وليس عبر اجتهاد قضائي، وهذا الحال غير مستغرب في ظل الاضطراب السياسي والمناخ الذي ساد فيه.

الثقافة الجديدة: نستطيع القول دون مبالغة ان منظومة الفساد امست ارسخ وأقوى ''مؤسسة'' في البلاد، تمثل اس وجود الدولة العميقة. وقد قامت على اساس هذا الفساد ''ثقافة'' تكاد تكون سائدة، ''ثقافة'' يمكن تلخيصها بـ: الحصول على اكبر استفادة ممكنة، مهما كانت الوسائل.

ان معالجة ظاهرة الفساد هذه يجب ان تكون متعددة المستويات والمديات، وذلك انطلاقا من كون هذه الظاهرة مركبة ومعقدة. لكن من الواضح ان القوى المتنفذة غير راغبة في ذلك. فعلى مستوى السلطتين التشريعية والتنفيذية، تكاد المعالجات والاجراءات تكون ذات طابع دعائي و''خطابي''، وذلك بسبب نهج المحاصصة، ووجود إرادة سياسية داعمة للفساد اكثر من دعمها لموضوعة القضاء عليه. واذا تتبعنا الاجراءات الملموسة، نرى ان حجم الظاهرة قد كبل عمل وآليات المؤسسات والهيئات الرسمية المتخصصة بمحاربة الفساد. وذلك لأن القوى المتنفذة، بأذرعها الأخطبوطية، تمارس كل اشكال الضغوط سواء كانت سياسية ام غيرها في سبيل إفراغ الاجراءات التشريعية والتنفيذية وحتى القضائية من محتواها الفعلي.

على مستوى المعالجة القضائية، نلحظ أن عملية مكافحة الفساد بقيت ضعيفة. وهذا الضعف يمكن ارجاعه الى الضغوط السياسية، وكذلك الى طبيعة الآليات والاجراءات القانونية ذات النفس الطويل والروتيني الى حد ما.

هل يمكن أن تستعرض لنا رؤيتك لآليات وسبل الشروع بمكافحة الفساد وكيفية القضاء عليه، خصوصا ماهي طبيعة التشريعات المطلوب الضغط من اجل تشريعها، كي يأخذ القضاء دوره كاملا في عملية القضاء على الفساد. وايضا، وهذا يبدو شرطا ضروريا، كيف نستطيع اقامة علاقة واضحة بين السلطات الثلاثة، لصالح إحداث فصل حقيقي بين السلطتين التشريعية والتنفيذية عن السلطة القضائية. وبالتالي ابعاد القضاء

فعليا عن المجال السياسي؟

ولأننا نعلم ان مثل هذه المعالجة الجذرية لظاهرة الفساد هي عملية طويلة المدى، ومحفوفة بكثير من العوائق والصعوبات والمخاطر ايضا، نستفسر: ماهي برأيك الخطوات القضائية الملموسة الآنية والبعيدة المدى ايضا والتي يمكن من خلالها تذليل العقبات السياسية والروتينية في مكافحة الفساد، وتشكل الأرضية المناسبة للقضاء عليه؟

- **سالم روضان الموسوي**: إذا ما أردنا البحث في موضوع الفساد كظاهرة معاصرة، فالتحديد الدقيق لمفهوم (الظاهرة) يمكن أن يعبر عنه على أنه تواتر حدوث الحالة وتكرار وقوعها بين الحين والآخر. والفساد كفعل له صفة الاستمرارية والتكرار، وبتوافر معظم حوادثه على صفات وقواسم مشتركة، فاكتسب ما يجعله مستوفيا لشروط الوصف على أنه ظاهرة. وبحكم كون المجتمع السياسي هو الوسط الذي ولدت ونمت في كنفه تلك الظاهرة، وهو من قبيل الظواهر السياسية. لذلك فإن الفساد يشكل ظاهرة إجرامية أو سلوكا منحرفا عن قواعد السلوك الاجتماعي السائدة في المجتمع، يرتبط بالسياسة والسياسيين على الأغلب الأعم، وذلك تأسيسا على أن السلوك الإجرامي ليس محض واقعة يجرمها القانون، لكنه سلوك يصدر من إنسان يعيش في بيئة معينة ووسط مجتمع معين، ومن ثم فهو سلوك اجتماعي منحرف؛ فالفساد المالي والإداري، كظاهرة إجرامية لها خصوصيتها من بين غيرها من الظواهر الإجرامية الأخرى، وليس فعلاً منعزلاً أو عرضياً ولكنه ثمرة تضافر عوامل عديدة تحركه وتحدد تكوينه وهيئته وظهوره. وتسهم آلية إصدار القوانين وتشريعها في نشر الفساد لان القانون يكون أحيانا وسيلة من وسائل الفساد. وبعض القوانين التي تنظم العلاقات داخل المجتمع تحكمها قواعد قانونية، ظاهرها المصلحة العامة، إلا أن واقعها التطبيقي يسهم في انتشار ظاهرة الفساد ومنها وضع القيود، من باب الوصاية على المواطن وافتراض النقص فيه، وجعله دائما محل ريبة وشك، وعليه أن يثبت صحة قوله وصدق ادعائه، وان يقدم الأدلة على ذلك، مما يدعوه أحيانا إلى الالتفاف والاحتيال بمساعدة المفسدين من الموظفين أو العاملين في الوظائف العامة وبدون استثناء، لنوع معين من هذه الوظائف؛ إذ نجد الفاسد والمفسد في اغلب الوظائف حتى وان كان لا يشكل نسبة كبيرة في عدد العاملين فيه. ولمعالجة تلك الظاهرة لا بد من توفر بيئة تشريعية مناسبة، وأولها وعلى رأسها قانون انتخابات يتيح للمواطن التعبير الحقيقي عن اختياره لأعضاء مجلس النواب. وكذلك إصدار تشريعات جديدة تعالج ظاهرة الفساد بوضع عقوبات صارمة وجدية، بدلاً من العقوبات الحالية، التي لم تكن يوماً سنداً في المعالجة، لان اغلب تلك النصوص صدرت في وقت ترى فيه السلطة أن الوظيفة مقترنة بشخص الرئيس أو القائد، لذلك لا يجوز المساس بها، ووضعت لها عقوبات بسيطة جداً، وغرامات مالية تكاد لا تمثل شيئا تجاه بعض جرائم الفساد، لذلك نرى عشرات الفاسدين ممن ارتكبوا مخالفات بمليارات

الدنانير، ولربما اكبر من هذه المبالغ، وعند عرضهم على القضاء يتم الحكم عليهم إما بالحبس البسيط مع وقف التنفيذ أو بالغرامة التي لا تتعدى مائتي ألف دينار في أحسن أحوالها. وقد يظن البعض أن في النصوص أحكاما سالبة للحرية، لكن في ظل الاضطراب الأمني وهيمنة المسلحين على الشارع، وقلة وسائل الحماية للأجهزة القضائية، بكل منتسبيها سواء كانوا قضاة ام محققين ام أجهزة شرطة، فلا نجد أحكاما تقضي بالسجن او الحبس لمدد طويلة، ما جعلها اضعف من أن تقاوم قوة الفاسدين الذين يملكون مجاميع مسلحة، توفر لهم الحماية، فضلاً عن ارتباط هؤلاء بقيادات سياسية واجتماعية ودينية، توفر لهم الغطاء للنيل من القاضي أو المحقق أو منتسب قوى الامن الداخلي الذي لا ينسجم ورغباتهم، سواء بعزله أم معاقبته إدارياً أم نقله إلى أماكن أخرى غير فاعلة في محاربة الفساد عبر الضغط على رؤسائه، أم حتى الاعتداء عليه وعلى عائلته. وقدمت السلطة القضائية مئات الشهداء من قضاة ومحققين وموظفين لأنهم تصدوا للفاسدين عبر مواقعهم القضائية. لذلك أرى ان تشدد العقوبات على من يثبت القضاء بأنه مدان، وأهم تعديل للقوانين يجب أن يمنع إطلاق سراح المتهم بجرائم فساد مالي او إداري، وان تمت إدانته ان لا يمنح أي منصب أو وظيفة لاحقاً، وكذلك منع تمتعهم بقوانين العفو العام التي كثرت خلال العقود الماضية والتي وفّرت مساحة كبيرة للفاسدين من التخلص من المساءلة القانونية. كذلك أرى أن من الضروري أن ينهض الادعاء العام بدوره وتفعيل النصوص الواردة في قانونه المرقم 49 لسنة 2017 ومنها ما ورد في الفقرتين (11 و12) من المادة (5) حيث جاء في الفقرة (11) الآتي: (الطعن بعدم دستورية القوانين والأنظمة أمام المحكمة الاتحادية العليا) وفي الفقرة (12) الآتي: (التحقيق في جرائم الفساد المالي والإداري وكافة الجرائم المخلة بواجبات الوظيفة العامة المنصوص عليها في قانون العقوبات رقم (111) لسنة 1969 (المعدل) طبقا لأحكام قانون أصول المحاكمات الجزائية رقم (23) لسنة 1971 المعدل على أن يحيل الدعوى خلال (24) أربع وعشرين ساعة الى قاضي التحقيق المختص من تاريخ توقيف المتهم). وهذه الفقرة تكاد تكون من أهم الفقرات التي إن فعلت ستسهم كثيرا في المعالجة، إلا أن الواقع يشير إلى تعطيل العمل بهذه الفقرة لأسباب غير معروفة ولم تصرح عنها رئاسة الادعاء العام، الذي يفترض به أن يكون مستقلا عن مجلس القضاء الأعلى، لأنه من مكونات السلطة القضائية، وليس من مكونات مجلس القضاء الأعلى على وفق ما جاء في المادة (89) من الدستور، وكذلك على وفق نص المادة (1) من قانونه التي جاء فيها الآتي: (اولا: يؤسس جهاز يسمى جهاز الادعاء العام، ويعد من مكونات السلطة القضائية الاتحادية، يتمتع بالاستقلال المالي والاداري، ويكون مقره في بغداد. ثانيا: يتمتع جهاز الادعاء العام بالشخصية المعنوية، ويمثله رئيس الادعاء العام او من يخوله). لكن حالياً يتم التعامل مع جرائم الفساد عبر الآليات

القديمة بواسطة قاضي التحقيق مثلما يتم التعامل مع أي مشاجرة بسيطة بين الزوج وزوجته، فضلاً عن كونه يمثل اعتداء على الاختصاص النوعي للتحقيق في تلك الجرائم. ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل تم تعطيل نص آخر في قانون الادعاء العام والمتمثل في نص الفقرة (13) من المادة (5) التي جاء فيها الآتي (تستحدث دائرة في رئاسة الادعاء العام تسمى دائرة المدعي العام الاداري والمالي وقضايا المال العام، يديرها مدعي عام، لا تقل خدمته عن (١٥) خمس عشرة سنة، تتولى الاشراف على مكاتب الادعاء العام المالي والإداري في دوائر الدولة). حيث لم يتم تفعيلها لغاية الآن، والتي تعد من أهم الخطوات في المعالجة، للتقليل من حالات الفساد الكبرى. وأصبحت الحاجة إليها ملحة بعد أن تم إلغاء عمل مكاتب المفتشين العموميين، لذلك لا بد من تفعيل هذه النصوص، وإعادة العمل بمكاتب المفتشين العموميين على أن يكون مستقلاً عن الوزارة التي يعمل بها وان يكون مستقلاً في كل شيء عن الوزير. كذلك لا بد من إيجاد قوة تنفيذية تتمتع بالنزاهة والقوة الكافية لتنفيذ قرارات القضاء في القبض على المتهمين بجرائم الفساد، أما عن كيفية إبعاد القضاء عن السياسيين، فلا بد من دعم استقلال المؤسسة القضائية وإبعاد ترشيح أعضائها لشغل المناصب القضائية عن سلطة السياسي، كذلك دعم استقلال القاضي في المؤسسة القضائية نفسها، لان وجود قضاء مستقل مع قاضي تابع يخضع لأهواء مرؤوسيه، فإننا لم نفعل شيئا، بل نقلنا الضغط من السياسي الى الرئيس الأعلى او المباشر للقاضي، كذلك منع زج القضاء في المعترك السياسي وإبعاده عن جلسات المجالس السياسية أو إرغامه على الحضور فيها، إلا إذا كان الأمر بروتوكوليا، من اجل صيانة سمعة القضاء من التجريح او التسقيط.

الثقافة الجديدة: تقودنا الاسئلة السابقة، الى سؤال آخر على درجة كبيرة من الاهمية، يتمحور حول مدى استقلالية القضاء العراقي. كنتَ قد قدمت في احد مقالاتك قبل عدة سنوات، رؤية دستورية وقانونية مهمة حول موضوعة استقلال القضاء، في اشارة للقضاء العراقي. المنطلق لرؤيتك يمكن تلخيصه بالجملة التالية المقتبسة من مقالك المذكور: ".. استقلال السلطة القضائية يعتبر حجر الزاوية في اي نظام ديمقراطي حر".

فهل يمكن أن يكون هناك استقلال قضائي في العراق، في ظل رسوخ نهج المحاصصة وهيمنة قوى اللادولة أو الدولة العميقة على المجتمع ومؤسساته المختلفة، وسيطرة السلاح المنفلت والقوى الخارجة عن القانون؟

وفي ظروف العراق الحالية، ما هي بتصورك التشريعات الاضافية والآليات المطلوبة من اجل تثبيت استقلال القضاء العراقي وضمانه، بعيدا عن كل اشكال الضغوط السياسية؟

السؤال سياسيا بطبيعته، وان كان القارئ بحاجة الى اجابة قضائية وقانونية، لكنها مهما ابتعدت ستكون بالضرورة ذات محتوى سياسي.

- **سالم روضان الموسوي:** نعم، من الممكن ان يكون هناك استقلال قضائي تام، لان الأرضية مهيأة، ومنها استقلال السلطة القضائية عن باقي السلطات وعلى وفق المبادئ التي وردت في الدستور النافذ، لكن نحن بحاجة إلى تشريعات تحقق اكبر قدر ممكن من استقلال القاضي في عمله القضائي. ومن أهم هذه الضمانات أن نغير آليات إشغال المناصب القضائية القائمة في الوقت الحاضر، بحيث نجعل من رئاسة المحاكم العليا أو تقلد المناصب الإدارية القضائية العليا بطريق الانتخاب من الهيئة العامة للقضاة بعد وضع شروط تتعلق بتوصيف كل موقع قضائي، وان تكون إدارة المؤسسة القضائية تداولية، ولفترة محددة وان لا يترك الأمر إلى تأبيد المنصب مثلما هو قائم الآن. ففي الوقت الحاضر هناك جهات حقوقية تسعى لتقديم مقترح قانون جديد للسلطة القضائية تراعى فيه الاعتبارات الديمقراطية التي تأسس عليها نظام الحكم في العراق وبكل مفاصله وسلطاته وعلى وفق ما جاء في المادة (1) من الدستور النافذ، كذلك لا بد من إيجاد نص في قانون التنظيم القضائي أو في قانون مجلس القضاء الأعلى، يمنع نقل القاضي أو انتدابه إلى أي موقع غير موقع عمله القضائي من دون موافقته الشخصية حتى نقطع دابر النقل باعتباره نوعا من أنواع العقوبات. وأيضاً لا بد من تفعيل مهمة تلقي شكاوى القضاة تجاه الأوامر التي تصدر بحقهم أمام هيئة قضائية يتم تشكيلها بالانتخاب من الهيئة العامة للقضاة وليس من ثلاثة من أعضاء مجلس القضاء الذي هو من اصدر الأمر المشكو منه. ومن الضروري جداً ملاحظة إكمال الفراغ التشريعي الذي حصل في قانون التنظيم القضائي حيث كانت مراقبة وتفتيش أعمال محكمة التمييز الاتحادية ومحاسبة قضاتها قد وردت في الفقرة (ج) من المادة (5) من قانون التنظيم القضائي رقم 160 لسنة 1979 المعدل والتي جاء فيها الآتي (يكون التفتيش على أعمال محكمة التمييز والإشراف على قضاتها، من قبل رئيسها على ان يقدم تقريرا سنويا عن أعمال المحكمة الى وزير العدل ومجلس العدل)، وفي هذا النص كان رئيس محكمة التمييز هو من يشرف على عمل المحكمة ومن ثم يرفع تقريرا إلى وزير العدل الذي بدوره يتولى المتابعة واتخاذ ما يلزم تجاه أي شكوى أو خرق، وهذا الوزير في حينه مرتبط بمجلس الوزراء الذي كان يترأسه رئيس الدولة، وحصلت عدة حالات تمت فيها المحاسبة وعزل بعض القضاة آنذاك. لكن الذي حصل بعد عام 2003 إن مجلس القضاء نال استقلاله من وزارة العدل، ثم تعزز هذا الاستقلال بموجب الدستور النافذ، وأصبح رئيس محكمة التمييز هو رئيس مجلس القضاء الأعلى الذي حل محل وزير العدل، وبذلك توحدت فيه صفة المراقب والمقرر، وفقدنا وسيلة مراقبة مهمة، لان القضاة المحترمين في محكمة التمييز الاتحادية هم بشر ومعرضون لما يتعرض له سائر اقرانهم من البشر، لذلك اقترح أن يتم تدارك هذا الفراغ التشريعي. واقتبس نصا كان قد ورد في المادة (81) من دستور العراق لعام 1925، جاء فيه الآتي: (تؤلف محكمة عليا لمحاكمة الوزراء، وأعضاء مجلس الأمة، المتهمين بجرائم سياسية، أو

بجرائم تتعلق بوظائفهم العامة، ولمحاكمة حكام محكمة التمييز عن الجرائم الناشئة من وظائفهم، وللبت بالأمور المتعلقة بتفسير هذا القانون، وموافقة القوانين الأخرى لأحكامه)، وبقصد بها المحكمة العليا التي تماثل المحكمة الاتحادية العليا. ولا بد من ملاحظة مهمة، بان العمل القضائي هو تطبيق النصوص القانونية وهذه النصوص بطبيعتها نتاج فكر سياسي، وفي أصلها تعبير عن إرادة الهيئة التشريعية التي هي أعلى سلطة تشريعية في الدولة المكونة من أحزاب وكتل سياسية، ولا يمكن أن يكون بعيدا عن سهام العمل السياسي إلا بوجود تشريعات وإدارة تملك إرادة حقيقية وصلبة نحو استقلالها.

الثقافة الجديدة : احد بحوثك المهمة كان بعنوان (دور القضاء في إدماج الاتفاقيات الدولية مع النصوص الوطنية). وكما تعلم هناك العديد من الاتفاقيات والمعاهدات والمواثيق التي تدافع عن حقوق المرأة والطفل والمساواة بين الجنسين. وتلك التي تدعم الحريات وحقوق الانسان، أو تدعم البناء السليم للديمقراطية والحريات النقابية وغيرها.

ترى هل يستطيع الناشطون المدنيون والسياسيون الاستناد لمثل هذه الاتفاقيات والمعاهدات والمواثيق خلال نضالهم القانوني؟ وما هي الآليات الدستورية والقانونية الواجب إتباعها من قبلهم؟ وفي هذا السياق هل هناك فرق بين المعاهدات والاتفاقيات والمواثيق التي صادق عليها العراق عن تلك التي لم يصادق عليها؟

- **سالم روضان الموسوي**: إن جميع الاتفاقيات والمعاهدات الدولية، وعلى وجه الخصوص المتعلقة بحقوق الإنسان، هي نتاج صراع إنساني طويل ومرير قدمت من اجله تضحيات عظيمة، وبعد الحرب العالمية الثانية، وما خلفته من آثار وخيمة على الإنسانية، وبعد وإنشاء الأمم المتحدة، تعهد المجتمع الدولي بعدم السماح على الإطلاق بوقوع جرائم بحق الإنسانية مجدداً. وقرر المجتمع الدولي إكمال ميثاق الأمم المتحدة بخريطة طريق تتضمن حقوق كل فرد في أي مكان أو زمان. والوثيقة الأهم التي توخاها المجتمع الدولي "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان". وكان هذا الإعلان موضع نظر في الدورة الأولى للجمعية العامة في عام 1946، ثم توالت المواثيق والعهود الدولية المختصة في الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية التي تعزز من توفير الحماية لحقوق الإنسان من أي اعتداء سواء كان الاعتداء من أنظمة الحكم ام غيرهم. ويكاد تعسف السلطة هو الغالب، لان اغلب النظم السياسية الحاكمة تمثل سلطة تتغول على الجميع، فكان من الضروري توفير الغطاء القانوني لهذه الحقوق عبر اتفاقيات دولية يلزم بها الجميع. ومن هذه الاتفاقيات "اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة"، والمعروفة اختصارا (سيداو) المصادق عليها في العراق بموجب القانون رقم 66 لسنة 1986، كذلك اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في 20 تشرين الثاني 1989 المصادق عليها من العراق بموجب القانون رقم 3 لسنة 1994،

وما تعنيه المصادقة على تلك الاتفاقيات، بأنها تصبح جزءاً من المنظومة القانونية العراقية، ولها قوة الإلزام بوصفها قانونا وطنيا داخليا، أي أنها قانون واجب الإتباع، سواء من المواطن أم الأجهزة الحكومية والتشريعية والقضائية، لكن على مستوى التطبيق نجد أن البعض ينكر عليها هذه الصفة المتعلقة بكونها ملزمة لهم، ويبقى يتمسك بإنها نص خارجي وغريب عن المنظومة القانونية العراقية، حتى أن احد رؤساء الكتل النيابية في مجلس النواب الحالي، اعتبر هذه الاتفاقيات محاولة غربية لتفكيك الأسرة ومحاربة الدين الإسلامي، وذلك عبر منشور وزعه على عدد من الحاضرين في ندوة تتعلق بمناقشة مشروع قانون مناهضة العنف الأسري. وهذا يؤشر مدى حجم المعاناة التي يواجهها المختص وغير المختص من المهتمين بحقوق الإنسان، لكن لا بد من الاستمرار بالنضال تجاه ترسيخ العمل بها. وعلى كل الناشطين في الجانب المدني والحقوقي الارتكاز عليها والاستناد إليها في أي عمل حقوقي؛ حيث إنها تعتبر قانونا وطنيا حاله حال أي قانون آخر. وما يراه البعض من وجود فراغ تشريعي تجاه حقوق الإنسان، فانا أرى غير ذلك لان الاتفاقيات والمعاهدات الدولية المصادق عليها في العراق تكفي لحماية الحق وممارسته، ليس لأنها مجرد اتفاقيات دولية والعراق ملزم بها بموجب توقيعه عليها، وإنما لأنها قانون وطني واجب الإتباع ومن يخالفه يتعرض للمساءلة القانونية، مثلها مثل أي قانون آخر، كذلك لا بد من الالتفات إلى نقطة مهمة تتعلق بالاعلوية والسمو لبعض الاتفاقيات والمعاهدات الدولية المتعلقة بمبادئ حقوق الإنسان على القانون الوطني، بمعنى ان هذه الاتفاقيات إذا ما تعارضت مع نص قانوني آخر في قانون نافذ، فإن نص الاتفاقية هو النافذ، ويستبعد النص القانوني في القانون الوطني الآخر، والسند القانوني في ذلك ما ورد في دستور العراق لعام 2005، حيث كان فيه تطور مهم نحو الأخذ بمبدأ أعلوية وسمو الاتفاقيات المتعلقة بحقوق الإنسان على القوانين الوطنية، حتى لو لم يصادق عليها العراق، وهذا يشكل تطورا مهما جداً نحو الشرعة الدولية لحقوق الإنسان. وأشار إليه الدستور النافذ لعام 2005 في المادة (9/ أولاً/ د) التي جاء فيها الآتي (يقوم جهاز المخابرات الوطني العراقي بجمع المعلومات، وتقويم التهديدات الموجهة للأمن الوطني، وتقديم المشورة للحكومة العراقية، ويكون تحت السيطرة المدنية، ويخضع لرقابة السلطة التشريعية، ويعمل وفقاً للقانون، وبموجب مبادئ حقوق الإنسان المعترف به). وكذلك ما ورد في المادة (84) من الدستور التي جاء فيها الآتي (ينظم بقانونٍ، عمل الأجهزة الأمنية، وجهاز المخابرات الوطني، وتحدد واجباتها وصلاحياتها، وتعمل وفقاً لمبادئ حقوق الإنسان، وتخضع لرقابة مجلس النواب). وفي الشق الأخير من هذه النصوص التي وضع تحتها خط، فإنها تمثل أهم سند دستوري لتغليب الاتفاقيات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان على أي قانون وطني آخر، بسبب إلزامها جهاز المخابرات الوطني والأجهزة الأمنية

بالعمل على وفق مبادئ حقوق الإنسان، وهذه المبادئ هي ذاتها التي وردت في الشرعة الدولية لحقوق الإنسان، وأرى بان السبب في وضع ذلك النص هو ردة الفعل تجاه الظلم الذي لحق بالإنسان العراقي في ظل الحكم الشمولي الديكتاتوري، وفيه إلزام دستوري تجاه الأجهزة الأمنية بان تطبق هذه المبادئ. والنص الدستوري اختص بالأجهزة الأمنية والمخابراتية لأنها هي وسائل أنظمة الحكم الشمولية والديكتاتورية في التنكيل وتعطيل الحقوق وتكميم الأفواه، فهذه الجزئية المتعلقة بحقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية لها الاعلوية والسمو على أي قانون وطني آخر، وبذلك أرى أن أي معاهدة أو عهد ودولي أو ميثاق يتعلق بحقوق الإنسان، يكون ملزما للأجهزة الأمنية والمخابراتية، حتى وان لم يصادق أو يوقع عليه العراق، لكن من الضروري الاستمرار بالضغط الجماهيري نحو تفعيل تلك النصوص، كما لا بد من العمل على تثقيف القائمين على السلطات في العراق بمبادئ حقوق الإنسان، ولفت عنايتهم إلى النصوص الدستورية التي تؤكد وجوب إتباع تلك المواثيق والاتفاقيات الدولية عند التعامل مع المواطن في باب الحقوق الأساسية، ومنها الحق في الحياة والعمل والانتخاب والتصويت والتعبير عن الرأي وحرية التفكير والعقيدة وغيرها من الحقوق التي نظمتها تلك العهود.

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل لإدارة التحرير في مجلة (الثقافة الجديدة)، تلك المجلة العتيدة والغنية في محتواها، والتي كانت رفيقة دربي منذ الصبا حيث أسهمت كثيرا، تلك المواضيع التي نشرت فيها، في صياغة أفكاري وبناء عقيدتي في الحياة الثقافية والسياسية. وأتمنى للقائمين عليها التوفيق والنجاح وللأستاذ المحاور دوام التألق.

نصوص مترجمة

المرآة السوداء.. لماذا المقاومة تسبق السلطة؟

بقلم: أنطونيو نيغري ومايكل هاردت
ترجمة: رشيد غويلب

أنطونيو «طوني» نيغري
أنطونيو نيغري، من مواليد 1933، باحث ماركسي واستاذ علوم سياسية إيطالي، وشخصية سياسية. اتهم بأنه العقل المفكر لمنظمة "الألوية الحمراء" اليسارية المتطرفة. له العديد من الكتب والبحوث.

مايكل هاردت
مايكل هاردت، ناقد أدبي وصحفي وبروفيسور وفيلسوف وكاتب أمريكي، ولد في 1960 في بيثيسدا في الولايات المتحدة الأمريكية.

الحركات الاجتماعية ليست تقدمية تلقائيا. لقد كانت الحركات السياسية اليمينية، من النازيين إلى المتعصبين الدينيين، وراء العديد من التطورات السياسية الاكثر تدميراً وفظاعة في القرن العشرين. وكذلك في الوقت الراهن، فقد بدأت حركات اليمين السياسي في الصعود مرة أخرى، بالتنسيق مع الحكومات اليمينية.

إن تفكير وعمل الحركات السياسية اليمينية في العادة ليس محافظًا، بل رجعي: فهم لا يسعون إلى الحفاظ على

ما هو قائم فعلا أو حمايته، بل يريدون استعادة نظام سابق، او سلطة قديمة. ان أولئك الذين فقدوا النفوذ المجتمعي والهيبة في الماضي القريب - مثل البيض في الولايات المتحدة، والمنتمين من البيض للطبقة العاملة في أوروبا أو الأوليغارشية في أمريكا اللاتينية، هم الذين يشكلون نواة التعبئة الجماهيرية اليمينية. وغالبا ما يصبح "العرق" أو الدين أو الهوية القومية عناصر مهمة خالقة للوحدة. ومع ذلك، وفي كثير من الأحيان، يكون ما يجب استعادته ليس حتى نظاما قديما قد اختفى، بل اختراع لماض وهمي خيالي. (قارن الطبيعة الرجعية للتفكير اليميني Robin، 2011) - أستاذ علوم سياسية وصحفي امريكي - المترجم.

والحركات اليمينية رجعية من ناحية أخرى أيضا، من خلال تفاعلها مع السياسة اليسارية. والرجعي بهذا المعنى لا يهدف فقط إلى إحباط مناهج التحرر المجتمعي، بل يبدو أيضا في محاولات تبني أشكال الاحتجاج والخطاب وحتى أهداف معينة، مهما كانت انتقائية ومشوهة. وتحوي الحركات السياسية اليمينية لحظات من أسلوب القيادة، والهياكل التنظيمية، وكذلك الذخيرة الاحتجاجية للحركات التقدمية في العقود الماضية. ويشير المثال إلى فرضيتنا العامة بأن المقاومة تسبق السلطة دائما. فالحركات الثورية والنضالات التحريرية هي مصدر الابتكار السياسي، وبالمقابل فإن الحركات السياسية اليمينية قادرة على محاكاة بعض هذه الابتكارات فقط، وغالبا ما يكون ذلك كافياً ومصحوبا بعواقب وخيمة.

استعادة "وحدة الشعب"

على مدار القرن العشرين، ميّزت الحركات السياسية اليمينية سمتان رئيسيتان هما: السلطة والهوية، من ناحية المبالغة المفرطة في القيادة ومن ناحية أخرى فكرة الاضطرار إلى الدفاع عن "وحدة الشعب" أو استعادتها. وفي حين أن الحماس لمبدأ السلطة قد تضاءل قليلاً أو تغير في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، فإن الشعور بأن "الشعب" مهدد من جميع الجوانب ويجب الدفاع عنه لا يزال يشكل النواة الساخنة للحركات اليمينية. فقراءة كارل شميت (رجل قانون وفكر الماني متعدد الاهتمامات، ناصر النازية، وعرف بعدائه للحياة البرلمانية - المترجم) لدستور الحركة الاشتراكية القومية (النازية) هي بلا شك حالة متطرفة، لكن عرضه الواضح يوفر، في الوقت نفسه، معيارا لمراقبة الحركات اليمينية الحالية[1]. في كتابه "الدولة والحركة والشعب"، يحتفل شميت "بالدستور المؤقت [...] للدولة الاشتراكية القومية" الذي دخل حيز التنفيذ في عام 1933، والذي أعطى فيه، وبشكل غير مفاجئ، أولوية قصوى لمبدأ القيادة [2] (Schmitt, 1933:5). "ان قوة دولة الاشتراكية القومية تكمن في هيمنة وضغط فكرة القيادة عليها من

الأعلى الى الأسفل، وفي كل ذرة من وجودها" (Schmitt, op, cit, p.33).

إن القيادة في الحركات السياسية اليمينية اليوم، تحمل القليل من التشابه مع تلك التي يفترضها شميت. حتى القادة المعروفين لأحزاب اليمين المتطرف الذين يخوضون الانتخابات في أوروبا، سواء مارين لوبان من الجبهة القومية في فرنسا، أو نايغل فاراج من حزب استقلال المملكة المتحدة (الآن زعيم حزب بريكست – المترجم)، أو جيمي اوكسون زعيم حزب (ديمقراطيو السويد)، أو نيكولاوس ميكالولياكوس زعيم حزب (الفجر الذهبي اليوناني)، هم في وظيفتهم، أقرب إلى المبادئ الديمقراطية الليبرالية التي يمقتها شميت، منهم إلى سلطة غير مقيدة. وحتى دونالد ترامب، وبغض النظر عن مزاجه وميوله الاستبدادية، لديه القليل من نمط القيادة التي أعجب بها شميت. وفي حزب "حفل الشاي"، يتجلى الافتقار إلى القادة الكاريزما بشكل أكثر وضوحا. يُعتبر بعض المرشحين لدور قيادي في "حفل الشاي" مثل سارة بالين، ومشاهير الإعلام مثل غلين بيك أو الممولين المعروفين مثل الأخوين تشارلز وديفيد كوخ، لكن هؤلاء الأشخاص ليسوا مهمين كسلطة مقارنة بسلطة الحركة ذاتها. وفي الميليشيات مثل "داعش" أو القاعدة في العراق، تكون السلطات - مثل أبو بكر البغدادي، الذي يصف نفسه بالخليفة - أكثر بروزا. وتؤكد الجماعات الاستبدادية ذات الكاريزمية الدينية وجودها في العديد من الحركات اليمينية السياسية والدينية. ان هياكل القيادة التي تعتمد على المساجد والمعابد والكنائس كأماكن يمكن من خلالها إيصال رسالتهم السياسية. لكن في الواقع، مثل هؤلاء القادة هم أيضا ذوو أهمية ثانوية ويمكن استبدالهم في النهاية.

وعلى عكس القيادة، تستمر الهوية في لعب دور مركزي. وهي السمة الأكثر ديمومة للحركات السياسية اليمينية، وهو ما يعبّر عنه كارل شميت بواجب حفظ أو استعادة هوية الشعب، وهي هوية مهددة باستمرار من قبل قوى خارجية[3]. يكمن منطق الحركات اليمينية في صراع الثقافات؛ حيث يعرّفون الثقافة أولا على اساس الدين أو "العرق" (أو كليهما). وبناءً عليه، فإن أرقى مهمة سياسية هي الدفاع عن النوع ضد "الغرباء". يعطي شميت سمات يهودية نمطية "غريبة"، لكنها لا تتطلب قدرا كبيرا من الخيال لنقل الصورة البغيضة، فهم النيجيريون في جنوب إفريقيا، والمسلمون في أوروبا أو الهند، وفي الولايات المتحدة الأمريكية الملونون، والبوليفيون في الأرجنتين. وفي السعودية الشيعة، أو عدم الاعتراف في أي مكان آخر في العالم بـ"غير المواطنين". النقطة الحاسمة هنا هي أن "وحدة الشعب" تُعتبر دائما سمة ماضي (حقيقي أو متصور، أحيانًا مفهوما بدائيا) ونظامه الاجتماعي، الذي تشعر الحركات السياسية اليمينة بانها مدعوة للدفاع عنه، او الحفاظ عليه، او إنقاذه من "الغرباء".

لذلك فإن هذه الحركات شعبوية بالمعنى الضيق، لأن سياساتها تركز على هوية الشعب وإقصاء الآخرين.

لقد صنفنا ''حفلة الشاي'' على أنها حركة تميل إلى أن تكون ''بدون قيادة''. ولكن بناءً على رد فعلهم تجاه الرئيس باراك أوباما، ظهر جانب استثنائي آخر من حجة شميت: القادة الشرعيون هم فقط أولئك الذين ينتمون إلى ''الشعب''، وبالتالي يمكنهم الدفاع عن هويتهم وسيادتهم. وفقا لكريستوفر باركر ومات باريتو (Parker, Christopher/ Barreto, Matt, 2013:6) (أساتذة علوم سياسية في الجامعات الأمريكية - المترجم)، يجب أن يُنظر إلى مؤيدي حفل الشاي على أنهم ''تقليديون'' أكثر من اعتبارهم ''محافظين رجعيين'' لأنهم يسعون إلى تجاوز الليبرتارية الاقتصادية و''إعادة عقارب الساعة إلى الوراء'' لاستعادة الهوية الوطنية الخيالية - البيضاء والبروتستانتية والعلاقات الجنسية التقليدية. وبناءً على ذلك، يشيطن أتباع ''حفل الشاي'' كل من يمثل في نظرهم تهديدا لـ ''وحدة الشعب'' - ويشمل ذلك الفقراء والمهاجرين ومتلقي الرعاية الاجتماعية والمسلمين. ولقد رأوا في الرئيس الأمريكي أوباما ممثلهم (وحتى تجسيدا لهم). وحتى لو لم تقدم الحركات السياسية اليمينية اليوم عنصريها بشكل علني، يكفي رفع الغطاء قليلاً ليظهر شاغلها الأساسي: الدفاع عن شعب وهمي وهويته العرقية أو القومية أو الدينية ضد ''الغرباء''.

الشعبوية والملكية العنصرية

غالبا تجعل الحركات الشعبوية اليمينية، خاصة الموجودة منها في البلدان المهيمنة في شمال العالم التحليل في وضع محيّر، لأنها تعمل بشكل متناقض. في الصراع السياسي، تتبنى خطابا مضادا للنخب، بينما تتمسك في الوقت نفسه بالهرمية المجتمعية. ويكمن طريق حل هذا الالتباس في تتبع فكرة الملكية لأنها أساسية بالنسبة لليمين الشعبوي. وهي فكرة تتخللها تماما أفكار ''الهوية العرقية''. وفي الواقع، لا تقوم الشعبوية على حب الهوية فقط (وهو شكل رهيب ومدمر من الحب السياسي، كما نعتقد)، ولكن وراء الهوية تتربص الملكية. والسيادة والملكية العرقية، علامتان فارقتان موجودتان في جسد الشعبوية اليمينية.

وكما ذكرنا سابقا، تعتبر الحركات السياسية اليمينية رجعية بمعنى مزدوج، من حيث سعيها لاستعادة النظام الاجتماعي الذي ينتمي إلى الماضي. وأنها (في الغالب بشكل مشوه) تعود الى خزين الاحتجاج، والمفردات، وأحيانا الأهداف الواضحة، لحركات المقاومة اليسارية وحركات التحرير. يصف كوري روبن في كتابه ''اليمين الشعبوي'' (Robin, 2011:55) الاستراتيجية: ''يجعل مهمته مناشدة الجماهير دون التشكيك فعليا في سلطة النخب، يوظف طاقة الجماهير لتعزيز او لاستعادة سلطة النخب''. وبالمناسبة

هذا ليس اختراعا جديدا لليمين الأصولي المسيحي أو حركة حزب الشاي، بل أكثر من هذا، ومنذ البداية الشعبوية الرجعية هي الخيط المشترك من خلال الخطابات المحافظة منذ البداية، تمر الشعبوية كخيط مشترك خلال الخطابات المحافظة.

من ناحية ان الإهمال والاختزال المزعوم من قبل النخب البرجوازية، هو دافع للحركات اليمينية الشعبوية. وفي الواقع من السهل العثور على ادلة لتجاهل وتوظيف النخب لمصالح الفقراء والطبقات العاملة. لا نريد أن ننكر جدية وبصيرة العديد من الاحتجاجات اليمينية ضد النخب في القطاع المالي، ضد المؤسسات العالمية والحكومات القومية. (في الواقع، يجب أن تستعيد الحركات اليسارية الذكية بعض العناصر الشعبوية). غالبا ما يعبر الانعطاف الشعبوي ضد النخب عن غضب ضد سلطة الملكية، والتي تعرف على انها ملكية متنقلة وبلا هوية ولا جسد. النقد الشعبوي موجه ضد سلطة النقود، والسوق العالمية والبنوك المركزية الوطنية، التي تتهم بالفشل في دور "المراقبة النقدية". ومن ناحية أخرى، تؤكد الحركات الشعبوية في كل الأحوال، مساعيها لتأمين ملكية الشعب، التي عادة ما تكون عرقية أو دينية أو ثقافية، وبالتحديد كعقارات وممتلكات مادية أخرى، وفي نهاية المطاف بجميع أشكالها المرتبطة بالهوية. وبناءً على ذلك، فإن الأرض هي موضوع متكرر، وكذلك الاستقرار النقدي (يقاس، مثلا بسعر الذهب).

يتم ربط الهوية والملكية ببعضهما البعض، بشكل أساسي بطريقتين:

أولاً: ينبغي أن تمنح الهوية حقًا متميزًا في الملكية والوصول إليها. أحد الادعاءات الأساسية للحركات الشعبوية هو استعادة السلطة المزعومة والمفقودة (مهما كانت صغيرة)، والهيبة الاجتماعية الضائعة. يستند هذا الادعاء إلى الإشارة الصريحة أو الضمنية إلى الهوية العرقية، سواء في الحركات الفاشية العلنية مثل "الفجر الذهبي" في اليونان أو "كاسا باوند" في إيطاليا، والتي تهاجم المهاجرين بشكل مباشر ووحشي، وكذلك عند نظرائهم الأكثر "احتراما" مثل "الجبهة القومية" في فرنسا أو "ديمقراطيو السويد"، الخطاب العنصري المناهض للمهاجرين، مصحوبا بالوعد باستعادة الوضع الاجتماعي المفترض المفقود لأتباعهم، ولا سيما أولوية الطبقة العاملة البيضاء المستندة على "العرق"، و"أجور البيض"، استعارةً لصياغات وليام إدوارد بورغاردت دو بويز(Du Bois, W. E. B., 1953)، (عالم اجتماع وناشط سياسي أميركي من أصول افريقية – المترجم)، وديفيد روديغر(Roediger, 1991)، (أستاذ معروف للدراسات الأمريكية والتاريخ بجامعة كانساس - المترجم).

ثانيا: الهوية نفسها هي شكل من أشكال الملكية، حيث يرتبط الاقتصاد والثقافة و"العرق" ارتباطًا يستحيل فكه. وباستخدام لغة نظرية الملكية، الهوية تعني حيازة ما هو حصري للفرد. ولا ينبغي أن ننزعج

من حقيقة أن الهوية هي في الجوهر غير مادية، خاصة وأن الملكية موجودة في الشكل المادي وغير المادي. يضمن النظام القانوني "لأصحاب البشرة البيضاء"، كما تؤكد شيريل هاريس (Harris، Cheryl، 1993، 1758) (شيريل آي هاريس هي ناقدة لنظرية العرق وأستاذة الحقوق والحريات المدنية بجامعة كاليفورنيا – المترجم)، الامتيازات والمزايا مثل مالكي الأنواع الأخرى. "كان استبعاد المرؤوسين" الآخرين "ولا يزال جانبًا أساسيًا من شرعنة (إضفاء الطابع القانوني) بياض البشرة كملكية وهي في الواقع جزء من الحماية التي تمنحها المحكمة [العليا] للبيض وتوقعهم المبرر بمعاملة تفضيلية مستمرة". البياض ملكية تسمح باستبعاد الآخرين وتعد بسيادتك. والواقع أن الملكية والسيادة متشابكتان بشكل وثيق، لا سيما في وظيفة الحيازة والإقصاء. يوفر هذا المفهوم للملكية العرقية إطارا مفيدا لفهم ما يدفع قطاعات من الفقراء البيض والطبقة العاملة البيضاء لدعم المجموعات السياسية اليمينية المتطرفة حتى عندما تتعارض مع مصالحهم الاقتصادية. إن الحاجة المتصورة للدفاع عن الهوية والامتيازات - واستعادة الملكية العنصرية المفترضة المفقودة - تدفع أحيانًا جميع الأهداف الأخرى إلى الخلف. وهكذا ترتبط الهوية والملكية في الشعبوية اليمينية بطريقتين: الدفاع عن الهوية والامتيازات - والهوية العنصرية المفترضة بمثابة امتياز ووسيلة للوصول إلى الملكية، وفي الوقت نفسه، فإن الهوية نفسها هي شكل من أشكال الملكية التي تعد بالحفاظ على أو استعادة التسلسلات الهرمية للنظام الاجتماعي[4].

عنف الهويات الدينية

نقطة بداية لفهم العديد من الحركات الدينية الحالية، تتمثل في طرح سؤال حول كيفية ارتباط الدفاع عن الهوية الدينية بالاستياء من القوى الأجنبية. من الضروري من ناحية فهم الأسباب الحقيقية للغضب بالإضافة إلى التهيئة الرجعية في تعبئة مثل هذه الحركات، ومن ناحية أخرى التفكير بعيدا، عن ذلك، في الطابع المدمر للهويات الدينية.

بالطبع، ليست كل الحركات الدينية رجعية، وتاريخياً هناك مجموعة واسعة من التوجهات السياسية المختلفة. في حقبة الحملات الصليبية للكنيسة الرومانية ضد الإسلام، لم يقتصر الأمر على عسكرة المعتقد، بل تطورت أيضًا ممارسة سلمية وخيرية مهمة. للجماعات، مثل الرهبنة الفرنسيسكانية. يمكن رؤية شيء مشابه في تاريخ الإسلام. وفي اليهودية أيضا، ظهرت ممارسات نبوية ومسيحية (نسبة الى سلوك عيسى المسيح - المترجم)، وثورية جنبا إلى جنب مع حركات سياسية سلفية، لإعادة بناء معبد الشعب المختار. ويمكن العثور أيضا على كل هذا في أوقات لاحقة، على سبيل المثال في مرحلة التراكم الأولي لرأس المال، عندما أصبحت الحركات الدينية عاملاً مهما في تطور الرأسمالية، بينما كانت هناك

في نفس الوقت قوى أساسية للمقاومة ضد رأس المال. إن السمتين الرئيسيتين للحركات الدينية اليمينية اليوم، هما محاولة بناء هوية، والدفاع عن نقائها، فضلاً عن المرارة من انتشار الظلم الذي تلقى مسؤوليته سياسيا على قوى خارج المجتمع المعين. التوجه نحو هوية نقية وثابتة هو السبب في أن الحركات الدينية تميل غالبا إلى عمليات إغلاق العقيدة، لتعبر عن نفسها بواسطتها لاهوتياً وسياسياً، ولماذا تكون هذه الحركات في الوقت نفسه منفتحة ومتوافقة مع الحركات اليمينية الأخرى التي تؤسس الهوية ثقافيا أو عرقيا.

تقدم التطورات العسكرية في سوريا والعراق في عامي 2014 و2015، والتي كانت فصائل داعش والقاعدة مسؤولة عنها، تقدم مثالا متطرفا على مزيج متفجر من المقاومة والهيمنة باسم الدين. تتداخل الطائفية الدينية هنا مع الاستياء الشعبي من الحقائق، بما في ذلك التقسيم الإقليمي للشرق الأوسط في القرن العشرين، كما حددته القوى الاستعمارية من جانب واحد (وبتأثيرات طويلة المدى)، فضلاً عن التدخلات الأجنبية في بداية القرن الحادي والعشرين، وخاصة الحرب التي تقودها الولايات المتحدة على الإرهاب، بما في ذلك غزو واحتلال أفغانستان والعراق. هذا المزيج من التطرف الديني والمشاعر المناهضة للاستعمار، يجعل التصنيف السياسي لهذه القوى على مقياس اليسار واليمين بلا معنى - ومع ذلك هم أنفسهم يعارضون بقوة التيارات الاشتراكية أو العلمانية المؤثرة، مثل الناصرية، التي تشكلت في المنطقة في النصف الثاني من خمسينيات القرن العشرين.

من اللحظات المذهلة للعديد من الحركات الدينية الرجعية اليوم، وخاصة الاسلاموية، المبالغة في الاستشهاد باعتباره الشكل المتطرف الذي تجتمع فيه المرارة والهوية والتعصب. وتجدر الإشارة إلى وجود نموذجين لتقاليد استشهادية مختلفة في الأصل، وكلاهما موجود في جميع الأديان الرئيسية. في إحداها، يصمم الشهداء على الدفاع عن إيمانهم والدفاع عن العدالة، حتى الموت. رئيس الأساقفة أوسكار روميرو، على سبيل المثال، الذي قُتل على يد فرق الموت اليمينية خلال قداس في سان سلفادور، تلقى تهديدات بالقتل وعرف أن دفاعه السياسي العام للفقراء يعرض حياته للخطر. وفي التقليد الثاني للاستشهاد السائد اليوم، يهاجم "الشهداء" أعداءهم ويدمرونهم وأنفسهم. وفي مثل هذا الشكل المتطرف من الإرهاب، لم يعد الاستشهاد شهادة إيمان، بل طريقة دينية للتعبير عن الهوية السياسية. وهكذا ترتبط الحركات الدينية ومشاريع سياسية قاتلة: المقدسون يصبحون أولئك الذين يكرهون ويدمرون.

وأخيرا: إذا كانت الحركات اليمينية غالبًا ما تستند إلى حركات التحرر في هياكلها وأنماط عملها، فيمكن تعلم الدروس منها. وارتباطا بالصورة في هذه المرآة السوداء، يجب على حركات

التحرر أن تفهم، أولاً، أنها يجب أن تنتهج سياسة مضادة ومناقضة. ويجب ألا تقع الحركات التحررية بأي حال من الأحوال في دور دعم القوى الحاكمة أو الهرمية الاجتماعية التقليدية. ومهمتها هي أن تكون فاعلاً مستقلاً يعرقل النظام السائد، ويسعى لخوض الصراعات. ثانيًا، يجب أن تكون الحركات ديمقراطية، وأن تحافظ على موقف نقدي تجاه هياكل الحكم المركزية دون مقاومة الحاجة إلى منظمات ومؤسسات. ثالثًا، يجب أن تكون حركات وليس هوية. الهويات القائمة على "العرق" أو القومية أو الدين أو الجنس أو أي جانب آخر من جوانب المجتمع تنهي تعددية الحركات. وأكثر من هذا، يجب أن تكون هذه الحركات متنوعة أيضًا قدر الإمكان في تركيبها الداخلي، أي تعددية. ان حركات التحرير التي تغمض العين عن هذه الدروس تخاطر (عاجلاً أم آجلاً) بالانحراف إلى اليمين[5].

الهوامش:

(1) استنادًا إلى عمل شميت، يصوغ غورغيو أغامبين (Agamben, 2005) نقدًا لمفهوم الحركة في السياسة، لكن في رأينا يتجاهل الخصائص الأساسية التي تميز الحركات التقدمية والنضالات من أجل التحرر من الحركات اليمينية.

(2) في العرض الذي قدمه شميت، تأخذ "فكرة القائد" الفاشي سمات مختلفة للقيادة، يمكن العثور عليها أيضا في الحركات الثورية أو التحرر، ولكنها تقضي على التوتر المتأصل المذكور مؤخرًا بين التسلسل الهرمي والديمقراطية. لذلك لا ينبغي أن يكون مفاجئا أن شميت كان معجبا بالقيادة السياسية للينين والبلاشفة بقدر إعجاب ماو تسي تونغ لاحقًا (راجع: Schmitt 1963, 58 ff .

(3) بالنسبة الى شميت، الحركة السياسية هي العنصر الحاسم في أي مشروع سياسي لخلق وحدة الدولة (تُفهم على أنها سياسية، لكنها في نفس الوقت ساكنة، بقدر ما، لا يمكن أن تشمل الناس وتؤشر احتياجاتهم) والشعب (يُفهم على أنه ديناميكي، لكنه غير سياسي في الأساس، بقدر ما، هي غير قادرة على التعبير عن احتياجاته، ولا على تطوير نظام اجتماعي يفضي إليها، ولا اتخاذ قرارات على الإطلاق، تخترق "الحركة الدولة والشعب على حد سواء، وتخلق روابط وصلات بينهما". كتب Schmitt (1933، 12) أن "الحركة" هي دولة وشعب في الوقت نفسه، وليست الدولة الحالية (بمعنى الوحدة السياسية) ولا الشعب الألماني الحالي (كموضوع الوحدة السياسية "الرايخ الألماني")، ولا يمكن حتى تخيلهما بدون الحركة. وعليه فالحركات اليمينية لا تستطيع ان تكون في وضع يؤهلها للقيام بدور الوسيط، الا إذا تحققت وحدة الشعب على أساس الهوية القومية أو الدينية أو العرقية. وبالتالي يجب أن يكون الشعب موضوعا وهدفا للحركات اليمينية.

(4) علاوة على ذلك، فإن الملكية ليست عنصرية فقط، بل هي جنسانية أيضا، كما أظهرت الدراسات النسوية منذ فترة طويلة. تتداخل أيديولوجيات العائلة مع الخطاب اليميني الديني؛ بشأن الحق في الانجاب والاجهاض، وحقوق المثليين والمتحولين، على سبيل المثال لا الحصر، في النظام القانوني المعقد للدفاع عن الملكية والميراث أو مطالبات الهوية العامة.

(5) في مسارات الشعبوية التقدمية من اليسار إلى اليمين، انظر زئيف ستيرنهيل Sternhell, 2010, 2012.

المصادر:

• Agamben, Giorgio, 2005: Movement, unveröffentlichter Vortrag (übers. von Arianna Bove), www.generation-online.org/p/fpagamben3.htm

• Du Bois, W. E. B., 1935: Black Reconstruction in America 1860–1880, Oxford u.a.

• Harris, Cheryl, 1993: Whiteness as Property, in: Harvard Law Review, 106.8 (Juni 1993), 1707–1791

• Parker, Christopher/Barreto, Matt, 2013: Change They Can't Believe In. The Tea Party and Reactionary Politics in America, Princeton, NJ

• Robin, Corey, 2011: The Reactionary Mind. Conservatism from Edmund Burke to Sarah Palin, Oxford u. a.

• Roediger, David, 1991: The Wages of Whiteness. Race and the Making of the American Working Class, London

• Schmitt, Carl, 1933: Staat, Bewegung, Volk, Hamburg

• Ders., 1963: Theorie des Partisanen. Zwischenbemerkung zum Begriff des Politischen, Berlin

• Sternhell, Zeev, 2010: Les anti-Lumières. Une tradition du XVIIIe siècle à la guerre froide, Paris

• Ders., 2012: Ni droite ni gauche. L'idéologie fasciste en France, Paris

النص المترجم هو مقتطفات من الفصل الرابع من الكتاب المشترك للكاتبين أنطونيو نيغري ومايكل هاردت الصادر في ١٢ نيسان ٢٠١٨ عن دار نشر كامبس في مدينة فراكفورت/ ماين المانيا ونيويورك الأمريكية. والمنشور في عدد كانون الثاني ٢٠١٨ من مجلة روزا لوكسمبورغ الشهرية الصادرة عن مؤسسة روزا لوكسمبورغ الألمانية.

أدب
و
فن

الثقافة الجديدة.. ثقافة تتجدد

حسب الله يحيى

(67) عاما صار عمر مجلتنا (الثقافة الجديدة). وهذا الكم المتراكم من الزمن، لا يعني أنها قد شاخت، وأنّ صبر حروفها قد جف، وصفحتها قد شحبت، ومواقفها قد تغيرت، ومسيرتها قد تعثرت ..

أبداً.. هذا الزمن، جعلها اكثر رسوخا في ذاكرة قرّائها وكتّابها ومريديها، مثل نخلة باسقة تضرب جذورها عميقاً في الارض، وصارت ثمارها أحلى، وأغصانها ابهى واجمل .

نعم.. (الثقافة الجديدة) مجلة تجدد ثوبها لتواكب الزمن بوصفها منبراً يتعامل ويجسد ويرعى الجمال وفلسفته وتأثيره في حياة الناس، مثلما تعمل على ترسيخ الفكر العلمي التقدمي المتجدد في ذاكرة الشعوب جميعا.

العاملون في مجلة (الثقافة الجديدة) يؤمنون ايماناً مطلقاً بأن قدرة الانسان.. قدرة لا تتوقف، لا تنتهي، ولا تعرف السكينة أبداً.

صحيح ان هذه القدرة التي تنطلق من ذهنيّة صاحية، قد تواجه صعوبات شتى على مستوى المواجهة مع القوى الظلامية والمتطرفة والرجعية والدوغمائية العمياء، التي لا يهمها من امر سوى تحقيق مصالحها الانانية والنفعية على حساب الموطن والمواطنة.. الا ان التقدم، عجلة تسير، وليس بوسع احد إيقافها عن المسار الذي اختطته من اجل حياة افضل للبشرية.

من هنا نجد أنفسنا ـ نحن ملاك المجلة ـ الى جانب كتابها وقرائها، نعمل سوية على ان نجدد المسيرة التي خططنا لها منذ العدد الاول .. وحتى عددنا الصادر هذا، وما يليه من أعداد، على ان نرسخ خطط عملنا في مواجهة الزمن الراهن، الذي يمتحن فينا الاصرار والعزيمة على التواصل مع الفكر النير الذي آمنا به، واعتمدناه في خطابنا الفكري والثقافي والابداعي.. ليكون الفنار الذي نهتدي به، ونمضي على وفقه من اجل تحقيق ما نصبو اليه في الوصول الى حياة حرة آمنة كريمة لشعبنا، والتعبير عن هذا التوجه المسؤول، وذلك بتقديم زاد معرفي متجدد دائماً من دون ان يتخلى ويتراجع عن مبادئه وقيمه ومواقفه..

وفي (أدب وفن) تحديداً، سوف نكرس صفحاتنا لمزيد من الانفتاح على العالم، وذلك بنشر احدث ما اختطته ذهنية الابداع والابتكار، مثلما نعنى بالكفاءات الثقافية الوطنية، سواء كانت في داخل العراق ام خارجه، وذلك إدراكا منا أن حصة الثقافة في حياة العراق والعراقيين لم تأخذ القسط الاساسي الذي تستحقه، مثلما ظل عدد كبير من مثقفينا ومفكرينا ومبدعينا وكفاءاتنا الاكاديمية التي اختارت النفي، لتكون بمنأى عن العداء المعتم والشرس الذي مارسته السلطات المتعاقبة ضد العقول المضيئة.. وبتنا في مسؤولية الوفاء لها والاهتمام بوجودها بيننا..

(ادب وفن) كذلك تسعى لفتح آفاق جديدة للفلسفة والتربية وعلم النفس والاجتماع.. وكل ما من شأنه الاسهام الفاعل في وعي الانسان..

الامل مرهون بكتابنا وقرائنا الذين يشكل حضورهم.. الازدهار والتقدم في مسيرتنا الثقافية المتجددة.

المتن الشعري السيابي ولغة الخطاب النقدي

باقر جاسم محمد *

ما زال البحث في تطور اللغة النقدية وتحولاتها دون المستوى المطلوب لأن الباحثين في تاريخ النقد العربي الحديث قد درجوا على البحث في المؤثرات التي تسهم في صوغ ملامح هذا النقد من حيث كونها محلية وأصيلة نابعة من التراث أم من حيث كونها مستوردة ومنقولة من حضارة نتيجة لتأثير الآخر، الغربي تحديداً، في ثقافتنا الراهنة من دون النظر في لغة هذا الخطاب وما مرَّتْ به من تحولات وما اكتنفها من ظواهر لسانية دالة على مثل هذه التحولات/ ولم يجرِ البحث في علاقة هذه الظواهر بحركية الإبداع من جهة، وبتطور المعرفة النقدية من جهة أخرى. ولعل السبب في ذلك هو أنهم كانوا ينظرون إلى اللغة على أنها وعاء للفكر فحسب؛ وهو وعاء لا يعكس طبيعة ما يحتويه وصيرورته. وقد تكون لمثل هذا النزوع في الدرس والتحليل مسوغاته العلمية. بيد أننا نلاحظ أن لغة الخطاب النقدي العربي لم تحظ باهتمام كافٍ على الرغم من أن الصيغ الخطابية لكلام النقاد من أبرز التجليات التي تسهم في الكشف عن طبيعة الاتجاهات الفكرية والثقافية التي تصوغ تصورات هؤلاء النقاد وتحدد بوصلة عملهم النقدي ودرجة تأثرهم بالنظريات الأدبية سواء أكانت عربية أصيلة أم أجنبية مستوردة. فاللغة النقدية لغة وصف وتحليل للنصوص، ومن ثم بناء الأفكار وصوغ الاستنتاجات بخصوصها؛ بمعنى أنها لغة موضوعية في جوهرها لأنها لغة معرفة وعقل، تتناول بالدرس والتحليل لغة النص الأدبي التي هي لغة ذاتية وتعبر عن المشاعر والرؤى التي خبرتها ذات المبدع، أعني أنها ميتا لغة. ولا بد لهذه اللغة أن تشهد تطوراً وتحولات في معجمها ومصطلحاتها وبنيانها التركيبي وتصوراتها الثقافية والفكرية حين يشهد النص الأدبي نفسه تطوراً وتحولات جوهرية في طريقة تقديمه للتجربة البشرية. ونلاحظ هنا أن لغة الخطاب النقدي العربي قد شهدت شيئاً من الإحساس بأزمة هذا الخطاب إذا ما اقتصر على تكرار لغة الخطاب النقدي الموروث، وكان ذلك في الربع الثاني من القرن العشرين. لكن هذا الإحساس لم يرتق إلى فعل التغيير في لغة الخطاب النقدي

المكتوب حينذاك لأن الأدب نفسه لم يتحرر بعد من هيمنة شعر الشطرين التقليدي، ولم يشهد توسيع الرؤية النقدية لتشمل القصة والرواية والمسرحية. ومما لا شك فيه أن تطور النتاج الأدبي، سواء في الثقافة العربية أم في غيرها من الثقافات، واندفاعه نحو تجريب أشكال ورؤى أدبية جديدة هو ما قد يدفع إلى التأثر بالنظريات النقدية الأجنبية، لما ينطوي عليه من تحولات في الرؤيا والشكل والطريقة اللسانية المعتمدة في طرح التجربة الذاتية، فيجد النقاد أنفسهم في حاجة ماسة إلى تطوير لغتهم النقدية حتى يتمكنوا من صوغ تصوراتهم النقدية على نحو يتناسب مع حاجات النص الأدبي نفسه من جهة، وحاجات المعرفة الأدبية والنقدية من جهة أخرى. إذن، حتى يكون النتاج الأدبي هو ما يدفع إلى تحريك حالة التفاعل مع النظريات الأدبية الأجنبية ومن ثم تطوير لغة النقد، فإن ذلك لا يحدث إلا حين يمر الأدب بمرحلة انتقالية جوهرية مهمة، فلا تعود النظريات المتيسرة في الثقافة النقدية التقليدية المحلية كافية لرصد التحولات العميقة في الأشكال الأدبية الجديدة التي هي بالضرورة نتاج تحولات مماثلة في الذائقة الأدبية لدى المبدعين، وهي ستؤدي إلى إحداث تحول في ذائقة الجمهور وآليات تلقيه للنص الأدبي الجديد. ومن هذه اللحظات التاريخية الفريدة التي امتلك النتاج الأدبي زمام المبادرة، فكان هو الدافع الأساسي لسعي الخطاب النقدي إلى تجديد كلامه ومصطلحاته كانت لحظة التحول من النتاج الشعري التقليدي، أو ما عرف لاحقاً بشعر الشطرين، إلى الشعر الحر أو ما عرف لاحقاً بشعر التفعيلة. وينبغي التنويه إلى أن هذا الزعم لا يعني أن تلك المرحلة قد شهدت موت الشعر التقليدي وانتهاءه بل أن المقصود هو ظهور نتاج شعري جديد فيه مغايرة رؤيوية وشكلية منعكسة في صيغته اللسانية، ومن ثم تسيد هذا النتاج الأدبي للمشهد الشعري. فتكون النتيجة أن يطرح مثل هذا النتاج الشعري الجديد أسئلة، ويثير قضايا تستلزم مقاربات نقدية مختلفة في الأدوات والتصورات والصياغات الكلامية مغايرة لتلك التي كانت سائدة في نقد الشعر قبل ظهور النتاج الشعري الجديد. وباختصار، فإن هذا النتاج الشعري الجديد يتطلب نقداً جديداً ذا لغة جديدة.

إذن، يفرض النص الأدبي الجديد على النقد لا أن يجدد أدواته وتصوراته ومنطلقاته الفكرية والفلسفية فحسب، وإنما أن يطور لغته أيضاً حتى يتمكن من صوغ مدونته النقدية المغايرة؛ ومما لاشك فيه أن من شروط نجاح قيام النص الأدبي الجديد بدوره هذا أن يقترن وجوده بإنتاج نصوص شعرية جديدة تعبر عن رؤيا جديدة تقوم على قطيعة حاسمة مع الذائقة الشعرية التقليدية حتى تؤسس لذائقة جديدة في التلقي. وهنا تبرز أهمية ما أسميه باللحظة السيابية. فقد أنجز السياب متناً شعرياً مغايراً للنمط الشعري التقليدي ولشعر من عاصره حتى ليمكن القول إنَّ للمتن الشعري السيابي أثراً أعظم من أثر سواه من شعراء الخمسينيات في تحديث الخطاب النقدي العربي من

النواحي كافة. ومن السمات التي ساعدت على فاعلية هذا المتن الشعري الجديد أنه قدم للأدب العربي نصوصاً شعرية مؤسسة مثل (النهر والموت) و(أغنية في شهر آب) و(أنشودة المطر)، وهي نصوص أظهر الدرس والتحليل وبناء الاستنتاجات النقدية، باستثمار نظريات ومعارف وصيغ تعبيرية جديدة، أنها كانت تجسيداً لرؤيا مغايرة في صيغة شعرية جديدة وفاعلة. لذلك رأينا كيف كانت هذه النصوص المؤسسة مرصودة من خيرة العقول النقدية العربية التي تفاعلت معها على نحو خلاق، وكتبت عنها وفيها كتباً ودراسات ومقالات أسهمت في ذيوع التجربة الشعرية الجديدة من جهة، وفي تطوير النقد ولغته من جهة أخرى.

فاللغة النقدية تستمد عناصر قوتها ونمائها من العلاقات المعقدة التي هي حصيلة تفاعل ما تقدمه منابع التنوع الثقافي الغزيرة التي يجب أن تكون حاضرة في الخطاب النقدي، نتيجة لحضورها في النص الأدبي الجديد نفسه، وما يقترحه هذا النص من تجليات لسانية متفردة. وتتفاعل اللغة النقدية مع ما تفرضه ذائقة الذات المنشئة للنص النقدي من صيغ كلامية وأسلوبية خاصة. وينبغي توكيد أهمية السلامة النحوية التي تعدُّ رافداً أساسياً مهماً في لغة النقد الأدبي. وحتى لا نغفل أهمية التراث النقدي العربي في حديثنا عن اللغة النقدية، فسوف يكون ضرورياً الإشارة إلى أهمية معرفة الناقد بدور معاني النحو في تشكيل المستويات الدلالية المختلفة في لغة النص الأدبي من جهة، ولغة مدونته النقدية ومن جهة أخرى، وهي المعرفة التي عبر عنها عبد القاهر الجرجاني في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، ونرى أنها فاعلة في كل أنماط الخطاب.

ولو فحصنا أثر المتن الشعري السيّابي على لغة النقد الأدبي على وفق هذا التصور، لرأينا كيف ارتقت لغة النقد مدارج كبرى جديدة. فالمصطلحات المتخصصة في نقد الشعر، وهي من أهم مكونات لغة النقد، قد تغيرت ونمت واغتنت على نحو جوهري؛ فقد أضيف لها قدر غير يسير من جديد المصطلحات، ونشأت الحاجة إلى إعادة النظر في القديم من المصطلحات. فتحول مصطلح الشعر العمودي إلى شعر الشطرين حتى لا يلتبس مع مفهوم عمود الشعر من جهة، ولكي يكون متوافقاً مع مصطلح الشعر الحر الذي استبدل لاحقاً بمصطلح شعر التفعيلة. كما أعيد النظر في قيمة بعض الظواهر الشعرية القديمة، فمصطلح التسميط، على سبيل المثال، قد استبدل بمصطلح القوافي المرسلة أو القوافي المتنوعة. وهذا المصطلح الجديد يختلف عن مصطلح التسميط، لأن القوافي المرسلة لا تخضع لشرط التكرار المنتظم، كما يحدث في ظاهرة التسميط، هذا فضلاً عن أن اشتغال مصطلح التسميط يكون في بيئة اصطلاحية مستمدة من تصور تقليدي معين للشعر. واغتنت لغة النقد بمصطلحي القوافي الداخلية والإيقاع الداخلي، وهما مصطلحان يصفان ظواهر نصية اقترحها متن التجربة الشعرية الحديثة، بدءاً من السياب ونازك الملائكة، كما ظهرت مصطلحات أخرى من مثل: (التجربة

الشعرية) و(الرؤيا) و(الأسطورة) فازدادت الحمولة المعرفية في لغة النقد. ومع أن ازدهار تجربة السياب الشعرية كان لفترة قصيرة لا تتجاوز العقدين ألا قليلاً، إلا أنها أنتجت مصطلحاً مهماً آخر هو (المراحل الشعرية) في حياة الشاعر الإبداعية.

ومن المهم أن نشير إلى أن الأمر لم يقتصر على المتن الشعري السيّابي في الدفع باتجاه تخصيب وتحديث لغة الخطاب النقدي؛ فقد أسهم نتاج شعراء عراقيين وعرب بفاعلية في ذلك، نذكر منهم: نازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وفاضل العزاوي وأدونيس وصلاح عبد الصبور، ومحمد عبد المعطي حجازي، ومحمد الماغوط، وأمل دنقل وآخرين، في تحقيق هذه النقلة النوعية. وعلى أية حال، فإن مهمة النقد الجديد المواكب للظواهر الإبداعية الجديدة ليست بالمهمة الهينة؛ فقد كان على هذا النقد أن يطور من أدواته اللسانية على نحو يسهم في تكوين ذائقة تلق جديدة لدى الجمهور لتكون عاملاً إيجابياً في ذيوع الشعر الجديد من خلال إظهار مزاياه الفنية والفكرية والجمالية. ولم يكن ممكناً أن يكتب النجاح لهذه المهمة العسيرة لو لم يكن من تصدوا لها من كبار النقد الذين استطاعوا تطوير لغة نقدية تنجز وظيفة الوصف والتحليل من دون أن تغيب عنها وظيفة التوجيه. إن لغة المدونات النقدية لنقاد الحداثة تظهر تنوعاً لسانياً وأداءً كلامياً دقيقاً وناصعاً يعكس التفاعل الخلاق بين لغة النص الأدبي ولغة النقد الأدبي؛ وقد كان للمتون الشعرية الحداثية، وعلى رأسها المتن السيّابي، دور بارز في الإسهام بتشكيل ملامح هذه اللغة الاصطلاحية والفنية والفكرية والجمالية.

*** ناقد/ رئيس تحرير مجلة (الثقافة الأجنبية) - بغداد**

بصرياثا: تحرير القراءة والألوان

جابر خليفة جابر *

اختار الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق، القاص العراقي الكبير محمد خضير وسما لجميع المطبوعات التي سيصدرها للعام 2021، اعتزازاً وتثميناً لدوره الراقي والتقدمي في إرساء تقاليد إبداع إنساني حي.
وهنا نقدم شهادة لأحد مجايليه.. حياة وإبداعاً.
محرر (أدب وفن)

أولاً: مقدمة في القراءة وساعي البريد

أرى أن محمد خضير في مقدمة المؤهلين النوادر الأفذاذ الذين اختارتهم قوة مبدعة غامضة ما لينقلوا رسائلها بأمان إلى من تريد من قرّاء وعناوين، وإذا كانت الأرضية الأساسية الفيحاء للبصرة قد رسمتها نصوص (بصرياثا: صورة مدينة) فإن سماء تلك الأرضية هي نصوص الأحلام التي صاغتها القوة المبدعة عن طريق مخيلة محمد خضير في نصوص (رؤيا خريف) وهو بتجربته الفذة هنا، تقدم بمسافات في فن القصة والسرد إجمالاً..

وبإشارة ضمنية إلى عجز الحضور النقدي عن مجاراته أو مواكبة الواقع الإبداعي المتسارع كمّاً ونوعاً، قدم لنا كتاب (الحكاية الجديدة) ليتدارك ما افتقر إليه آخرون، نقاد ومؤلفون.

هنا أحاول أن أسلط إضاءة على أو أقدم قراءة لجانب من تجربة أستاذنا الكبير محمد خضير في (مشروع بصرياثا وكتبه الثلاثة) وسأمهد لقراءتي بما أراه عن دور المبدع كساعي بريد ودور القارئ كمستقبل للرسالة وباثٍ لها أيضاً..

من المتسالم عليه أن أركان العملية الإبداعية ثلاثة:

مرسل اعتدنا على توصيفه بالمبدع مع هامش كبير من التسامح في التوصيف والاصطلاح، وإلا فالمبدع هو من اجترح جديداً وكل من قلد أو استنسخ أو اتكأ على أعمال غيره ليس بمبدع!

النص أو الرسالة وهي العمل الذي أنجزه المبدع وانتسب إليه.

القارئ أو المتلقي أو المُرسل إليه.

وأرى وفقاً لتجارب شخصية ومعطيات أن أركان العملية الإبداعية أربعة وليس ثلاثة، وهي وفقا لرؤيتي:

قوة غامضة مبدعة وأرى أن هذه القوة هي المؤلف الحقيقي للنص أو العمل الإبداعي.

ساعي البريد الناقل للنص وهو ما اعتدنا على تسميته بالمبدع.

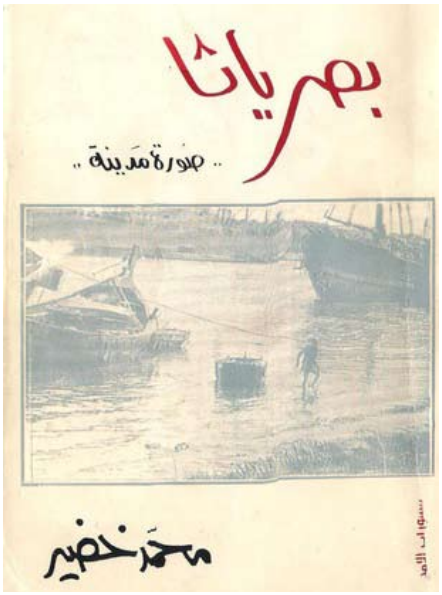

القارئ وهو مؤلف آخر ومبدع ثان إذا توفرت لديه المؤهلات العالية لفعل القراءة، وبهذا يكون مؤلفا حقيقاتيً أيضاً أو مؤلفاً مشاركاً على حد أدنى.

وخلاصة هذا إن المبدع، أي مبدع، إنما هو ساعي بريد ليس غير، يحمل رسائل من جهة ما، إلى قارئ ما مرتجى، أو مرسل إليه.

أما المرسل الفعلي، مبدع النص، فهو القوة الاجتماعية الفاعلة إبداعياً، وهذه القوة هي من تتخذ من نسميهم بالمبدعين، وتستخدمهم سُعاةً ليحملوا رسائلها إلى المتلقي، سواء كان المتلقي فرداً أم جماعة أم قراء منتظرين.

هذا القارئ المتلقي هو من سيحرر الرسائل من مظاريفها، وليس ساعي البريد طبعاً، وهو من سيفك شفرات الحروف، ومعنى هذا أن من نسميه "المبدع" أو ساعي البريد لا حقّ له بفكّ الشفرات، ولا بفضّ الرسائل ولا حتى قراءتها، هو مؤتمن عليها، ليس غير!

ومن هنا، لا مؤتمن على رسائل الإبداع/ النصوص، إلا من تعارفنا على تسميته بـ(المبدع الحقيقي)، وهو من أسميه بـ(ساعي البريد) المؤهل والأمين على ما ينقل، أما "المبدع" المزور، المُستنسِخ، وساعي البريد الفاقد للمؤهلات فلا اعتبار له أو وثوق به، ولا أمان، لماذا؟ لأنه "مبدع" في التقليد والتلصص والاستنساخ ليس غير!

لا مؤتمن على النصوص غير المبدع الحقيقي/ ساعي البريد، ولا مؤهل لفضها غير القارئ الحقيقي أيضاً!

إذن، فالقارئ الحر المحلّق في سماوات التخيّل والتأمّل والتأويل، هو وحده من سيحرر النص من مضمونه وأطره الشكلية، هو من سيقشره، ويكسره ، ويشظيه، وهو وحده من يجيد استقبال ترددات.

بالقراءة الحرة يحق للقارئ ما لا يحق

للمؤلف، وكما يحق للمرسل إليه أن يفتح مظروف الرسالة ويُحظرُ على ساعي البريد ذلك! فإن حرية القراءة تتيح للقارئ أن يكون ساعي بريد أيضاً، بمعنى أوضح، القارئ الحر هو مؤلف آخر للنص، أو على درجة أقل هو مؤلف مشارك وقارئ في آن!

ولا مجال للمؤلف أو ساعي البريد أن يكون قارئاً حراً إلا عندما يكون مُرسلاً إليه، هنا فقط يمكنه أن يقرأ، وأن يحرر النصوص من لغاتها وسطوحها، ويغوص بها إلى الأعماق، أو يتصاعد إلى الأعالي.

وهذا القارئ الحر - كالفراشة التي لا تستقي عسلها إلا من الأزهار- القارئ الحر لا يستقي الشفرات وترددتها إلا من النصوص الحية، أي تلك المرسلة فعلاً من القوة الاجتماعية المبدعة.

والقوة الاجتماعية المبدعة هي قوة غامضة بالضرورة، لا يُدرك سُرها، ولا تعرف آليات اشتغالها، القوة الصانعة للإبداع والمنتجة للنصوص، كما أوضحت في مقال بعنوان (أصوات النص القصصي) هي منطقة أحلام الجماعة البشرية.

ومنطقة الحلم المجتمعية هذه، هي من تختار سُعاة البريد، تصطفيهم من ذوي الحساسيات المرهفة والمُخيلات المتفردة المتوهجة، وهي من تحدد لهم من ترتجيه من القراء!

والنص الحقيقي هو النص الحلم، فكما أن نصوص الأحلام هي نصوص مبدعة تنتجها منطقة الأحلام عند كل إنسان، فإن نصوص الإبداع تنتجها منطقة أحلام الجماعة، وهي مجموع المخيلات الفذة لبعض أفرادها المتميزين.

ومن أهم صفات الحلم أنه جديدٌ وبِكرٌ غير مكرر أو مستنسخ!

لذا فإن أي نص تابع لنص سابق أو مستنسخ منه أو متكئ عليه، ليس بنص حي حقيقي ولا يمثل أحلام الجماعة، وبالتالي فليس هو المقصود بالنص الحلم.

وكما يعجز الإنسان عادة أو غالباً عن تقديم قراءة كاشفة أو تفسير صحيح لأحلامه، فان المؤلف/ ساعي البريد يبقى هو الآخر عاجزاً عن فك شفرات نصوصه، وإن كان هو من كتبها حرفاً حرفاً وكلمة كلمة.

القارئ وحده له القدرة على تفكيك حلم الجماعة وإعادة تأويله، وما على المؤلف/ ساعي البريد سوى توصيله إليه، كما يستعين أحدنا بمفسري الأحلام وبمختصي التحليل النفسي لفهم ما حلم به هو شخصياً، مع أنه هو من أنتج ذاك الحلم وليس أولئك المفسرون والمحللون!

وسواء كانت تلك النصوص المنتجة آداباً أو فنوناً أو علوماً أو قيادة أو ممارسات، فلكل منها قطعاً قراؤها.

تحرير القراءة إذن هو نشاط مخيلة القارئ وتحفز ذائقته لينتقي الحي المشع، من الخافت، من الغامض أو الخافت الخفي من الإشارات!

وليس من مهام القراءة أن تعتمد التقييم التقليدي السائد والممل وفقاً لمقاييس الجودة والرداءة، هذه التقييمات البالية والمستهلكة حد العطل من كثرة الاستخدام.

ما على القارئ هو أن يرى سطح النص وما تحته غوصاً وسبراً لأعماقه، وهنا تتشكل قراءات جديدة وتتوالد من قراءته، والنص الحي هو النص الذي يتكثّرُ بتكاثر قراءاته، ويبقى ولّاداً ونشطاً إشعاعياً.

وأرى أن بصرياثا تجربة ثرية بالأسرار وغنية بالإشارات، نقلها المعلم الكبير وساعي البريد الفذ محمد خضير لشرائح مصطفاة من القراء المؤهلين لتسلمها ومواءمة ترددداتهم مع ترددداتها.

ثانياً: بصرياثا قراءة في الألوان والإشارات

صحيح أن المشروع السردي ثريُّ المنجزِ للأستاذ محمد خضير لا ينحصر بالمرحلتين الأساسيتين: أي مرحلة (المملكة السوداء) وشقيقتها (في درجة 45 مئوي).

ومرحلة (بصرياثا) وشقيقيها (رؤيا خريف) وكتاب (الحكاية الجديدة).

وإنما يضم تجارب مهمة أخرى ككتاب (حدائق ووجوه) وكتاب (السر والكتاب) وكتاب (باصورا) و(تاريخ الزقاق) وغيرها، لكن تلكما التجربتين كانتا الأهم والأبرز والأشد وقعاً وتأثيراً في مسارات السرد العراقي عامة، وحتى العربي إلى حد ما، ولو قيّض لهاتين التجربتين بكتبهما الخمسة ترجمات وترويج إعلامي مناسب لتركتا أثراً عالميا مهماً.

ففيهما من المخيلة الخلاقة والاشتغالات الشكلية العالية والمتساوقة بأسلوب رائع مع المضامين ما يعد إنجازاً عالمياً متقدماً قياساً لما اطلعنا عليه من سرديات مترجمة.

وإذ كانت التجربة الأولى (المملكة السوداء..) قد لفتت الأنظار إليه بقوة ووضعته في مركز متقدم بين قصاصي العراق، فإن تجربته الكبيرة الثانية (بصرياثا) رفعته إلى مقام ودرجة عالية بين كتاب السرد العرب، ولا أرى شخصياً أي كاتب عربي يمكن أن يصل إلى ما وصله من مستوى على صعيد الاشتغال الشكلي والبراعة الفنية في اللغة ومذاقاتها وطراوتها. وعن هذه التجربة (بصرياثا وتحديداً كتاب بصرياثا) سأحاول أن أقدم قراءة مختلفة نوعاً ما اعتبرها الشاعر الراحل حسين عبد اللطيف (في صيغتها الأولى) سيميائية، وقد تكون مستقاة من مغذيات عدة منها المخيلة والسيمياء وفيزياء الألوان والجغرافيا ووقائع التاريخ والحاضر وغيرها..

الملاحظ أن التجربة أو المنجز الكلي للأستاذ محمد خضير يقوم على ثلاثة أسس أو مكونٌ من ثلاثة أضلاع؛ الأول هو مرحلة المملكة السوداء، والثاني مرحلة بصرياثا. أما الثالث فكما أراه مختزلاً بشخصية السارد الكبير ذاتها، فلا معنى يستقيم لهذه التجربة السردية المهمة من دون النظر إلى الذات المبدعة الخلاقة للمؤلف/ ساعي البريد، وقدراته العالية على إيصال الرسائل إلى المتلقي أو القارئ المرتجى في زمان النص أو ما بعده وربما حتى ما قبله إن تحررنا من التقسيمات البشرية الخطية للزمن!

ومعنى هذا أن هناك مكونين واضحين حاضرين ومكونا ثالثا ملاحظا ولا يظهر إلا ليشع ويختفي ماكراً مراوغاً وذكياً.

والأمر ذاته يسري على تجربتيه في (المملكة السوداء) و(بصرياثا)، فكان محمد خضير الإنسان الحي المتحرك، هو الركن الثالث المكمل للمجموعتين القصصيتين (المملكة السوداء وفي 45 درجة مئوي) في المرحلة الأولى. وإن كتاب (الحكاية الجديدة) هو المكون الثالث لتجربته (بصرياثا) بما عرض فيه من الرؤى التنظيرية الخاصة بالأستاذ محمد خضير، ليغدو المكمل لكتابي (بصرياثا ورؤيا خريف).

تتضمن ما أسميتها بتجربة أو مرحلة بصرياثا عند أستاذنا المعلم محمد خضير، ثلاثة كتب متضامنة مكملة لبعضها، لكن كل كتاب منها كيان قائم بذاته مستقل عن شقيقيه في الحال والكينونة ذاتها..

بصرياثا : صورة مدينة

رؤيا خريف: قصص

الحكاية الجديدة: نقد أدبي أو رؤيا نقدية

فقد جسّد كتاب (رؤيا خريف) والمجنس بـ "قصص" (البصرة الافتراضية المرتجاة) التي تحلم نصوص رؤيا خريف بتحققها، منطلقة من البصرة الواقعية المجسدة بكتاب (بصرياثا صورة مدينة) ومرتفعة عنها إلى ما هو أجمل وأسمى بشكل محايث أو مقارب لليوتوبيا إنما بشكل جديد اختص به المؤلف من دون أبناء جيله من كتاب السرد.

ملاحظة: أغلب كتاب السرد الستينيين ومراوغةً منهم للرقيب والسلطوي لجأوا إلى الماضي الرافديني أو الإسلامي للعراق، وتقنعوا به في محاولة لقراءة الواقع المحظورة قراءته، وتقديمه للقارئ واستثارة كوامنه الرافضة للقباحة من دون استفزاز الرقيب والسلطة وبطشها.

أما الأستاذ محمد خضير فقد كان مغايراً لمجايليه وإن شاركهم الهدف، إذ لجأ إلى الآتي من الزمن، إلى المستقبل المفترض أو المتخيل بدلاً من الماضي، ليرسم لنا الحاضر ويحفزه عند قارئه، وهو ما سمي بالواقعية الافتراضية، وهذا ما مثلته قصص أو نصوص رؤيا خريف.

أما كتاب الحكاية الجديدة فقد عرض كما ذكرنا الرؤى التنظيرية للمؤلف وبياناته النقدية عن تجربته هذه، وحتى بهذا نجد الأستاذ محمد خضير كان مختلفاً ومتميزاً عن غيره إذ لم يكتف بالتأليف، وإنما نظّر له نقدياً وبوعي ودراية، وهي تجربة تستدعي الدراسة والتأمل من كتاب السرد والنقاد معاً.

يتناول كتاب (بصرياثا: صورة مدينة) البنية أو الأساس الواقعي الأرضي أو الجغرافي التأريخي لمدينة البصرة (البصرة الواقعية) التي يندر أن يغادرها الأستاذ محمد خضير إلى مكان آخر، ونصوص هذا الكتاب الستة (أعني النصوص المكانية الأساسية) تمثل تنويعات أرضية قامت عليها المدينة وفقا لرؤية المؤلف لها، كشط العرب، وصحراء الزبير ، وبساتين أبي الخصيب وسوق الجمعة وساحة أم البروم، ويتضمن نص (المدينة المتنقلة) أو يشير إلى كل ما تبقى من أماكن في المدينة.

تأخذنا كلمة صورة مدينة التي وصفَ بها كتاب بصرياثا إلى البصريات وفيزيائياتها، فهل كانت تلك الصورة بالأسود والأبيض أم ملونة؟ وما هي الألوان التي مزجتها واستخدمتها فرشاة الرسام الماهر محمد خضير؟ أسئلة استفزتني من وقت بعيد قد يصل إلى ربع قرن مضى، وحاولت الإجابة عليها بأوراق مختصرة قدمتها أو نشرتها في مناسبات مختلفة، وآمل أن تكون هذه الورقة أو القراءة هي الأنضج من بينها.

باستثناء مدخلين أو مفتتحين لكتاب بصرياثا معنونين بـ(المداخل الأربعة لبصرياثا) و(الاكتشاف الأول) وخاتمة معنونة بـ(صباحات وليليات: يوميات حرب) فإن الكتاب مكون من ستة نصوص وكأن الكاتب/ الرسام هنا أراد أن يحاكي الألوان الستة المكونة لكل الألوان في الطبيعة، واستنادا إلى الفيزياء البصرية فإن الطيف

الشمسي إذا ما مرر بموشور وفقاً للتجربة المعروفة فسيتحلل إلى ستة ألوان مرئية بالعين الطبيعية، وهي ابتداء من الأقصر (البنفسجي/ الأزرق/ الأخضر/ الأصفر/ البرتقالي/ الأحمر) لكن ما يقوله علم البصريات أن الألوان الأساسية الرئيسية التي تكون الطيف الشمسي هي ثلاثة فقط، وهي من الأقصر للأطول (الأزرق/ الأصفر/ الأحمر)، وكل الألوان الأخرى مشتقة من تمازجاتها بهذه النسبة أو تلك؛ فالبنفسجي ناتج من مزج الأحمر بالأزرق، والأخضر ناتج من امتزاج الأصفر بالأزرق، والبرتقالي ناتج من امتزاج الأحمر بالأصفر.

ومثل هذا ما يراه القارئ متجسداً في نصوص بصرياثا الستة، فثلاثة منها أساسيات تمثل البنية التحتية لمدينة البصرة (شط العرب حلم نهر/ أبو الخصيب طريق الحكايات/ والزبير عين الجمل)، والثلاثة الباقيات ثانويات وناتجة عنها وتمثل أبنية فوقية (أم البروم: وليمة في مقبرة/ مدينة متنقلة/ عطايا الجمعة).

ويرى القارئ أيضاً وفيزياء الألوان أمامه ومعه أن (الأزرق الفيزياوي متمثل في الكتاب بـ(شط العرب: حلم نهر) ودلالته على ذاك اتشاح النهر بمياهه الزرقاء. ويرى (الأصفر الفيزياوي متمثلاً في الكتاب بـ(الزبير: عين الجمل) وصفرة رمال الصحراء، دليله إلى هذا التماثل. وكما أن امتزاج الأزرق بالأصفر سينتج الاخضرار، فإن الأخضر الفيزياوي متمثل هنا في الكتاب بـ(أبو الخصيب: طريق الحكايات) وأبو الخصيب اخضرار كله.

وإذا كانت هذه التماثلات قد حدثت في الكون الفيزيائي وفي الكتاب؛ فالغريب أن هذا هو ما حدث فعلاً على أرض البصرة جغرافياً؛ إذ أن "أبو الخصيب" وبساتينه واخضراره إنما نشأ من امتزاج مياه شط العرب الزرقاء بالصحراء الأرض البوار الصفراء فكانت الخضرة وكان أبو الخصيب!

هنا تدهشنا الإشارات، هل أعد الكتاب هكذا بقصدية واعية أم أنها المخيلة الخلاقة من أفرزت هكذا جمال ودهشة؟

قد يذهب الرأي أو الإجابات إلى هذا أو ذاك، ولكنني أميل إلى ما أسميه بـ(أطروحة ساعي البريد)؛ فالمبدع الفعلي وفقاً لأطروحتي هذه، ليس هو من تعارفنا على تسميته أو توصيفه بالمبدع، وإنما المبدع الفعلي - كما بينت - هو قوة غامضة حاضرة وخفية في آن، وتأييداً لهذه الأطروحة ثمة أدلة عدة منها مثال الحلم الشخصي، فكلنا قد حلم يوماً، والحلم قطعاً صادراً عنه، عن الحالم وليس عن غيره، ولكن هل يستطيع حالم ما أن يزعم أنه هو من ألّف حلمه بوعي وقصدية؟ الجواب قطعا لا!

وهكذا الحال في النص الإبداعي فإن من أنجزه ليس "المبدع أو المؤلف ذاته" وإنما أنجزته قوة غامضة مبدعة، وما دور من اصطلحنا على وصفه بالمؤلف إلا كدور ساعي البريد المؤهل لإيصال الرسائل إلى متلقيها، ومن الطبيعي ألا يكون أياً كان مؤهلاً لأداء دور ساعي البريد!

أتوقف عند هذا الحد وإنما فقط أردت من تلخيصها هنا، أن أشير الى أن رسالة بها العمق والدهشة والثراء بإشاراتها ككتاب بصرياثا، لم يكن هناك من هو مؤهل لإرسالها سوى ساعي بريد فذ ومؤهل تأهيلاً عالياً هو محمد خضير.

تماثل بين فيزياء الألوان وبين نصوص الكتاب، ثم تماثل بينهما وبين ما قامت عليه جغرافية البصرة!

وهنا يقف أمامنا سؤال مهم، لقد عرضنا للونين أساسيين من الألوان الثلاثة:

الأصفر ممثلاً بـ(الزبير عين الجمل)

والأزرق ممثلاً بـ(شط العرب حلم نهر)

أما الأخضر الممثل بـ (أبو الخصيب طريق الحكايات) فليس أساسياً في الطيف الشمسي، وإنما هو لون ثانوي مكون من امتزاج الأزرق بالأصفر، فأين اللون الأساسي الثالث: الأحمر؟

الأحمر لون الدم ولون البطش والقتل والحروب والغزوات والإعدامات والانقلابات، وكل هذه إنما تعني التأريخ ووقائع الحاضر.

فلم سكتَ عنها كتاب بصرياثا؟

وهل سكت هكذا كتاب عن هكذا تاريخ ووقائع فعلاً؟

يقول بورخس: إن إخفاء الشيء أفضل طرق الإشارة إليه.

وقد تقدم في بداية قراءتنا أن كُتّاب السرد قد راوغوا الرقيب السلطوي المتحفّز للانقضاض على كل ما هو مريب بنظره، فلجأ الأغلب من مجايلي محمد خضير إلى الماضي، وتقنّعوا به، بينما انفرد الأستاذ محمد خضير باتجاهه إلى المستقبل ليخفي إشاراته، ويوجه إداناته من خلاله، فإذا كانت (صحيفة التساؤلات) في كتابه (رؤيا خريف) تبني لنا تلك المكتبة الحضارية الكبرى فهي إشارة إدانة لتخلّف الحاضر، وفي رؤيا برج إدانة أخرى وهكذا بأطياف الغسق.

واستخلص من هذا أن إظهار الأزرق والأصفر على اللوحة التي رسمها السارد الأمهر محمد خضير لا يعني خلو اللوحة من الأحمر، إنما برع السارد الرسام في إخفائه لكيلا يظهر إلا لذوي البصيرة الحادة النافذة وهم وحدهم من تختصّ بهم الرسالة: رسالة التاريخ ورسالة الحاضر المتطلع إلى مستقبل آت جميل.

وهكذا فإن المكونات الثلاثة في تجربة كتاب بصرياثا حاضرة وواضحة لمن يرى ويبصر وأن بدت لضعاف النظر أو المصابين بعمى الألوان مكونة من اثنين فقط.

تحية للسارد المعلم محمد خضير أستاذنا الجليل ولمخيلته البارعة في المزج بين تشكيلات الرسم وألوانه، وبين سبائك السرد وأبنيته بجمال وتميز نادر نظيرهما.

---

* قاص وكاتب من البصرة

السرير والثقافة

إن جوهر أن تكون مشرداً هو أن تكون بلا سرير

كتابة: سجاك فان دير غيست وجيرت مومرستيج
ترجمة د. هناء خليف غني *

(السرير هو الإنسان) القاص الفرنسي موبسان

تؤلف هذه المقدمة القصيرة مدخلاً إلى انثروبولوجيا السرير وتركز على ثلاثة أفكار: السرير موقعاً للشعور بالأمان وعدم الامان، علاقة السرير بالصحة، وطبيعة السرير متعددة الأغراض. وتُلقي المقالات في المجلد الضوء على الأسرة 'العادية' والأسرة في الأماكن العامة أمثال المستشفيات، وتُختتم المقدمة بالدعوة للاهتمام بأنثروبولوجيا النوم.

يبدأ الناس يومهم، في أكثرية أرجاء العالم، بالنهوض عن السرير وينهونه بالعودة إليه ثانيةً. ولذا لا يبدو مفاجئاً استخدام السرير في واحدٍ من أول الادلة الإرشادية في الأنثروبولوجيا الثقافية بوصفه مثالاً تعليمياً عن الانتشارية: ((يستيقظ مواطننا الأمريكي الركين في السرير بموجب نمط نشأ في الأصل في الشرق الأدنى ثم جرى تعديله في أوروبا الشمالية قبل انتقاله الى أمريكا. فهو يلقي جانباً الأغطية المصنوعة من القطن في الهند أو الصوف في الشرق الأدنى أو الحرير الذي اكتُشِف استعماله

في الصين)) (لنتن 1936: 326).

إن تنوع الأصول الثقافية لتاريخ الأسرة وعادات تأثيثها يؤلف تاريخاً مدهشاً ومذهلاً في الواقع، إلا أن مجموعة المقالات هذه عن السرير بوصفه ظاهرةً ثقافيةً تمضي أبعد من مناقشة الانتشارية. يبدو محررا مجموعة المقالات، في الواقع، مذهولين بنحوٍ خاص بالتنوع الثقافي في معاني السرير واستخداماته.

لا يُشك في أن السرير يشغل موقعاً بارزاً في حياة الناس. فمن المسلمات القول إننا نقضي ثلث حياتنا في السرير، مثل قولنا إن ((ثلث التاريخ مغطى بالظلام) (رايت 1962: vii). إن استخدام يسوع المسيح للأسرة هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة (رايت 1962: 8)؛ ففعل النوم الوحيد

الذي أداه المسيح حدث بينما كان مستلقياً في قارب صيد، لا في سرير. وهذه ملحوظة ذكرها الكاتب الفرنسي غيَ دي موبسان: ((السرير هو الإنسان. ولأجل أن يُثبت أنه لم يكن بشرياً، حاول سيدنا المسيح أن يبدو وكأن له حاجةٍ بالسرير. إذ وِلِد تحت نخلةٍ ومات تحت الصليب، وترك مخلوقات مثلنا تستلقي في الأسرة من التعب والراحة)) (1882).

وأردف موبسان حديثه عن السرير بهذه الملحوظة اللافتة: ((السرير رمزٌ للإنسان. إن مقدار الوقت الذي تقضيه في السرير ليس هو المسوغ الوحيد الذي يبرر الاهتمام المتزايد به؛ فالسرير يحوز أكثر اللحظات أهمية وجوهرية في حياتنا. إنه المكان الذي يبدأ أكثرية الناس يومهم وينتهون به (مع استثناءات مشهورة قليلة). إنه الموقع المفضل لممارسة الجنس، وهو المكان الذي يرتاح فيه المرضى والضعفاء والمنهكون ويضيف عدداً اخر من الأنشطة. ويتداخل تاريخ الاسرة، بحسب رايت (1962: viii) مع تواريخ المواقف الاجتماعية والجنسية والصحية والمعمار والبناء والديكورات الداخلية والأثاث)). وعلى الرغم من ذلك لم يحظ السرير بما يستحق من اهتمام وعناية، ترى ما السبب؟

يرتبط السرير، أولاً، بالنوم الذي يُعد عموماً وقتاً مقتطعاً من العيش الواعي والنشاط الاجتماعي. لا يحدث شيئاً في النوم مثلما يبدو ظاهرياً، فالنائم بعيد غافل عن العالم، وعليه ليس ثمة ما يمكن الكتابة عنه. ان كان نائماً، فالشخص غير مهم لعالم الاجتماع، ومتى ما استيقظ يستيقظ معه اهتمام الباحث وعنايته كذلك فيما يعاني عالم الاجتماع من العشو الليلي أو تمركزية الموت في دائرة اشتغالاته مثلما لاحظ ستيجر وبرانت (2003: 6) كما اظهر ليفي شتراوس (1974: 375) وعياً نسبياً بالأهمية الانثروبولوجية للنوم حينما اشتكى عن توترات العمل الحقلي في (دوائر استوائية حزينة): ((عليك أن تنهض عند الفجر وتبقى مستيقظاً حتى يذهب آخر مواطن محلي الى النوم، وفي بعض الأحيان تراقبه بينما يغط في نوم عميقٍ...)). النوم في الواقع مهم مِن المنظورين الانثروبولوجي والسوسيولوجي لأنه ظاهرةٌ ثقافيةٌ. اعد وليمز (2002: 178) قائمة بالخصائص الثقافية الآتية للنوم تبدأ بتقنيات الجسد المقترنة بفعل النوم، وأبعاده الزمنية؛ وطابعه المدني، ونمذجته الاجتماعية، ودور النائم، الفرص والاشتغالات التي يوفرها النوم للقطاعات الطبية والتجارية والصناعية.

ثمة تفسيرٌ محتملٌ آخر لتجاهل السرير في الأدبيات السوسيولوجية والانثروبولوجية بسبب حميمية السرير. إذ يوجد السرير، في أكثرية البلدان، في غرفة لا سبيل لدخول الزائرين اليها زيادة على أن الوجود في السرير يؤلف في العادة نشاطاً مقصياً عن الملاحظة بالمشاركة. ملحوظة ايرفنغ غوفمان التي تفيد الباحثين فـ((لا يمكنهم معرفة الناس الذين يدرسونهم حتى يناموا معهم)) لم تؤخذ على محمل الجد بين الأنثروبولوجيين أو لم تحظ بالترحيب على ما يبدو. قد تكشف المدونات الشخصية للباحثين الاجتماعيين

عن معلومات أكثر عن الأسِرة ولكنها لا تُنشر إلا نادراً.

الشعور بالأمن والخوف: تتحدث احدى الأغاني الغانية الشعبية بعنوان (مكان نومنا) عن السرير بوصفه الرمز النهائي للشعور بالأمن والرعاية الأمومية. إنها اغنية حزينة عن أم توفيت تاركةً أطفالها في هم وخوفٍ. تُعبر الأغنية عن حزن الأطفال الذين تسلل الخوف والفزع حتى الى أماكن نومهم. تقول كلمات الأغنية:

إلهي، أين سننام؟
أين سننام؟
ماذا يحمل لنا الغد؟
ماذا سيحل بنا غداً؟
أمنا انتيويوا، آه ياأمنا!
لمن تركتنا؟ من سيعني بنا بعدك؟
من سنلجأ اليه بعدما نستيقظ من النوم؟
ابنك كي بوي تعيس للغاية.
ليس لديه مُعين.
ليس لديه مكان للنوم!
أيها الناس! ماذا يحمل الغد لنا (برمبونغ 1986: 518-514).

تلتقط الأغنية خاصية غموض السرير: إذ قد يتحول الشعور بالأمن فيه إلى كابوس. كل شخص يعد سريره 'بيته'، مكاناً لراحته، مكاناً فريداً للانسحاب إليه والبقاء وحيداً (دي فيشر 1999: 59). ينبغي للسرير أن يكون مكاناً آمناً لأنه يكشف عن اللحظات التي يكون فيها الإنسان ضعيفاً وهشاً ومُنهكاً. ولأن النوم يقع في ساعات الظلمة حينما يكون الإنسان في أدنى درجات قدرته على التكيَف مع بيئته ولأنه في نومه غافلٌ عن مخاطر العالم الخارجي، فإن النوم هو حالة من حالات الضعف والهشاشة (ديمنت في اليس 1991: 213). السرير مكان للاختباء في لحظات الضعف والخطر وكذلك في المرض وفي الولادة والاحتضار. والتماس الخصوصية والحرص عليها هو الاستجابة البشرية للشعور بالخطر والهشاشة. يُمكن للسرير أن يوفر تلك الخصوصية، ولكنه لا يفعل ذلك على الدوام. يرى نوربرت الياس [1939 - 2000] وغليشمان (1980) أن مكان النوم يؤلف مثالاً واضحاً على الحميمية أو العناية المتزايدة بالخصوصية التي تقع ضمن (عملية التمدن). تحدث الياس عن مألوفية نوم الغرباء معاً في سرير واحدٍ في اثناء السفر مثلاً في عهود سابقةٍ. حالياً لا يمكن حتى التفكير بهذا الأمر. فحيازة سريرك الخاص في منطقتك الخاصة، مكان يكون لك وحدك، يُعدَ على نطاق واسع أحد حقوق الانسان الأساسية. إن جوهرَ أن تكون مشرداً هو أن تكون بلا سرير. وتبعاً لذلك يُعدَ السرير رمزياً لبيت مُصغر كما بين دي فيشر بوضوح (1999).

يضم هذا المجلد بين دفتيه عدداً من المقالات التي تناقش أهمية الأسِرة بوصفها ملاذات منزلية شخصية، وتنوعت اشتغالات المُسهمين بين التركيز على الملاءات وأغطية السرير الأخرى في دراسة دي فيشر. إذ كانت هذه الأغطية لا السرير في ذاته هي التي توفر للشخص الإحساس بالحميمية والراحة الشخصية. إن ملاءات شخص آخر وأغطيته قد تسبب النفور أو ربما

عدم الشعور بالراحة وقد تحرم الشخص من النوم. يرى دي فيشر في توفير ملاءات نظيفة النشاط الجوهري الذي يجعل البيت بيتاً... ومهاجع النوم للشباب في مجتمع صيد سمك في مالي الأفريقية هي مثال آخر على الأسرة بوصفها رمزاً للهوية الشخصية. وعلى الرغم من محدودية الخصوصية من وجهة النظر الأوروبية في هذه الأَسِرة، فإن الصيادين الشباب حريصون على خلق حيزهم الخاص بمساعدة قواطع الكارتون وقطع الأقمشة ومتعلقات شخصية قليلة خصوصاً في حال اضطرارهم الى مشاركة غرفة صغيرة الحجم مع آخرين. في مقالة جربي، يؤلف العنقريب (السرير السوداني التقليدي) قلب المنزل وهو كذلك رمز للهوية الثقافية. وفي دراسة سييراد ثمة توكيد على خصوصية غرف النوم في المنازل الهولندية في نهاية القن التاسع عشر تقريباً.

يخفق السرير في توفير الأمن والحميمية اذا تطفل عدو على خصوصيته أو إذا وضِع في منطقةٍ عامة. هناك عدد لا يحصى من الأشخاص قُتِلوا في اثناء نومهم. في الكتاب المقدس، قتلت البطلة جوديث عدوها هولوفيرنس الذي اضطجع مخموراً في سريره (جوديث 13: 11-1). وقتل اثنان من ابناء يعقوب جميع رجال مدينة شكيم بينما كانوا يرقدون مرضى في اسرتهم بعد ثلاثة أيام من إجراء الختان لهم (سفر التكوين 34: 25). وتعامل شكسبير كذلك مع السرير بوصفه مكاناً مثالياً للقتل في مسرحيتي (ماكبث واوثيلو)، والساحرات في العائلات الافريقية يفضلن العمل ليلاً حينما يرقد ضحاياهم في الفراش.

والقلق المترسخ بشأن الموت المبكر في المهد (أو ما يُعرف بمتلازمة موت الأطفال الرضع المفاجئ) هو مثال آخر على الخوف من المخاطر المختبئة في بيئة السرير الآمنة ظاهرياً. تُدرك الأمهات الغانيات المخاطر التي تترصد في الليل ولا يدعنَ اطفالهن المولودين حديثاً للنوم بمفردهم قط، وهنَ يشعرنَ بالدهشة من ترك الأمهات الاوربيات أولادهن ينامون بعيداً عنهنَ. في المقابل، تُدرك الأمهات الاوروبيات المخاطر المتصلة بكتم أنفاس الأطفال الرضع حتى الموت في أثناء نومهم.

ويُناقش عددٌ من المقالات الأخرى ما يُعرف بـ 'غموض السرير' الذي يمكن أن يكون ملاذاً آمناً أو مكاناً يعج بالمخاطر. إذ شرح غبسن واولارت سييرا كيف يحاول مرضى المستشفيات اخفاء الأشياء في أسرتهم في محاولة منهم لمقاومة ظروف المرض. فهم يخفون الحبوب والسكائر والكحول وغيرها من الأشياء الممنوعة تحت المخاد والملاءات في محاولة للتهرب من المراقبة الطبية. ويؤلف السرير، من جانبٍ آخر، السجن بالنسبة لهم لأنه يسمح ويسهل عملية التفتيش المتواصلة والانضباط الذي يفرضه الكادر الطبي. والسرير الذي صمم للاستقرار والشعور بالراحة يصبح أداة لانعدام الضيافة والازعاج وعدم الراحة.

تبرز طبيعة السرير الشبيهة بالسجن كذلك في دراسات زمان (عن مشفى

في بنغلاديش) وجيرتي فان دير غيست (عن ردهة للأطفال في الفلبين). ليس مصادفة أن يكتب كلاهما عن الاسرة في مكان عام في ردهات المستشفيات. سرير في الحيز العام مناقض للخصوصية ويجنح نحو إنتاج الفوضى والانزعاج. لم يتعين على المرضى اليوم أن يفقدوا خصوصيتهم في جناح مستشفى بينما لا نود أن نفعل ذلك في أي جانب آخر من جوانب حياتنا العامة. عندما نذهب الى الفندق نتوقع أن ننام لوحدنا في غرفةٍ خاصةٍ بنا لا أن نتشارك النوم مع عدة أشخاص آخرين (ثومسن وغولدنغ في زمان 2005: 92).

وبداهة، يتغير وضع سرير المرض عن الانتقال من النطاق العام إلى الخاص بعدما يستعيد ثانيةً خصائصه المقترنة بالأمن و'المركزية' كما اسماه نجهوف. فبعد انتقاله من السرير في المستشفى الى سريره في منزله، احتاج بعض الوقت حتى استعاد الأخير موقعه بوصفه حيزاً آمناً يمكنه فيه أن يستعيد الجزء الأكبر من استقلاليته.

يكتسب السرير في دراسة اووومان وهيول طبيعة خبيثة شريرة لأنه متهم بجلب الأذى والألم للجسم. وعلى الرغم من أن غاية السرير توفير الراحة وتعزيز النقاهة، إلا أنه يتحول ضد المريض ويُسبب الألم. وبنحوٍ فارقٍ، يُلام السرير في حين أن الجناة الحقيقيين هم مانحو الرعاية. إن قرحة الفراش مثلاً هي نتيجة لغياب العناية الجيدة.. وتكتظ أعمال كافكا الأدبية بمشاهد الأَسِرة المزعجة والغريبة. إذ يستيقظ غريغور سامسا، في (المسخ)، صباحا ليجد نفسه قد تحول الى حشرةٍ كبيرةٍ. ومن خلال اختياره السرير المألوف والمريح بوصفه أصل (مهد) التغريب والغرابة، نجد أن كافكا قد نجح في تصوير الحيرة والفوضى الوجودية في حيوات ابطاله. السرير منطقة خطرة في عالم كافكا حيث الخوف والقلق يخيمان على مفاصل الحياة.

وفضلاً عن النوم والراحة والعلاقة الحميمة، يُتخذ السرير موقعاً لأنشطة أخرى لا حصر لها مثل القراءة (مانغويل 1996)، والكتابة والتأليف الموسيقي وتناول الإفطار واستقبال الزوار والبكاء والتدخين ومشاهدة التلفاز. وتُستعمل الأسرة في المهر ووضع الموتى. السرير للكاتب الفرنسي مارسيل بروست هو المكان الذي يعمل فيه. ويصدق الأمر ذاته على الكاتب الامريكي الساخر مارك توين والمخرج وودي الان. وثمة حكايات كثيرة عن الموسيقار الايطالي روسيني الذي كان يستلقي مستمتعاً في سريره بينما يؤلف معزوفاته الموسيقية: ((في أحد الأيام توجه أحد متعهدي الحفلات الموسيقية الى زيارته ووجده يؤلف مقطعاً موسيقياً في سريره. ومن دون أن ينظر اليه طلب روسيني من المنتج التقاط ورقة سقطت من السرير الى الأرض. وعندما التقطها المنتج، سلم روسيني الورقة الأخرى التي كان يكتبها إليه مشفوعةً بسؤالٍ: ((ما الورقة الأفضل برأيك؟)).

في جنوب غانا كما في مجتمعات أفريقية أخرى، يغدو السرير شيئاً مركزياً في الجنائز. إذ يُغلف جسد الميت ويُسجى

ممتداً على سرير حديدي مزين والأفضل سرير مطلي بالذهب. ثمة أنواع أخرى من الأسرة وفي كل مرة يرغب الناس بنوعٍ جديدٍ. الموضة السائدة تتحكم في الاختيار!

وثمة أغراض أخرى يُستخدم فيها السرير، إذ بيّنت جيربي في دراستها أنه خلافاً للمجتمعات متدنية الدخل التي تستخدم السرير لأغراض متعددة، تحرص المجتمعات مرتفعة الدخل على خصوصية الاستخدام.

لقد قضى غيست تقريباً فترة دراسته البحثية بأكملها في غرفة بستة أسرة في مستشفى في الفلبين حيث يعيش المرضى واقرباؤهم في هذه الأسرة وعليها؛ ليس ثمة بديل أمامهم، كما أضحى السرير الموقع لكل نشاط ممكن تخيله مثل تناول الطعام واللعب واستقبال الزوار واجراء البحوث الأنثروبولوجية. وبالمثل، اضحى السرير ملاذاً للأقارب الذين ينامون ويختبئون تحته في وصف زمان لمستشفى في بنغلاديش. وقد يكون السرير شيئاً تجميلياً بالكامل، وهو بهذا لا يؤدي وظيفته المعتادة كموقع للنوم أو مكان جلوس. وقد لاحظ كالاويَ في دراسته في نيجيريا: أنه ((إذا تمكنت عائلة الفتاة الهوسية من توفير السرير، فأنها ستحصل على سرير بأربعة مساند ومرتبة عالية صلبة ومغطاة بقماش ساتان ومُزين بالعديد من الوسائد الجميلة. هذا السرير هو قطعة الأثاث الرئيسة في الغرفة ولكن الفتاة لا تنام فيه ولا تجلس عليه!)).

ختاماً.. تؤكد الدراسات على ضرورة ايلاء المزيد من الاهتمام بالجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية المتصلة بالسرير.

---

* كاتبة ومترجمة اكاديمية - بغداد

مسرحية (فلك اسود) والاحتفاء بالملفوظ النصي

د. يوسف رشيد *

تتمركز ثيمة الشرف في متعاليات نص (علي عبدالنبي الزيدي) الموسوم (فلك اسود) كخصيصة سيميائية دالة بمرجعيتها الثقافية والجمعية لتبدو أكبر من مدلولها الايقوني بجندريته ومقومات جنوسته التي لا تقل شأنا عن ان يأخذ فعل (الاغتصاب) فيها بعدا تأويليا اخر هو استباحة بيت برمته و اجتياح لوطن نامت عيون حراسه، لتغفو في سبات ونوم عميق.

من مشهد استهلالي ضاج بالصراخ و الذعر الذي ظهرت فيه (بتول) واصوات الرصاص القادم قريبا من بيتها وهي تحاول ايقاظ زوجها الغارق في نومه تحسبا من أن يدخل إليها الغزاة ويغتصبونها، يتناهى الى الفهم استدعاء قصديا لحضور (الدواعش) ليعمق واحدة من اشتغالات (المابين) في ثنائيات الوجود والعدم والذكورة والانوثة والكينونة والمسخ والأرضي والكوني التي يشتغل عليها الزيدي، ليضعنا أمام حبكة دائرية تنتمي الى فانتازيا تعرية الواقع في إطار اللامعقول، موجها ارسالاته صوب تناقضات الواقع وقسوته المظلمة، في لبوسات كوميدية سوداء احيانا، ومأساوية حالكة حد البكاء من شحة الامل وخيبة الرجاء احيانا اخرى، ومن قلق الحياة ولا معقولية انساقها تساوقا مع ما عبر عنه (اسلن) بقلق الشعور الميتافيزيقي في مواجهة لامعقولية الشرط الانساني؛ الذي ابدع الزيدي في تجسيده والتصدي له في مجمل اعماله الذي يجد حضورها الشعري والفلسفي في حاضنة التلقي وذاكرة النسق الدرامي، محتفية بالمفارقة والتعددية والتورية الساخرة وازدواج الشفرة بالغموض والالتباس احيانا، وبالتصريح الذي تؤججه جوانية الوجع الذي صار ينتمي الينا بكل الوانه، المحتلة لكل تفاصيل ايامنا، فتجده في هذا النص محولا فردانية ازمة (بتول) الى محنة وعمومية (مصائبية) هي ما اسماه بـ(فلك اسود) ليعمق البعد المصائبي، إذ ان اجتياح الوطن الذي مهد لدخول قوى الظلام الدواعش التي استباحت كل المحظورات والمقدسات، لتصبح سردية استباحة النساء واحدة من السرديات الكبرى انسانيا في هذا العصر.

ففي فرضية العرض تستشعر (بتول) ما يهدد أمنها الانساني والقادم لانتهاك قداسة شرفها وهي لا تملك الا ان تدعو الرب لينقذها..

وقد حوّلها الى رجل لتحمي نفسها من هذا الدنس القادم، فيستفيق زوجها من غفوته ليجد ان زوجته قد تحولت الى رجل بلحية وشارب، وبهذه اللجّة من المتغير الغرائبي ولا منطقية الاستبدال (الغروتسكي)، يتنامى فعل التناقض، ليبلغ اشده بامرأة متحولة ترفض أن تعود لوضعها الجنساني خوفا من الاغتصاب، ورجل يصر على دعوتها لان تعود لوضعها، ليعودا ذكرا وانثى، فبعد محاولات وجدل تقترح عليه أن تبقى هي الرجل وتطلب إليه أن يتحول هو ال امرأة فيرفض وتثور ثائرته.

في خضم هذا الخطاب الضاج بالملفوظ النصي وانثيالات السرد، راحت معالجة المخرج والممثل الاكاديمي (رياض شهيد) تبحث عن اغواءاتها الاخراجية، لتتناغم مع ثراء هذا النص بالأفعال الحركية ورسم الخارطة الجمالية لأفعال النص المتحركة في استمراريتها الدورانية التي تفرض على الإخراج الاشتغال كثيرا في دائرة المبتكر التشكيلي تفاديا للملل الذي لا مناص من أن يحدث غالبا في هكذا معالجات، وعلى الرغم من أن الإخراج أراد أن يعتمد السعة المكانية في بؤرة الرمز الأساس (السرير) الذي كان عنصرا رئيسا لتأثيث فكرة العرض والمكان في آن معا، الا ان الفراغ البصري الفضفاض ظل يشكل فضاء سلبيا حول الفعل، لهذا لم نجد مبررا ملحا لتقديمه وغيره من هكذا عروض، في فضاء كبير مثل المسرح الوطني، ما أفقد التلقي بعضا من الحميمية، فضلا عن انه انعكس بشحة في جماليات بعض الافعال الحركية،

والتكرار في بعض الأفعال التي افتقدت احيانا وليس غالبا الدوافع الباعثة الى الحركة، فشابها خوف من ترهل المنظومة الايقاعية للحركة احيانا اخرى، لتبدو وكأنها منحوتة قصديا، سواء من الممثل الذي يستحضر من خزينه الحركي الكامن في آليات أدائه، أو من ملاحظات الإخراج والتصميم القصدي للميزانسين في انتاج صورة تتكافأ وشعرية الملفوظ، فجاءت مفردة الستارة (التول المظلل) في مقدمة المسرح والاشتغال عليها مسوغا لخدمة فكرة (المابين) استخداما مهما لتعزيز هذه الفكرة، فضلا عن إمكانية اتاحة الفرصة للإخراج لكي يتخذ من كثافة العلامة في المفردة البصرية وتنوع إمكاناتها، بإعادة إنتاجها جماليا وفلسفيا كمفردة تشكيلية زاخرة بالتنوع فيما لو اتجه العرض الى استنفار كوامن طاقتها التعبيرية في التشكيل البصري، يضاف إلى ما حققته من بعد سينوغرافي بليغ.

المخرج رياض شهيد لم يخفِ احتفاءه بالملفوظ النصي ولعل ما يمكن أن يحسب للإخراج بوصفه خطوة جريئة، هو المحاولة.. أيما كان تأثيرها وما تتركه من انطباع، فإنها فعل نبيل باتجاه تفعيل ممكنات الخطاب، إزاء ما اتسم به الملفوظ النصي من اعلاء لسلطة الادب وهيمنة شعرية النص، التي كان على الاخراج التحرر اكثر من سطوتها الادبية، مع المحافظة على شعريتها، والابقاء على النص بوصفه الارضية الفكرية، والجنوح اكثر صوب جماليات متعالية ذلك ان العرض سارد جمالي حسي بصري يسعى الى الارتقاء فوق مستويات السرد الجمالي الكامن في الملفوظ، أو أنه يجاورها على التوازي، وقد يكون هنا مكمن التحدي الذي عمد إليه المخرج والممثل الأكاديمي(رياض شهيد) في مقترحه الإخراجي حينما اعتمد فرضية اختزال متخيل (القارئ الضمني) وعمل على تقويضه بوسائله التي كان ابرزها تأثيثه للفضاء المكاني بمفردة قابلة للحركة والتشكل (السرير) التي أنتجت بصورة انفراجها دالة (ايروسية) فاعلة تأويليا، وفي اسهامات حركية اخرى، لتقويض تراتبية الصورة المرئية، فكان هذا سببا لاستحضار بعضا من سمات (مابعد الحداثة) ومخالطة المعالجة بسمات تحقيق الشمولية في التركيب وتجريدات السينوغرافيا لتسهم في اشاعة بعض من الطابع التشذري الذي اتسم بمحدوديته في اجتياح اللا تسلسل الهرمي لهيمنة الملفوظ وانثيالاته الشعرية في بناء (الحالة) التي يتمركز فيها الزمن ويتموضع.

غير ان بعضا من المحاولات الخجولة التي كانت بها حاجة الى إثراء وتعميق، او ان البعض كان لا ضرورة له على الاطلاق، فإذا كانت الغاية التعبيرية للتواصل بتوظيف الاجناس الجمالية مع العرض هي تحقيق ذلك التنامي في وحدة الموضوع وليس غير ذلك، فإن توظيف مشهد الـ(كيروكراف) يبدو فائضا ان لم يكن مقحما؛ فالكيروكراف، على حد قول (هانس ليمان) هو (الكتابة بالفضاء والزمن والجسد لا بالنص)، اذن هو ليس استكمالا لتعبيرية الكلمة في النص، حتى إذا كانت سيمياء التواصل التي تتمحور في شقين، أحدهما لساني قصدي انطوت عليه ثنايا النص، والآخر غير لساني يكمن في الإشارات والملصقات، فإن عرض (السلايدات) باستخدام (الداتاشو) والإشارة إلى انتفاضة تشرين قبل المشهد الاستهلالي، هي الأخرى بدت مقحمة، وكذلك الحال في الإشارة إلى جائحة كورونا ومحاولة سميأة دالة (التعفير) التي خرجت من بين (فنيات الايقنة) لتدعو الى التطهر من زمن لم تنته اثاره حتى اليوم، اذ مازالت قوى الظلام (تعشعش) بأوكارها وحواضنها بحيث لم يبد هذا الاستخدام الا محض فرضية متفائلة.

التمثيل في المعالجة الإخراجية

إن دورانية الفعل في بناء هكذا نص، تفرض اسلوبا ادائيا ينتظر ان يتساوق وطبيعة تلك البنية، اذا ما استحال ابتكار أسلوب مغاير بطريقة قصدية، يمكن أن يقترحها المعادل الاخراجي، فهي تفرض

إيقاعية دائرية من شأنها في اغلب الاحيان ان تثير بعضا من الملل في التلقي، مالم تعالج باستدعاء الممثل لآليات أدائه وشحنها بطاقة خلاقة يتحقق من خلالها اقصى درجات التنوع في التكرار الزماني ومتغيرات البناء. ولعل المخرج الممثل (رياض شهيد) كان هو الاقرب ادراكا لمعطيات وكوامن (معرفية الجسد) لممثليه الذين لم تكن تنقصهم الخبرة ولا الدربة الادائية خصوصا (حسن هادي وضياء الدين سامي) العارفين؛ إذ ان هذه المعرفة بالجسد، قد ساهمت قدر الامكان برفد الكثير من المعالجات الحركية تشكيليا، لتفادي اي ملل يمكن ان يرشح من سريان التكرارات، وهذا لا ينفي فاعلية ملاحظتنا السابقة في ما يخص بناء الدوافع ومرجعيات الحركة بين الإخراج والتمثيل في عرض الافعال، واضعين بالاعتبار أن الحبكة الادائية في هكذا عروض ينبغي أن تكون حافلة بالتنوع، والتغيير المستمر في مستويات الانفعال، الذي لم يكونا قد وفقا اليه لولا استثمار ما توافرا عليه من إيقاع حركي للجسد المعمد بحضورهما المعول على تأسيس إخباري سابق، والذي وفرته ملاءمة الشخصية للممثل. وهذه أيضا يمكن أن تحسب للمخرج انه كسب جولة أخرى هي اختيار الممثلين الاثنين، في ما لم توفق الممثلة (صفا نجم) في إثبات حضورها بشكل يمكن أن يعلق في الذاكرة لمحدودية قدرتها على التأثير وضيق مساحتها الادائية التي كان ينتظر أن تكون انشطارية، تشاركية، في الشخصية مع (حسن هادي) وموازية تكنيكيا في البناء الفني.

على الرغم من أن العرض برمته وما يثيره من ملاحظات، وهذا متأت من اهميته، فانه عرض اقل ما يمكن أن يقال عنه انه عرض مسرحي جيد وبجهد يستحق التقدير لما اتسم به من سمات أكاديمية تحاول الانفلات تجريبيا من القيود التقليدية. وفي تقديرنا أن الكثير من عروضنا اليوم كما في هذا العرض تحتاج الى المراقبة النقدية الجمالية (الدراماتورجية) التي تكون عينا حيادية مجاورة يمكن أن تثري العملية الإبداعية والتمرين المسرحي ولا تأكل من جرف الإخراج كما يتوقع البعض جزافا، وإنما تساهم في إضاءة أو تفعيل بعض اللحظات التي يمكن أن تجنب العرض الكثير من الاسئلة.

إن (فلك اسود) مسرحية كانت لها المساهمة في لم الشمل المسرحي الذي باعدته هذه الجائحة البغيضة. واكيد ستكون حافزا لانجازات ابداعية اخرى، لتؤكد ان الحياة والجمال صنوان في مسرحنا العراقي.

---

* ناقد مسرحي واكاديمي/ أستاذ في كلية الفنون الجميلة، بغداد.

يوسف جوهر.. رباط مقدس مع السينما

محمود قاسم */ القاهرة – خاص

المخرج السينمائي المصري: يوسف جوهر الذي تربينا علي يديه كروائي، وكاتب سيناريو ، وكاتب مقال، حالة بالغة الخصوبة منذ الشباب في الاربعينيات، حتى قبيل الوفاة، وحالة من الاخلاص لرفاق حياته، وعلى رأسهم نجيب محفوظ، ثم ثروت اباظة الذي استقال من رئاسة الكتاب تعاطفا معه، اليوم يتم تكريم اسمه ككاتب سينمائي في مهرجان عريق، وأقل ما يمكن أن نفعله هو تحيته لأنه مر بنا، لا يزال يثرينا، ونحن لا نكتب عنه للتكريم بقدر الشعور بالامتنان لما لعبه في حياتنا بقوة، ولنبل كبير، في مقابل وغدنة قوبلنا بها من البعض.

يوسف جوهر (1912 - 2001) هو المحامي الذي لن يعتزل هذه المهنة وهو يكتب اسمه علي السيناريوهات الأولى له. بعد أن جاء من طنطا للاقامة في القاهرة، وهو يجمع بين كتابة القصة، والسيناريو، والحوار، كما أنه منتج، رصد نقوده لانتاج فيلم ”أرضنا الخضراء“ حول الاصلاح الزراعي عام 1954، وقد اقتبس الكثير من قصص الأفلام الأجنبية، كما حول الكثير من النصوص الأدبية المصرية الصعبة الى أفلام لها مذاق بالغ الرقي، منها ”دعاء الكروان“ و“الحب الضائع“ عن روايات طه حسين، وارتبط كثيرا بمخرج من طراز بركات.

ليوسف جوهر مسيرة يجب التركيز عليها، وقد تغيرت هذه المسيرة بشكل ملحوظ أثناء حياته، ففي المرحلة الأولى كانت الأفلام التي يقدمها مختلفة الى حد كبير عن السينما الكوميدية لكل من أبو السعود الابياري، وبديع خيري، وكان غزير الانتاج في السينما، ومن مجموعاته "سميرة هانم" التي نشرت ككتاب في سلسلة "كتب للجميع، وفي بداية السبعينيات اتجه لكتابة روايات، وانشغل بمقاله الاسبوعي في جريدة الأهرام، حتي جاءت المرحلة التي بدأ يحول رواياته الى أفلام يكتبها بنفسه خاصة "أمهات في المنفى" من اخراج محمد راضي، لكنه لم يهتم بتحويل كل الروايات التي كتبها الى افلام، ومنها على سبيل المال "شخلول وشركاه" التي تحولت الى مسلسل تلفزيوني بما يعني انه كتب كافة أنواع الكتابة من قصة وسيناريو وحوار.

بالنظر الى القائمة المنشورة في الويكيبديا، سوف نكتشف أن القائمة الحقيقية للكاتب اكبر بكثير من العناوين المنشورة، فيوسف جوهر هو أحد كتاب السيناريو الأكثر غزارة في السينما المصرية، وهو أحد الأطول عمرا في ذلك المجال، وقد كتب القصة والسيناريو والحوار، اما كل منهم بشكل منفصل، أو الثلاثة مجتمعين، كما كتب أغلب أنواع السينما من الأفلام الغنائية والاستعراضية، والفيلم الكوميدي، والفيلم البوليسي، والرومانسي، وأحد أشهر افلام الحركة، كما اقتبس الكثير من الروايات المصرية للدكتور طه حسين ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، وهم الاسماء الذين كانوا متجاورين في المكاتب فيما بعد، عندما فتحت جريدة الأهرام ابوابها ليكون لهم مكان، ومرتبات في مبنى مؤسسة الأهرام، كما أن يوسف جوهر رجع الى النصوص الأدبية العالمية لتحويلها الى أفلام، وللأسف فان عناوين هذه الأعمال على الشاشة لم تكن المصدر الاساسي إلا في مرات قليلة للغاية مثل فيلم "أمير الانتقام" المأخوذ عن "الكونت دي مونت كريستو"، وهو الفيلم الذي كتب حواره يوسف جوهر، واجتهد فيه الكاتب لتحويل شخصية البحار ادمون دانت الى فارس صحراوي، فتغيرت آلية الهروب من السجن المتاخم للمياه حين قفز البحار في الماء، بعد أن قام الحارس بوضعه في الجوال. أما حسن الهلالي في الفيلم فقد بارز الحراس، وأفلت من السجن بأسلوب مختلف تماما، وقد دأب يوسف جوهر على كتابة الحوار في الأربعينيات لفترة غير قصيرة، واستفاد كثيرا من مهنته كمحام، ثم تفرغ لكتابة السيناريوهات، وفي آخر سنوات حياته كان يكتب الفيلم بأكمله، والغريب ان الكاتب لم يقم قط بتحويل احدى رواياته كي تكون فيلما عدا، رواية "امهات في المنفى" كما لم يترك رواياته كي يكتبها آخرون كأفلام سينمائية، وفي ذلك غرابة، ولم أشأ أن اسأله عن التفسير، حيث كان منشغلا في الكتابة الموازية مهما كانت. والغريب انه تفرغ للصحافة في سنواته الأخيرة من خلال اهتمامه بالهم الاجتماعي، وكان عنده المخزون ليكتب أفلامه الأخيرة ومنها: "الرجل الثالث" و"الفضيحة"، واغلب الظن ان جوهر لم يكن هو مؤلف فيلم "الرجل الثالث" لعلي بدرخان، وقد أبدى دهشته عندما أخبرته أن اسمه مطبوع على الفيلم، وابتسم بدون تعليق. واعتقد أن التفسير وحده يخص المخرج، فقصة

الفيلم تنسب الى ضابط شرطة يدعى محمد عباس، حول تجربة شخصية تخصه في عمله. وكان المخرج عز الدين ذو الفقار قد كتب اسمه كمؤلف مشارك في فيلم "الرجل الثاني" عام 1959، وأن يوسف جوهر كتب سيناريو الحوار للفيلم، الذي يعتبر ايقونة ثمينة في الفيلم البوليسي.

من المهم التعرف إلى علاقة يوسف جوهر بزملاء المهنة حين كتب السيناريوهات لأفلامهم، وخاصة توفيق الحكم، والدكتور طه حسين، فقد كتب للحكيم فيلمين هما "الرباط المقدس" و"الأيدي الناعمة" وكلاهما من اخراج محمود ذو الفقار، فهناك شبه التزام بكتابة "الرباط المقدس" كما كتبها الحكيم, حول فكرة الانثى التي تدخل حياة راهب الفكر، فتغير له حياته, تماما مثلما حدث للراهب في رواية "تاييس" لأناطول فرانس, فارتقت المرأة فكريا وانسانيا من خلال ايمانها بافكاره, أما هو فقد صار متصابيا, واصبح دنيويا. أما مسرحية "الأيدي الناعمة" فان التلامس بين المسرحية والفيلم باهت بشكل ملحوظ, ويمكن القول إن نجاح مثل هذه الأفلام نابع من قوة الكتابة عند يوسف جوهر أكثر من النص الأدبي عند الحكيم. ومن هنا تأتي عبقرية الكتابة للسينما عند يوسف جوهر، وبدا ذلك أكثر وضوحا في "دعاء الكروان" فالنص الأدبي مثل الكثير من نصوص طه حسين القصصية تتكثف الحدوتة في اطار من الاسهاب في الحكي, والرواية تعتمد على مناجاة الفتاة لطائر الكروان التي تكاد تسمع تغريده ولا تراه، وقد قامت آمنة في الرواية بالهرب مع عشيقها الى العاصمة بعد أن وقعت في حبه.

وبالنسبة لفيلم "الحب الضائع" لبركات، فان التشابه الوحيد بين العملين هو العنوان، فليست هناك علاقة قط بين الاثنين: الفيلم - الرواية، حيث ان الرواية تدور في قرية فرنسية تنطبق عليها سمات الريف الفرنسي التي عاشت فيه بطلة الرواية العزباء، أما الفيلم فيتكلم عن الزوج الحائر عاطفيا بين زوجته وصديقتها الأرملة.

أما نجيب محفوظ فقد كتب له الكاتب سيناريو رواية "بين القصرين"، وفي البداية كان توفيق صالح مرشحا لإخراج الفيلم. ويبدو أن خلافا حادا حدث بين المخرج حسن الأمام ويوسف جوهر، وقد سمعته يشكو أكثر من مرة أن الامام حول الفيلم الى مظاهرة للرقص، لذا فان جوهر لم يشترك قط في الفيلمين التاليين من الثلاثية.

كان يوسف جوهر يقوم بمشاركة المخرج كتابة القصة والسيناريو خاصة مع عز الدين ذو الفقار في فيلمين متتاليين متفردين هما "طريق الأمل" 1958، و"الرجل الثاني". وقد كتب جوهر حوار الفيلمين وحده؛ فالعادة أن المخرج يقوم بالاتفاق مع كاتب السيناريو على صيغة التعامل بينهما، وعلى كل فإننا أمام فيلمين شديدي التباين. وكانت هذه عادة عز الدين ذو الفقار، فالفيلم الأول يدور جزء منه في المحاكم حيث أن الفتاة تنسب الى نفسها التهمة بدلا من شقيقة حبيبها، وكونها هي صاحبة الخطيئة حتى أدى ذلك الى حبسها وانتهاء علاقتها بالحبيب الذي سيدافع عنها. أما فيلم "الرجل الثاني" فهو أكثر اعمال السينما البوليسية اكتمالا حول رجل العصابة الخفي الذي يدير عمله من خلال الجيل الثاني الذي يبدو ظاهرا أمام الأنظار

ولا يعرف هذا الشخص احد، باعتبار أنه يمتلك نشاطا اجتماعيا في الواجهة، أما عصمت فهو الرجل البالغ المهارة الذي يكتشف حقيقة الضابط الذي اندس بين رجاله بهدف التعرف الى اسراره خاصة اسم الرجل الأول، وقد بدت مهارة السيناريو في شد انظار وانتباه المتفرج، وتميز المخرج في ادارة الفيلم مثلما أدار الرجل الثاني شبكته الاجرامية.

ارتبط الكاتب بالمخرج بركات في الكثير من أعماله، وعمل في فيلمين غنائيين للمخرج عاطف سالم هما "يوم من عمري" 1961، و" زمان ياحب" 1972. وكلاهما من الأفلام الغنائية. وهما مقتبسان من فيلمين أمريكيين مشهورين تم احداث الكثير من التغيرات عليهما. الفيلم الأول مأخوذ من الفيلم الأمريكي "إجازة رومانية" لويليام وايلر 1954، وفيه يلتقي صحفي بأميرة في مدينة روما قررت الخروج من روتين القصر لتعيش على سجيتها يوما كاملا، مع الصحفي الذي التقت به في القصر في اليوم التالي، بعد أن عادت الى مكانتها كأميرة. والطريف أن السينما المصرية قدمت هذا الموضوع في افلام عديدة منها "أجمل أيام حياتي" اخراج بركات عام 1972. أما الفيلم الثاني "زمان ياحب" فهو مأخوذ عن "أهلا سبتمبر" وهو فيلم شبابي حول الثري الذي عاد الى قصره فجأة فاكتشف أن حارس القصر العجوز قد حوله الى منتجع خاص به تأتي ابنة الأخ إليه متصورة أن جدها هو الثري صاحب المكان.

يوسف جوهر، واحد من أبرز ابائنا الذين عاشوا معنا، وحول لنا هذه الأرض الى منتجع جميل مليء بالقصص المبهجة، والعاطفية والمشاعر الانسانية الشجية.

---

* ناقد سينمائي مصري/ رئيس تحرير سلسلة (روايات الهلال) المصرية

جدلية الفكر والفن

د . نجم حيدر *

إن الفكر المادي الجدلي يؤمن بأن المادة تمثل كل الوجود بصورتيه الظاهرة والباطنة، وما العلاقة بين الظاهر والباطن إلا علاقة تفاعل مادي بشقيها في ذاتية الشيء الذي نبحث فيهِ، أو في ذات المتلقي الذي يدرك الظاهري أو يفسر الباطني، وذلك من منطلق أن الوعي مؤسسة مادية أي يعتمد على المرجع المادي (الذهن أو الدماغ)، الام الذي اسقط ثنائيتهما فلا فصل بين الظاهر عن العمق الذي يبدو منفصلا عنه.

وهكذا ينكشف الوجود على وفق المادية الجدلية بوصفه مدركا لوعي فعالية المادة في الحياة الاجتماعية، وما نمو الحياة وتطورها إلا حركةٍ مادية بطاقات اقتصادية، اساسها حركة رأس المال، وتقاس الحضارة على وفق مستوى النتاج المادي الذي يحقق الثروات الاقتصادية المختلفة صناعية أم زراعية أو أي شكل من أشكالها. وتنبني الحياة بنظم التطور، وهو ضمن دائرة نمو اقتصادي محسوب. وتستشرف المادية الجدلية قانون الصيرورة بفعل حركة الجدل المؤسس على وفق ثلاثة مراكز تتمثل في القضية ونقيضها والتركيب بينهما. ويعد كتاب كارل ماركس: (رأس المال)، الموضح والشارح لكل اشكالات التعالق بين المادة وحركة المجتمع والنظام الاقتصادي على وفق القضايا الاتية:

القضية الاولى:

إن كل قيمة لكل سلعة تحسب بكمية العمل المتحققة فيها. وهنا تؤكد هذهِ النظرة أن القيمة الحقيقية للسلعة تتمثل بالعمل الذي أنتجها، وتحسب بكم ونوع الجهد والزمن (زمن الانتاج).

القضية الثانية:

إن النظام الرأسمالي يعمل جاهداً على حرمان العامل من قيمة إنتاجه، أي سرقتهِ ، فيقدم لهُ جزءاً ضئيلاً من جهدهُ لا يسد رمقه، فيتكدس لدى صاحب الانتاج أو الرأسمالي الارباح. وعليهِ نجد أن رأس المال هو محض سرقة لجهد العمل.

القضية الثالثة:

بتطور المكننة والصناعات الآلية في خط إنتاج سريع تتطور آلية سرقة جهد العمالة ويزداد رأس المال لدى الطبقة المُستغِلةَ.

القضية الرابعة:

إن الصراع بين رأس المال وحركة الشغيلة (العمال) صراع محسوم وحتمي لصالح الطبقة العاملة لأنها صاحبة القوة والعدد (الاكثرية) والحق.

المادية الجدلية ورؤيتها الجمالية

في الابحاث التي تعتمد منظومتين او اكثر من منظومات المعرفة, والتي تبدو منفصلة الواحدة عن الاخرى، لا بد من التحليل في كل منظومة معرفية على حدة، ومن ثم بيان التداخل الفكري النظري وانعكاسها التطبيقي في مظاهر الاداء المختلفة، ومنها في منظومة الفنون.

وفي المادية الجدلية نجد تفاعل منظومتين فكريتين في أداء مندمج متفاعل معهما.

الاولى: في المادية الجدلية كمنهج فلسفي له مؤسساته ومركزياته.

والثانية: في ماهية الجمال والجميل وانعكاسهما أدائيا في الفن،

كما هو حال الانعكاس في الفن يعد اداءً جماليا متفاعلا في مادة اظهار قصدية، لتحقيق بنية جمالية ذات تأثير وتفاعل في مجمل التلقي الفردي والجمعي. وعليه كانت الضرورة في البحث في المادية الجدلية كفلسفة مستقلة وبيان تفاعلها الفلسفي في جسد الوعي الجمالي اولا وفي جسد الاداء الفني المتمظهر لنا في الفن ثانياً، إذ يعتمد آليات اظهار قصدية وتاريخية.

وكما لاحظنا ان المادية فلسفة انطلقت من صراع تاريخي مستمر قدمته الحضارة على نحو متطور على وفق نتاجاتها، واهم ما فيها النتاج العلمي في مجال العلوم المختلفة، والصراع الذي نسميه بالتاريخي لقدمه في الفكر، ولتفاعله من القدم الى الحداثة، يعتمد فكرة المادة بأسبقيتها في الوجود.

فالمثالية والميتافيزيقا اكدت ان اساس الوجود فكرة قدمها المطلق او الروح المطلق حسب تعبير هيجل وهو نقيض جزئي من كيان لا يشكل الا نقطة في بحر، حسب التصور المثالي الاسلامي لـ(فكرة الفيض عند الفارابي وابن سينا والغزالي).

وكما تبين لنا أن الضفة الاخرى التي تعاكس وترفض هذا الرأي هي النظرية المادية التي تؤمن بالمادة كأساس للوجود وتفاعله ومظاهر نتاجه المختلفة من الاشياء والاشكال وصولا الى الاحياء والحياة ومعطياتهما في الفكر والمعرفة،

كانت نظريات التطور الشهيرة كما هو الحال عند (هربرت سبنسر) تؤثر تأثيرا فيه دفقة الحياة للفكر المادي على الرغم من عدم التوافق الكلي بين سبنسر وفكر ماركس، ذلك ان المادية وجدت عنوانها الكبير وثورتها الواسعة عند ماركس وانجلز في اواسط القرن التاسع عشر عندما حققا في مؤلفاتهما، وعدّا المادة تمثل الواقع الموضوعي الذي يكون مستقلا حتما عن الوعي، ومنعكسا فيه، وتمثل

استمرارية لا نهائية في تفاعلاتها وانتاجها للأشكال والاشياء والانظمة والمفاهيم.

انبرت المادية الجدلية كفكر لكل المعطيات الفكرية للميتافيزيقيا، ما أحال الموقف الى صراع مستمر بينهما، وعلى نحو خاص في عد الوعي نتاجا تقدمه تفاعلات مادية لا يتكامل الا بتفاعله من الواقع الموضوعي الحياتي الذي يعيشه الكائن المفكر (الانسان)؛ اذ ان المادية الجدلية تؤمن بان الفكر الانساني عمليات منتجة اساسها بحث وتنقيب مستمر لا ينقطع، بحكم امكانات مادية لإنتاجه (الفكر) متمثلة بـ(الدماغ) او عقل الكيان المادي الفسيولوجي، والمادية الجدلية هي المركب بين المادة والجدل (ديالكتيك) انها مازجت وزاوجت بتفاعل بين منظومتين فكريتين لهما تاريخهما في عمق الفكر البشري هما المادة والجدل والجدلية، المتمثلة بقوانين تبدأ مع تحولات الكم والكيف بفكرة ان التحولات الكمية تؤدي حتما الى تحولات كيفية والعكس صحيح، قانون يمكن ان نجد تفاعلاته في الكثير من مظاهر الحياة ومنها الفنون وفن التشكيل على نحو خاص، فضلا عن صورة اشتغاله مع علم الاجتماع والبحث البايولوجي إلى آخره من علوم ومظاهر المعرفة الانسانية.

ولو بحثنا قانون التحولات الكمية الى كيفية في فنون التشكيل، فسنجد ان المتغير في أنظمة القياس والكم في الأشكال والألوان، وحتى في درجات الحرارة لأفران الخزف والنحت يؤدي حتما إلى متغير في ظاهر النتاج الفني، ويؤدي التغير في منظومة الألوان كقياس إلى متغير في إيحاءاتها الجمالية على مستوى الكيف، والأمر ذاته يمكن ان نكشفه في فنون الموسيقى، فمتغيرات القياس في علم (النوتة) يؤدي إلى متغير حتمي في نظام الصوتيات على مستوى الكيف، والموقف نجده في صراع الأضداد كقانون؛ إذ ان ظاهر الوجود وباطنه في أي نظام من أنظمته يمتلك حتمية التفاعل

بين المتضادات أو المتعاكسات، وصولا إلى إمكانية ان ندعي ان ظاهر الوجود وباطنه محكوم بفاعلية التضاد وما ينتج عن هذه التفاعلية، مما نصفه بالجديد المبتكر. ان الأمر لا يخلو من جدلية منتجة بفعل هذا المخاض بين نقيضين لا يمكنهما إلا ان يكونا متفاعلين، ويمكن ان تتبين فاعلية هذا القانون في انظمة الفنون، ومنها فن التشكيل والمسرح والسينما والصوتيات من الموسيقى والغناء.. بجدلية يكون الانتاج فيها عن طريق صراعات متناقضة كما هو حال صراع الخير والشر في الدراما، أو في الحكاية والرواية، أو صراع الجميل والقبيح في تشكيل ما قبل الحداثة.

إنّ قانون نفي النفي يمكن ان يكون فاعلا ومتفاعلا في كل مظاهر الوجود؛ إذ ان كل مولود جديد فيه ما يمكن ان يعلن نفيه أو يحقق عدمه، أي بمعنى آخر تولد مع المولودات الجديدة مؤسسات نفيها، والأمر في حالة استدامة لا يمكن إيقافها.

إن هذه الجدلية المتفاعلة مع الفكر المادي الذي رفض ان تكون المعرفة منبثقة من ذاتها ولذاتها، بل ناضل ان تكون منعكسة من تفاعل بين العقل بمصدريته المادية (الدماغ) والبيئة بمركزها الموضوعي التي تتجسد في المجتمع، حققت هذه التفاعلية ما نسميه بنظرية الانعكاس في ظواهر المعرفة المختلفة ومنها الظاهرة الفنية.

ان الفن الذي يوصف بأنه ظاهرة من علامات الوجود الإنساني، أو بوصفه حالة إنسانية بحتة، ينطلق على خطى الفكر المادي الجدلي من تفاعلية بين الإنسان ومجتمعه، وبين الإنسان وأسلوب حياته التي تتحكم بها مجموعة قوى أشرتها المادية الجدلية بإمعان واعتمدتها. ويمكن تلخيصها على النحو الآتي:

أ- حركة رأس المال وقوى الإنتاج لرأس المال، التي تتحكم بحياة الإنسان وتنظم المجتمع تنظيما تسيره، وتعمل على تشكيل كل البنى على وفق الصورة التي تتمركز بها رؤوس الأموال المتحكمة بالمجتمع.

ب- اقتصاد السوق ومظاهره التي ترتبط بحركة رأس المال والتي تؤثر في الإنسان فرداً أم جمعاً وتوجه حياته، ومن ثم تنظم مظاهر إنتاجه المختلفة، ومنها الإنتاج الإبداعي كما هو حال الفنون والآداب.

إن صورة الصراع الحتمي التي قدمتها نظرية الحتميات التاريخية والجدلية المنعكسة في الفن مما أحال الفن على وفق المادية الجدلية إلى أداة يمكن ان توجه حركة المجتمع وتبني أهدافه، أو

في ضفة أخرى يمكن ان يكون الفن أداة سلب بيد القوى الرأسمالية تستخدمه لابتزاز الإنسان والمجتمع على حد سواء.

ث- إن حركة التطور على الرغم من حتمية المتتابعات في التطور التي قدمتها المادية الجدلية، إلا أنها حركة تعتمد تنظيم مظاهر الإبداع لتكون أداة من أدوات التطور أو الهدم على حد سواء، إذ ان الإبداع ومنه الإبداع في الفنون يعتمد فلسفة تؤشر إمكانية ان يكون إبداعا ايجابيا أو تؤشره ان يكون إبداعا سلبيا على وفق القياس الذي تقدمه المادية الجدلية. وكل ذلك يرتبط ببناء المجتمع الاشتراكي الطبقي الرافض للفردية ومظاهرها التي قدمتها فنون الحداثة بإعلانها والتزامها الذاتية المطلقة والعبثية والوجودية وتفكيك المجتمع الى مستويات من (اللاادرية) .

يتضح أن الفكر المادي الجدلي وظف مظاهر الإبداع في الفنون على وفق فكرته في بناء المجتمع الاشتراكي التقدمي كما يسميه، أو في

أمل بناء مجتمع تذوب فيه الطبقات وتتحكم به ارادة الطبقة العاملة أو المنتجة بصفتها المنتج الحقيقي لرأس المال ووسائل الإنتاج.
وعليه يمكن تأشير مجموعة روافض تقدمها المادية الجدلية في الفن وللفن ذاته، وهي:
رفض الفردية والذاتية بأي صورة من صورها في العمل الفني. والانفعالات السيكولوجية التي تؤكد سطوة الفرد وتعاليه على مجتمعه.
رفض الانفعالية غير الموجهة، التي يمكن ان نسميها بالانفعالية الحرة نحو فكرة الحرية المطلقة كما يعتمدها الوجوديون.
رفض اللامعين غير الثابت او الموجه في الفن، واللاادرية بكل اشكالها وصورها.
رفض العبثية وإطلاقية تحطيم وإزاحة الأيقونات، على الرغم من ان المادية تزيح الأيقونات الميتافيزيقية، إلا أنها ترفض العبث الذي يمزج بين الأيقونة الميتافيزيقية والاجتماعية.
رفض النزعة العدمية التي تحيل الوجود الى رفض في امال التطور والنمو والتحول، بما تشيعه من اندحار الاقدام والعمل.
رفض النزعات التراجعية بما تدعو الى اللاعلمية واللاقياسية.
وإزاء ما تقدم نجد أن المادية الجدلية تؤمن بضرورة الفن في جسد المجتمع، وفي تقدم بنيته، وضرورة ان يكون الفن اداة لبناء هذا المجتمع نحو العمل الدؤوب بثورية في اسقاط الفوارق الطبقية. ولهذا حققت المادية الجدلية منهجا في فهم وبناء الفن أسمته الواقعية الاشتراكية، التي: تؤمن بالواقع الموضوعي الذي نفهمه ونتفهمه جميعنا، بكل ما فيه من وقائع واحداث فيزيائية مادية المنحى، ابتعاداً عن الغرق في مخيلة ميتافيزيقية حالمة موهومة تصل الى مرحلة التجريد من الزمان والمكان، واقعية تؤمن ان الانسان جزء من المجتمع، وان الانسان يجب ان يعمل من اجل البشرية بلا فوارق وتمييز طبقي او ديني او عرقي، واقعية تعمل على بناء وتطوير العالم بكل ألوانه وأصنافه. وازاء ذلك يمكن للواقعية الاشتراكية ان تكشف حركة الفن بآلياتها المختلفة التي تعتمد حركة الجدل وتستشرف الصراع، وتنتصر للطبقة الكادحة، وتكون جزءا من ماكنة الحتميات.
ان البطل في السينما والمسرح والتشكيل يتمثل في العامل والفلاح او الشغيلة الكادحة بكل ألوانها واصنافها، وها هو العامل الذي يبني المجتمع الكادح البسيط القوي الجميل المثابر مع عائلته واقرانه المتكاتفين من اجل بناء مجتمع خال من الطبقات الرأسمالية والاقطاعية المهيمنة، مجتمع ينتج ويبني فيه الفرد في داخل الكيان الاجتماعي الكبير وقد ظهرت لنا في الكثير من النتاجات الفنية على مستوى السينما والمسرح والادب، فضلا عن الاعمال التشكيلية؛ ففي السينما الى افلام اعتمدت الواقعية الاشتراكية كما في فلم (الأرض) ليوسف شاهين. وفي التشكيل نجد معظم نتاجات النحات المصري محمود مختار، كما في عمله النحتي (الفلاح وأرض النيل وكفاح العمال)، وهكذا نجد الامر في بعض من اعمال جواد سليم كما في منحوتته الشهيرة (نصب الحرية) اذ تمثل نظاما من انظمة الواقعية الاشتراكية، ومن التشكيليين العراقيين يمكن ان نشير الى اعمال (كاظم حيدر) في (البناؤون) و(الحمال).

* فنان تشكيلي / اكاديمي – كلية الفنون الجميلة – بغداد.

نصوص تتسلق يديك

زهير بهنام بردى

1/ أمضي أقلّ انخفاضا

كما ترغبين أمضي أقلّ انخفاضا من تلميحاتكِ الأربعين، تسريحاتُ التراب في كلّ مكان تتسلّقُ يدي بعددِ بجع البحرِ وبأساليب لا يفهمها الا متحف الجمال. أعترف انّها ليست المرّةُ الأولى أن أصيرَ أكبرَ سنّا، كما أقرّ وأعترف أنّي لا أتذكّرُ يوماً مررتُ اليك كطفلٍ كنتهُ ذاتَ مرّة. ولم أكنْ مذهلاً بتاتا تفيضُ منّي البراءةُ لأكوّنَ وقتها معي صداقةً متواصلة كي لا أضحكَ عليه، وأحشرهُ في ذاكرتي ورغم أنّي سافرتُ كثيراً. كنتُ أستمتعُ حين أشعر أنّي لم أكنْ أكبرَ سنًا، بحكمةٍ اتكّرم بها في نهايةِ دهليزٍ يلبّي رغبةَ لمسي لفردوسِها ونقوشها وأبجديّتها وتفضّلي مبكّراً بمصادقتها بأكملها للأعجابِ بمشيها. بعد سهرٍ طويلٍ في عبّ الليلِ، الى أنْ تشمّ رحيقَ الفجرِ الحالك البياض الذي يسقطُ كحصى صغيرةٍ تتهاوى بلذّة على كتفِ الأرض وايقونةِ الحياة، المنفى الذي في عذوبةِ الأسرّة في جميعِ الأمكنةِ ليس بارداً لرمادٍ فوقه ثلجٌ على جانبي بورتريت شخصيّ في الفانوسِ الذي استسلمَ لاناشيدِ الحب. في فنّ موتى المقبرة الذين انتهوا توّا بمثابةِ وهم يتخيّلون مصيرهم قبالةَ نبيذٍ عتمةٍ أسود، ويكتبونَ افتتاحيّة شخيرِ الليل، يسهرُ الأحياء تحت شمسٍ في منفى حياةٍ بتكفيرٍ ساذج وهم يردّدون للمرّة الأولى بعدَ فواتِ الأوان.

أمام مرايا تحتها كرسي أخطاءٍ اغتسلوا بها ببراءة.

2/ معابدٌ مهجورةٌ

في البردِ ألعبُ بالنردِ وفي الشمسِ ألعبُ بورقٍ أعمى وشيوخ بلا نساءٍ ومنفى بلا بيتٍ لا يبقى وحده في معابد مهجورة، مساء كهنةٍ يكتبونَ التعاويذَ في الغرفِ السريّة وعرّافاتٍ يفتحنَ الشرفاتِ بتميمةِ برج الاسد. أمطارٌ نحيلةٌ بالحبّ بحاجةٍ إلى أصابعي. لا شيء لديّ لأمضي هرما بالضوءِ، وأتنصّت الى نساءٍ يلبسنَ نبيذاً ويمدحنَ اسطورةَ حليبي الليلي المدلق فوق رصيفِ حاناتِ نهر، يجري في الموسيقى الى معبدِ أسفارٍ مرثيّةٍ خضراء بلونِ امرأة عانس، تستحمّ بزيتٍ يتنقّط من لوحاتٍ داخلَ كاتدرائيّة رطبة كرمادٍ جاف في صحراءٍ متحوّلة، صراخُ آلهةٍ سودٍ مصحوب بأصابع صفراءَ، تمتدّ من منفى يكتبُ غرائبه دونَ رأس سطرٍ، ويخلعُ أسمالهُ في الضوءِ، يلائمه أنْ يرقصَ

أمامَ حافلةِ موتى، يتسلّقون حبلاً أزرقَ من مدّ وجزرٍ ثرثار. يطمسُ أصابعه الطريّةَ في صلصالٍ خرائب باهرة، تتعلّمُ فنّ التجميلِ لتطردَ ظلّا لا ينفعُ في الليلِ، ورماداً يقلقُ منفاي الانيق في مقبرةٍ لا تستوعبُ أكثر من نصّ يرثي موتَ قلبي الأعور، وأمس حين جلستُ قبالةَ حارسٍ كان يحتسي ذكرياتي بقميصٍ شفّافٍ وفمٍ من أصص نوافذ معبدٍ خفيضٍ، يسكبُ نَبيذا، يعشقُ الحفرَ في التراب.

3/ حليبٌ تحت فانوس

أبتكرُ وقتاً فخما لتذكارٍ رقيقٍ يتابعُ طريقه إلى خجلٍ ماكرٍ، للأسفِ يحملُ فكرة أكبر سنّا من حياته المبكّرة بأطنانِ وردٍ في دنّ شهوته البذيئة، في مدحِ جنيّةٍ تعبثُ بطينٍ مبعثرٍ في بيتِ عجوزٍ يحلبُ في الليلِ الحليبَ من ظلّ قصصٍ تحتَ فانوسِ ليلٍ، يتنقّطُ عطراً يثيرها. فترتعشُ وتهمدُ في اهتزاز لذيذٍ، كصوتِ كرسيّها المكسور الذي تسلّقتّ فوقه كثيراً بفتنةِ عريٍ باذخ، نكايةً بالوردِ في وقتِ استراحة الضوءِ يكرّرُ سيرته الذاتيّة ببشاشةِ ضبابٍ، يتبخترُ كغانيةٍ تشتاقُ الى مخدعٍ ضروريٍّ لشمّ رائحةِ بخورٍ من نافورةِ تجاعيد ضوءٍ، يسيلُ حليباً طازجا في ثقوبِ صلصالٍ يدسّه عجوزٌ في تنّورِ الفجرِ قبلَ صياحِ الديكِ للاحتفاءِ بحكمةٍ ناضجةٍ، بوسعها أن تسخرَ من إغواءِ ليلٍ أسود، يدبّ أسفلَ عواءِ مجنونٍ لا يسمح للزيتِ الذي يعبثُ بالضوء أنْ يسيلَ بحجّةِ تفكيرٍ غيم، لتدبيرِ مكيدة تزعجه وتعطّلُ سيرَهُ ثرثرةِ امرأة, تستغلّ أصابعَ يديه بثمالةِ جنونه الطازجِ وغير الطامح والمالحِ وغير الصالح، الهواءُ يكرّرهُ في صعودِه بجسارةٍ للاحتفاءِ بنقوشِ طينٍ، تستوحي أسطورةً عذبةً في الهزيعِ الأوّلِ من الكسلِ الرتيب، بملامح سوداءَ وازعاجٍ أبيضَ بعد الواحدةِ حبّاً.

النافذةُ تَسعُ كلَّ المواجهين

ريسان الخزعلي*

(1)

الوقتُ مرآةٌ –،

لا تتعطلُ في الظلام ...

(2)

وحدَهُ

النهرُ لا يتكرر

وأنتَ منشغلٌ بمقدماتِ البهجة ..!...

(3)

الأغاني

التي بالدموع –،

لا يعرفها إلّا القرويّون ...

(4)

الأحلامُ

تعلو الأسوارَ –،

والمدينةُ ضيّقةٌ كخطِّ النمل ...

(5)

في السجنِ –،

كانتِ النافذةُ تَسعُ كلَّ المواجهين ...

(6)

لا جدوى من هذا الارتفاع .

ما أقربَ

السماءَ في مياهِ النهر ..!...

(7)

الحلمُ

لعبةٌ في النومِ –،

سيداهمكَ صحوٌ كثير ...

(8)

هذا الحضورُ مُريبٌ.

شفاهُ الموتى تنطقُ التعاليمَ –،

وأنتَ لا تُجيدُ سوى الإنصات ..!...
(9)
أرهقتكَ الكتابةُ – ،
كم أنتَ مولعٌ بتعديلِ
الأبجديّاتِ – ،

والمسلّاتُ عصيّةٌ على المحو..؟...
(10)
القتلُ
ابتدأَهُ ابنُ نبي .
المقصلةُ قد تُخطيءُ أيضاً ...

* صدرت له مؤخراً مجموعة شعرية بعنوان (إنصات عن بعد لما فات من العزف) عن اتحاد ادباء ميسان.

وجهاً لوجه

محمود سعيد :قراءة الرواية تضع لبنة احتجاجية (ج1)

سماح عادل - عمر القطان - القاهرة / خاص

كاتب متميز، احترف السرد حتى أصبح كنسيج متقن الصنع بين أصابعه، يغزله بهدوء وبروية وبلذة، رواياته تختطفك إلى عالمها، تشعر أنك تتجول في عالمه الروائي، ليس فقط كقارئ متفرج، وإنما كمنتمي لهذا العالم، أو ربما كأحد شخوص هذا العالم الثري والمليء بالصور والألوان والوصف الدقيق.

إنه "محمود سعيد" ولد في الموصل في 1939، واعتقل في 1962 لثلاثة أشهر، و1963 لمدة سنة ويوم واحد، وفصل من العمل ثلاث سنوات، ذهب إلى المغرب، عمل هناك. ثم اعتقل 1980 لبضعة أشهر سنة 1980 وكتب بعد الاعتقال رواية "أنا الذي رأى"، وتعرض للتوقيف أكثر من ثلاث مرّات، وللاستجواب والاحتجاز مرات عديدة. سافر سنة 1985 للعمل في الخليج، وفي سنة 1999 هاجر إلى أمريكا. عمل مدرساً للغة العربية في العراق والمغرب، ويقوم بإلقاء محاضرات في اللغة العربية والخط في جامعة "دي بول" في شيكاغو، أمريكا.

منع من النشر في العراق، فلم يصدر له هناك إلا مجموعة قصص قصيرة "بورسعيد وقصص أخرى" في 1957. كتب أكثر من

محمود سعيد

عشرين رواية ومجموعة قصص، وله كتابان في التاريخ وقواعد اللغة العربية غير مطبوعين، ومئات المقالات. بدأ كتابة القصة القصيرة في سن مبكرة. حاز جائزة القصة القصيرة في جريدة "فتى العراق" سنة 1956.

إلى الحوار:

** في رواية "بنات يعقوب" كنت تفكر في فضح العبرانيين وأساطيرهم التي ورثوها للعالم أجمع، أم كنت تحاول التأكيد على عظمة وعراقة الحضارة العراقية؟

- لا هذا ولا ذاك. أنا يعجبني قراءة التاريخ، واكتشاف وقائعه، وممراته وطرقه، وأحب التفكير فيه، يعني أحبّ الحقيقة التي جرت. وهذا لا يمكن الوصول إليه، فالتاريخ مكتوب بقلم المنتصر، أي مزيف، لكن

التفكير فيه يخلصه من بعض شوائبه، يقرب الحقيقة المستحيلة. وقراءة الرواية تضع لبنة احتجاجية يقف عليها القارئ ليطلع على ما وراء السور، فربما تكون عيناه قويتي النظر إلى حد توصله إلى الحقيقة، لا كلها، بل نسبة ما منها. عندئذ أكون راضياً عن نفسي، وإلا فلا.

** لاقت روايتك "أنا الذي رأى" احتفاء كبيرا عالميا، حدثنا عنها وعن ردود الفعل عليها؟

- نعم، "أنا الذي رأى"، لقيت احتفاءً عالميا بعد ترجمتها إلى الإنكليزية، ولو بقيت غير مترجمة لما اهتم بها أحد سوى القليل. إذ أن الرقيب في سوريا لعب بها لعبة هابطة، مع الأسف. فقد ساومني أول الأمر بعرضه النشر مقابل حذف فصلين مهمين منها، وبعد حذفهما طلب مني أن أعمل مع الأجهزة الأمنية في مراقبة العراقيين المتواجدين في سوريا. ثم أخيراً منعها، ففقدت الفصلين المهمين. أما نشرها بالإنكليزية فكان سهلاً جداً، لكنه لقي استغلالاً لا مثيل له، فقد نشرت عدة مرات من دون نيل حقوق النشر، ولكي تتخلص الشركة من دفع حقوقي، أعادت نشرها في الهند. باسم شركة أخرى، ثم نشرت بالإيطالية من دون الحصول على حقوقي أيضا.

اختارها بعد نشرها موقع library thing في نيويورك، يديره مثقفون من جميع أنحاء العالم، يهتم بتصنيف الروايات المنشورة بالانكليزية أو المترجمة إلى الانكليزية، ويعطيها درجات، حسب قوتها، ويمنحها نجوماً تتناسب ودرجاتها. فقد منحها للمشهورين كماركيز، ويوسا، أربعة نجوم، ولم يمنح خمسة نجوم إلا لعدد لا يتجاوز عشرة أسماء، كلهم غادروا الحياة، منهم مغربي "لدريس شرايبي، وألبير كامو"، أما الذين منحوا أربعة نجوم فلا يتجاوزون سبعين أديباً في جميع أنحاء العالم، منهم سبعة أدباء نالوا جائزة نوبل، كـ "سماراكو وماركيز ويوسا ونابيونال وباموك أوهان"، وكذلك منحوا رواية "أنا الذي رأى – صدام سيتي" أربعة نجوم، وكانت هي الرواية العربية الوحيدة، أما الباقيات فثلاث نجوم.

كذلك كتب عن "صدام سيتي" بالانكليزية أكثر من 30 مقالة في الصحف، والمواقع الإلكترونية، ودرست أكثر من عشرين مرة في مختلف الجامعات الأمريكية والأوربية.

** قصة "جند السماء" كانت مشاركة منك في الكتابة عن ميثاق حقوق الإنسان، بمناسبة ذكرى صدروه الستين، حيث تم اختيارك مع 37 كاتبا حول العالم للمشاركة.. لماذا اختاروك عن كتاب العربية؟

- هناك معايير لاختيار الكاتب، ومجرد ذكر أي كاتب يعني أنهم اعتبروا معيارا معينا، وفي الاختيار جوانب إيجابية وأخرى سلبية، فالإيجابية تعني أنه وصل درجة لا يستطيعون إغفالها، والسلبية تعني تعريضه للانتقام وإعلان الحرب عليه، والهجوم عليه حقاً وباطلاً. وفي مناسبة نشر الكتاب دعيت إلى أدنبرة، وحضرت حفل التوقيع، واخترت موضوعاً جديداً، وهو أحداث كربلاء، التي أبيد بها مئات الأشخاص من دون وجه حق، وقتلوا هم وأهلهم وأطفالهم بصورة وحشية، واتهموا اتهاماً ظالماً بأنهم كانوا يرومون قتل المراجع الدينية. اخترت موضوع الحرية في تكوين حزب، ولقيت القصة القصيرة إعجاب المشرفين. واختيرت القصة المترجمة في جامعة

"دي بول" ودرسّت هناك. أما المجموعة التي اختيرت قصصها معي، فكانت تضم الروائي المشهور "باولو كولو" والروائية "نادين كورديمير" وقد "حازت نوبل من قبل"، وآخرين.

** في روايتك "هزائم وانتصارات" ذهب "سامر" لأماكن عديدة، وقدمت لها وصفا دقيقا (الهند- تايلند- نيبال- باكستان- إيران... إلخ) هل زرت تلك الأماكن وعايشتها؟

- نعم، زرت معظمها ، مثل الهند ثلاث مرات، وفي مرة بقيت أكثر من شهر، تايلند مرتين، نيبال مرة واحدة، وهناك مواضع في العالم ليس من المهم أن يزورها المرء إذا أراد أن يصفها كبنغلادش، لأنها امتداد لشرق الهند، أولاً، وثانياً إن كنت تصف ما حدث لشخص قريب منك، يعطيك وصفاً دقيقاً لما عاناه وعايشه. أهم شيء لوضع الواقع على الورق هو دقة الأسئلة التي يلقيها الكاتب على أبطاله الذين يلتقيهم، ويستجوبهم، وينتزع ما يريد من معلومات منهم، وهناك نقطة مهمة وهي العثور على كتاب يفشلون في وصف وطنهم، رغم عيشهم فيه كل أعمارهم.

أما الشق الثاني من السؤال فهو عن المعايشة، وتصويرها بالكلمات، وتعني قبل كل شيء التفكير فيها بعمق. وهنا أحب أن أطلب منك إضافة بضع كلمات على السؤال، وهو أن تبيني للقارئ مدى إحساسك بالمعايشة، وهل ظننتها قريبة إلى الحياة، أو بعيدة عنها.

** في روايتك "هزائم وانتصارات" قدمت نموذج البطل الذي يفعل الخير لأجل الإنسانية، المناهض للحرب، وشخصيات كثيرة تسعى لتحقيق السلام الإنساني.. هل هذا خيال كاتب أم أن حدوث ذلك في الواقع أمر محتمل؟

- آنذاك كنا نعيش أيام الحرب العراقية الإيرانية، وكنا نرغب في السلام إلى آخر درجة، وكنا مناهضين للحرب، وضدها، والآن اكتشفنا أننا كنا على خطأ، كنا نرغب في السلام، وكان عدونا يرغب في الحرب، وكان الوضع في العراق وجيران العراق يسير باتجاه الحرب والاستمرار بها، فما كان لدينا إلا الأحلام بالسلام، والعمل من أجل السلام، وكان هذا شعوراً عاماً عند معظم أبناء الشعب العراقي. ويستطيع قارئ الرواية اتخاذ مؤشر يميز فيه أكان ذلك واقعاً أم مجرد خيال كاتب. لقد هرب من الحرب العراقية الإيرانية عشرات آلاف الجنود من الجانب العراقي، ومثلهم من المواطنين العراقيين تركوا العراق إلى أي بلد في العالم يقبلهم لاجئين عراقيين.

** نشرت في بلدان غير العراق بسبب الملاحقة والمنع، هل وجدت التقدير في البلدان العربية أم أنك واجهت منعا آخر؟

- لم أجد أي نوع من التقدير، ولم يحسن إلي أي بلد، وابتزتني الرقابة السورية بخبث وانحطاط، وحذفت من روايتي "أنا الذي رأى"، ولم تنشرها، وعندما هربت وجدت الأبواب مسدودة أمامي، لكن الشيء الجيد في الأمر أنني نجحت في نشر كتبي، لكن واجهت ابتزازاً آخر هو سوء معاملة دور النشر، مثل دار "الثقافة الجديدة" في القاهرة، ودار سيناء، وكانت هاتان الجهتان الناشرتان أسوأ ما يمكن أن يتوقعهما ناشر، فكأنهما كابوس تعس، تصوري أن دار الثقافة الجديدة، نشرت "زنقة بن بركة"

سنة 1983 بوضع فصل مكان فصل أولاً، ووضعت الغلاف بورق أسمر لا يستعمل في مصر إلا للف الحاجيات، يعني حتى الجرائد المصرية تستعمل ورقاً خيراً منه. ولم تضع علامة الدار عليه "إيقونة الدار". أما دار "سيناء"، فأخطأت بكتابة العنوان أولاً، وأخطأت بكتابة اسمي فكتبت "محمد" مكان "محمود"، ثانياً، ولم تدقق الكتابة فجاء الكتاب بأكثر من 800 خطأ مطبعي، ونحوي، وإملائي. ومع ذلك أخذت مني ضعف ما تأخذ عادة من الكاتب المصري.

** هل أثر اغترابك وبعدك عن وطنك على نصوصك الغزيرة سواء أكان ذلك قصصا أم روايات.. وكيف كان هذا التأثير؟

- ظهر التأثير واضحاً في اختيار موضوعات الرواية. فمعظم رواياتي في الغربة عن عراقيين تغربوا وعانوا في غربتهم من: الحنين، التوق، لخدمة البلد. اشتياقهم لرؤية ربوع الوطن. الذكرى، وقسم منهم اعتراه الندم للتغرب. وفي الحقيقة كانت الكتابة بالنسبة لي أشبه بتأثري الشخصي بالغربة، ولما كنت أرصد تأثر الآخرين فهذا يعني أنني كنت أعبّر عن هذا التأثر. لقد أصبحت معاناة الغربة شيئاً شخصياً لي، أتبارى مع نفسي وفي وصفي لها، وأفرح لنجاحي في وصفها، وأغتم كذلك في فشلي للتقصير في الوصف.

** في تناولك لقصص الحب في أعمالك تحرص على أن يفيض عذوبة وإنسانية، ومع احتفائك بجمال المرأة إلا أنك تقدمها كندّ للرجل، لها قوتها وإرادتها وقدرتها على الفعل.. حدثنا عن ذلك؟

- أحب تصوير حقيقة المرأة. نعم، لا يخلو أي موقع في الحياة، في جميع الأوطان من امرأة خشنة، قاسية، مهملة، أو حتى وضيعة، لكن هذه النماذج قليلة في الحياة، ونسبة الإساءة عند المرأة أقل من الرجل بما لا يقاس، وقد تتبعت اتجاه القسوة والسوء في تراثنا، فوجدت أن من هاجم المرأة كان ناقصاً، عنيفاً، لا رحمة عنده. أما الرجال المصلحون الواعون المفكرون فكانوا يحمدون أخلاقها وتصرفاتها ورعايتها لأطفالها، وتفانيها في خدمة أطفالها، ورعايتها لهم، وتضحيتها من أجلهم.

فضلاً عن ذلك فالمرأة جميلة رقيقة عذبة فعلاً، خفيفة كنسيم عذب، وهي إلى جانب ذلك كله تتمتع بفكر نير، وقابلية على التفكير لا تقل عن الرجل. وقد أثبتت الدراسات التشريحية، أن المرأة تتوافر على خلايا عصبية حساسة تكاد أن تكون ضعف الخلايا الموجودة عند الرجل. هذا يعني أنها أكثر حساسية منه بما يجد في الحياة، وأنا أنظر إلى الموضوع هكذا. إن كان الإحساس شديداً عند المرء فالتأثير شديد كذلك، وهذا يعني تفكيراً أكثر، وأعمق، وأشمل. لذا فالمرأة تستأهل احتراماً أكثر، يعني أنني وضعت في كتبي ما تستأهله من دون مبالغة.

** في رأيك هل من ضمن مهام الأدب التحريض على الثورة، أو مساندة أي حراك اجتماعي؟

- التحريض من أجل تحقيق مكتسبات الضمان الاجتماعي، والتعليمي، والصحي مهم جدا، سواء أكان أدباً أم نشاطاً ثقافياً أم اجتماعياً مهما كان، على المثقف أن يناضل من أجل تحقيق مكتسبات الشعب في جميع المناحي. لكن مفهوم التحريض يختلف. فالمفهوم الشائع للتحريض الدعوة

لتغيير الأوضاع السيئة، وهذا جيد، لكن علينا أن نفكر في وسيلة التحريض، علينا أن نحرص ألا تكون الوسيلة مباشرة، وإلا وقعنا في مطبة السقوط في شرك الإملاء الفوقي، أي التسلط، لا تنسي أن الأديان، والأحزاب الدينية تلجأ إلى هذه الأساليب التسلطية فخلقت السواتر بينها وبين عموم أبناء الشعب، ولهذا السبب أيضاً ابتعد عنها الأدب الرفيع.

** ما رأيك في حراك تشرين 2019 في العراق. كيف تقيّمه.. وهل يمكن اعتباره ثورة شعبية؟

- نعم، هو حراك شعبي هائل، والضحايا الذين سقطوا كثر، وضاعت دماؤهم هدراً. إن تقويم الحراك هو عمل شعبي مهم. ونستطيع أن نقول أنه بداية ثورة شعبية.

ومثل هذه الثورة كثيراً ما تحدث في الشرق الأوسط، فقد حدث مثلها قبل سبعين سنة في إيران، حينما نجح د. مصدق بقيادة ثورة شعبية، طردت شاه إيران. لكن المخابرات المركزية أجهضتها بوساطة الجنرال زاهدي، الذي قام بانقلاب عسكري. اعترفت المخابرات المركزية بعد عقدين أنها قامت في إيران بأول انقلاب عسكري، وأقالت د. مصدق. وارتكبت مذبحة عظيمة ضد الحزب الشيوعي "تودة" الذي كان يدعم د. مصدق. وكان السيناريو شبيها بالضبط ضد انقلاب الثامن من شباط ضد عبد الكريم قاسم، والذي نجح في قتله، وإبعاد اليسار عن الحكم. في أوضاع إيران كان هناك رجل دين تعاون مع المخابرات المركزية. لقد وقع العراق في فخ أحزاب تدعي الإسلام، وإن كنا نخاف على مصر من الإخوان المسلمين، فعندنا من هو أقوى مئة مرة من الإخوان المسلمين، وأخبث منهم.

** الوطن حاضر كان وما يزال في كتابتك الإبداعية وأوجاعه التي استطعت أن تعكسها بقلمك سردا ينفذ إلى دواخل القارئ.. كما كنت متفاعلا دوما مع الحدث السياسي والاجتماعي منذ مجموعتك القصصية الأولى (بورسعيد) عام 1957. مدينتك الموصل التي تعرضت لأحداث دمرت البشر والحجر، هل ترى أن هناك ما تريد قوله عنها ولم تقله بعد؟

- بالتأكيد. ما كتبته عن الموصل أكثر من غيري بما لا يقاس مقارنة مع ما كتبه الآخرون، لكن ما كتبته سالمة صالح، في مجموعتيها القصصيتين القصيرتين "زهرة الأنبياء" و"شجرة المغفرة" عن الموصل مهم أيضاً، فهو يعبر عن مشاعر طفلة حساسة تعيش في مدينة كبيرة. أنا أحترم عملها كثيراً، وأوصي الآخرين أن يقرأوها، فعلى الرغم من عملها الطويل في العراق، في وظيفة إعلامية، إلّا أن النقاد لم يسلطوا عليها أي ضوء، كما فعلوا معي، والحقيقة أن قسماً من الكتاب يكرهون الموصل لأسباب متعددة، وهذا مؤشر لتحيز طائفي ومناطقي وقومي شديد وقديم، ولم يبذل المثقفون والمسؤولون المواصلة أي مجهود لإزالة هذه العقبة مع الأسف، بل زادوا الطين بلة، بسبب ترددهم، وخوفهم من المشاكل، وضحالة ثقافتهم.

كتبت رواية "الدنيا في أعين الملائكة" وصفت بها الموصل في الأربعينات والخمسينات، وبعد كتابي هذا لم يصدر أي شيء لا لي، ولا لسالمة صالح حسب علمي، ولا للآخرين. عندما ذهبت إلى الموصل بعد بضع سنين علمت أن

الجميع قد قرأوا الكتاب، لكن مع الأسف لم يعلقوا عليه، ولم يذكره أي كاتب من الموصل، ولم يشر إليه من قريب أو بعيد أي أديب موصلي، أعرضوا عنه، وأهملوا ما جاء به، ولم يطروه أو يقدحوا به. فمر الكتاب مرور الكرام، على قوم لئام، وكأنه كتاب عن تل أبيب. ويبدو أن لوزارة الثقافة يدا في ذلك، فقد مُنع من النشر في العراق.

وعندما أقول منع يعني أن وزارة الثقافة لم توافق على نشره من خلال دعمها للمطبوعات. فهذه الوزارة لا تأثير ايجابيا لها، وقيمتها سطحيّة بائسة، وهي شديدة الأذى على الأديب، تغط في نوم عميق.

الأديب العراقي عموماً فقير، مغلق الشفتين إن لم تساعده الوزارة على النشر، يبقى نتاجه حيز المجرّات، محجور عليه. كيف سيقرأه المثقّف العراقي؟

كتابي هذا نشرته في مصر، ويبدو أنني وقعت بيد نصاب "دار ميريت"، فقد أعطيته أجرة الطبع مقدّماً، على أن ينشر خلال ثلاثة أشهر، فارتأى ألّا ينشره، محتفظاً بالجنيهات، ولا شك أنه فكّر بأني لا أستطيع المجيء من شيكاغو إلى القاهرة، كي أطلب منه تنفيذ بنود العقد، لأن أجرة الطائرة ضعف تكلفة النشر. وهكذا فاتت المدة، وفاتت أخرى، وأخرى، ولم تكتحل عيناي بالرواية إلا بعد سنتين، وبعد مصادفة لقاء من استعنت به للمساعدة، وكان عمه يعمل في أمن الدولة. ولولا ذلك لما رأيت الكتاب. وهكذا ترى متاعب مؤلف مثلي في نشر كتاب لم يلق صدى في وطنه، ولا في غيره. لكن ذلك لم يفت من تصميمي على الكتابة عن الموصل، فكتبت عدة مقالات، أبديت بها رأيي في تصرفات المسؤولين، والمواطنين، وسافرت إلى الموصل مرّتين لتجديد الأوراق الرسمية، من دون نجاح.

ما رأيته في الموصل بعد الغزو عزز نظرة الشك المتأصلة فيّ، من أن الموصل كانت ومازالت تحكم بأيدي أشرارها، ولن تقوم لها قائمة، وأن الخيّرين من أهلها قلة مبعدون عنها، في الأقل لا منذ سقوط الحكم الفردي بل منذ سقوط العهد الملكي، وحتى الآن. وما نجح من مشروعات فيها هو أقل من القليل، لكن المؤلم هو ذلك السكوت التام الذي ابتلي به أهلها، إلى جانب قلة الوعي، وعمق الجذور الإسلامية المزيفة.

ففي الوقت الذي كانت البصرة ومدن أخرى، تحرز مكاسب شتى، قبل الغزو وبعده، كانت الموصل منكفئة على تخلفها، وبؤسها، تخوض في وحولها، فالموصل لم تستفد إلا بسقط المتاع من نظام المتوحش صدام، على الرغم من كثرة العسكريين من أهلها يحيطون به ويدعمون نظامه، فعلى سبيل المثال أقيمت في عهد هذا الوحش الأهوج في البصرة مشاريع عملاقة بالمليارات: معامل كيمياويات، صهر حديد، أسمدة، سمنت، أرصفة موانئ، قنوات ريّ، جسور جبارة متحركة، بينما لم ينجز في الموصل سوى سد معوّق، "سد الموصل". وعندما قررت السلطة التي جاءت بعد عام 2003 عمدت الى تدمير الموصل وإفناء أهلها، توقعت أن سكانها سيضجون بالشكوى وسيتحركون وسيقاومون لكن الضغوط عليهم كانت قاسية عندما احتلت عصابات داعش المدينة، واجه السكان محناً اخرى وتم هدمها بالطائرات والمدافع، وأخذ قسم كبير من أبنائها يتركون المدينة.

** (النخبة في حالة غيبوبة، تناقش أمورا لا علاقة لها بالتنوير. النخبة الحالية، خائنة للمجتمع لأنها لا تتناول القضايا الجذرية، وكل ما تتناوله هو صراعات شخصية على السلطة) يقول د.مراد وهبة (مفكر من مصر). ما رأيك في هذا الرأي؟

- دائماً النخبة في حالة غيبوبة ويصح فيها ما ذكرتِه أنتِ في علاقتها بالتنوير، والسبب واضح لأن البلد محكوم بعصابات لا علاقة لها بالمؤسسات الديمقراطية، ولذلك تحرص دول العالم الأول على إقامة المؤسسات الديمقراطية والأحزاب السياسية، لتجبر النخبة على تلمس طريقها نحو قيادة البلد بالاتجاه الصحيح.

**هل فشلت الأيديولوجية القديمة التي تكونت في القرن الماضي وتنبتها النخبة العربية من مخاطبة الشباب اليوم فتسببت في ثوراتهم على النظم العربية الرسمية وعلى تلك النخب، أم أن السبب هو الفساد والفشل داخل تلك النظم؟

- نعم، فشلت، ليس في العراق حسب، بل في كل البلاد العربية التي ادّعت التغيير الثوري، لأنها بدأت بداية سيئة، ولعل النخب العربية كانت موحدة في اتجاهاتها، كأنها مصبوبة في قالب، أشبه بقطيع لا يستعمل عقله، سواء أكانت قومية عربية، أو حتى دينية، كلها كانت مغيّبة حتى وهي تقود الجماهير، إنها أشبه بمن فقد عينيه وسمعه، ولم يبق منه سوى لسان يردد شعارات جوفاء. إنني كثيراً ما فكّرت في ذلك، أتساءل لماذا شعوبنا دائماً نائمة، مغيبة، مخدّرة، موافقة على أن يحكمها ديكتاتور عسكري، أو أحمق، شبه أميّ.. لماذا؟ فرأيت أن السبب في رأيي هو الفقر، نحن فقراء فقراً أزلياً، نحن فقراء قبل النفط وبعده، لأن النخب العسكرية الغبية أدركت شيئاً وحيداً صحيحاً، وهو أن تجويع "الشعب" مربوط بشكل دائم بالفقر، والفقر لا يعني سوى سكوته، ويعني طاعته إلى الأبد.

** التسامح موقف إنساني نبيل وقيمة أخلاقية وسياسية لا يمكن فهمه إلا إذا وضع ضد التعصب والجهل. السؤال هل تغفر لمن اعتقلك وفصلك من وظيفتك وأجبرك على الرحيل من بلادك بعد أن صادر كتبك وأتلفها ومنع البعض من أعمالك من التوزيع في العالم العربي؟

- أنا لا احقد مطلقاً، لأنه كان أشبه بمخلوق صغير، يركض وراء من يلبي حاجاته الأساس، لكني لا أنساه. حيث منع الرقيب لي روايتين: (الإيقاع والهاجس) 1968، (وزنقة بن بركة) 1970، ولو سمح بنشرهما، لتغير تاريخ النشر عندي، ولعرفني القراء لا في العراق حسب بل في البلدان العربية أيضاً، وربما ترجم لي قبل ربع قرن من تاريخ ترجمة كتبي، لأن كتاب الرواية كانوا قليلاً في الوطن العربي كله.

وجاء انقلاب 8 شباط، فجمع الحرس القومي كتبي وأحرقها مع جميع كتب ومخطوطات اتحاد الأدباء العراقيين، ومنها مسودة رواية أخرى، عن إضراب القصابين الذي حدث في 1956، الرواية كانت مودعة لدى الاتحاد.

** (لا أعلم شيئا عن الكذب بالنسبة للروائيين. انظر إلى بعض الروائيين العظماء - اعتقد أن سبب عظمتهم أنهم يقولون الحقيقة - يستخدمون في الواقع أسماء مختلفة وأشخاصا مختلفين، لكنهم

يكشفون حقيقة الإنسان ما يسعنا فعله، ما يجعلنا نخسر، نضحك، نبكي، ننتحب، نقع، ونشد على أيدي بعض، نقتل بعضنا ويحب أحدنا الآخر). تقول مايا انجلو (كاتبة من الولايات المتحدة).

الإنسان العراقي يعيش أوضاعاً مأزومة منذ فترة طويلة، هل انعكس ذلك على الأبطال في رواياتك وكيف تقيم علاقتك معهم هل أنت راو لقصصهم أم بطل فيها؟

- بالنسبة للشق الأول: مايا أنجلو تعكس أخبار وواقع مجتمعها، في الغرب يعد الكذب أحطّ صفة يتصف بها الإنسان وبخاصة الأديب، وربما تصف شخصاً ما بالعهر أو الخيانة ويستطيع الدفاع عن نفسه، لكنك إن وصفته بالكذب وأثبت ذلك عليه، يسقط نهائياً، وفي نظري لا ينطبق هذا على المجتمع العراقي إلا بنسبة ضئيلة.

عندنا روائيون ذكروا الحقيقة، بنسب معينة، كالتكرلي، ذكرها لأنه مثقف، ونزيه، وكذلك علي الشوك، بطبيعة الحال جئت بهذين المبدعين، على الرغم من الفارق الفني بينهما، لكني ذكرتهما لعلاقتهما بالأخلاق. أنت تستطيع أن تثق بما قاله أمثالهما. لكن البعض الآخر من الروائيين، كانوا عكس ذلك، ولم يلتزموا بالصدق الفني، وبخاصة في زمن البعث، وبعد 2003، هناك روائيون وقصاصون لم يعكسوا واقعهم، بل زيّفوه، ليسوا وحدهم بل زيفه معهم الشعراء بأنواعهم أيضاً، شعراء لغة فصيحة أم شعبيون.

وهذا ما لا تجده عند باقي الشعوب، ولأن السياسي كان مضطهداً زمن البعث، بالغ بعض الكتاب الروائيين في تصوير التعذيب إلى حد خرافي غير معقول، ليرضوا حقد المنحرفين والحكام، فعلى سبيل المثال يذكر أحدهم أنه كان معلقا من يد واحدة أكثر من خمسة عشر يوماً، وهذا سابع المستحيلات، لأنه سيموت أو تنقطع يده خلال يومين، إلا إن كان وزنه أقل من كيلوغرام واحد. وتطرف أدباء آخرون في سب ونقد العهد الديكتاتوري، وضربوا أشنع الأمثلة، فعلى سبيل المثال هناك كاتب أبرزه الاحتلال ومؤيدوه أصدر رواية بعد الاحتلال ببضع سنين، أخذ فكرة إحدى رواياتي "الموت الجميل" هذا الكاتب يصور استعانة صدام حسين بخبير نسب، لصياغة شجرة عائلة ترتبط بالرسول. الرواية هي "أصغر.. أكبر، أو أكبر أصغر إلخ".

أما بالنسبة للشق الثاني، فأبطالي يعيشون أوضاعاً مأزومة، منهم من يموت، ومن يعاقب فيعدم، أو يهرب. أبطالي أشبه بالناس الذين لقيتهم في حياتي، مختلفون. يكادون يمثلون أبناء الشعب العراقي بمختلف طبقاته وفئاته، وهم على الأغلب مقهورون مناضلون لتحسين أوضاع حياتهم

اِخْتِيَارٌ

يوسف أبو الفوز* - فنلندا / خاص

مَنْ جَعلني أقوم بتلك النزوة؟ ربما هو حظ شارا، زوجتي، التي طالما حاولت أن تليّن بعض مواقفي. كنت أحرص على عدم إغضابها، وكل مرة أقول:

ـ سأفكر بما تقولين!

لكن ما ان تمر أيام، حتى تتفاجأ بكوني تصرفت بالطريقة نفسها التي لامتني قبل أيام بسببها، وفي كل مرة لا يكون عندي غير الحجة ذاتها:

ـ ان مثل هذه الامور، مبدئية، يا حبيبتي ، ولا يمكن لي تجاوزها أو تغييرها!

تغلق الباب، حتى لا يسمع ابناؤنا ما تود ان تقوله لي من بين اسنانها وتحاول ان يكون صوتها هامسا:

ـ لكن يا حبيبي، الحياة تتغير والافكار تتغير، وانت انسان تؤمن بالعلم والتطور، وانت ...

قبل الخروج لتنفيذ ما عزمت عليه، كنت اتحدث بالهاتف مع ابني الكبير، وطلبت منه اعطاء الهاتف لأمه، لحظة انطلق من الجامع القريب للفندق صوت الآذان، وثم مثل فرقة عسكرية لسلاح المدفعية، في حرب جبهوية، انطلقت في سماء اربيل، عشرات الاصوات وبالحان مختلفة تطلق الآذان نفسه. قبل ايام قال سلام بصوت غاضب:

ـ تصور، في اربيل وحدها يوجد اكثر من

مئتي جامع!

قال سه ردار:

ـ لا مستحيل، الحكومة حددت مؤخرا الاجازات لبناء الجوامع وهناك تشديدات في الامر!

وبغض النظر عن من هو صاحب الرأي الصحيح، فأني وانا اشعر بالجوع يعضني خطرت لي الفكرة. في الصباح افطرت بشكل خفيف، وغير الماء لم أتناول شيئا، زرت المستشفى لاطمئن على قريب لشارا يرقد هناك، حاملا باقة ورد وكيس برتقال ومر عليّ النهار سريعا. كانت شارا في كل اتصال هاتفي تذكرني بمواعيد حبات الدواء كيّ لا انساها، ولأخذ الدواء يجب ان لا تكون معدتي فارغة. سألتها عن الطقس عندهم في كوبنهاغن. ضحكت وقالت شيئا لأبننا القريب منها. هي تعرف ان درجات الحرارة في اربيل تقارب الخمسين. قبل ان ترسل قبلة عبر الهاتف مودعة، طلبت

مني ان لا انسى شراء قبعة للرأس تحاشيا لضربة الشمس. كنت اتصلت مع سلام وسه ردار. اعربت لهما عن فكرتي التي بدت لي كنزوة ، واخذت تاكسي لانتظرهما هناك.
ليس بعيدا عن قلعة اربيل، على ناصية شارع فرعي، قريبا من نصب لحمامة عملاقة من الجبس الابيض الذي بدا لونه كالحا بأثر عوادم السيارات المارة، حيث النهار يفترش الارصفة باعة مختلف السلع، ومع اول المساء، ينصب بائع شواء موقده هناك وينثر بضعة كراس بلاستيكية، والى جانبه يفترش بائع زجاجات ماء جانبا من الرصيف، وليس بعيدا عنهما نثر حول موقد نار كبير بائع شاي اباريقه الملونة واستكاناته المزخرفة بزهور نارية. مررت بهم كذا مرة، راقبتهم وجلست اليهم مرة، واعجبني تكاملهم في العمل. تأكل عند صاحب الشواء نفر كباب مع طماطة مشوية، تشتري من زميله زجاجة ماء، وتشرب شايا او اكثر عند الثالث، وتدفع لصاحب الشواء ثمن كل ذلك، وفيما بينهم يعرفون كيف يتقاسمون ما دفعت. الى هناك دعوت سه دار وسلام:
ـ نأكل لحما مشويا ونشرب شايا ساخنا ونتفرج على حياة اربيل في الليل!
صاح سلام على الهاتف:
ـ اختيار جميل!
وامتعض سه ردار:
ـ أنا ابن اربيل، اعرف عشرات المطاعم والاماكن الهادئة الجميلة، نزواتك الرومانسية الثورية لم تستيقظ إلا اليوم؟
ووصلا باسرع مما كنت اتصور. كنت للتو تبادلت الحديث مع بائع الشواء ووجهت اليه بعض الاسئلة حين وصل سه ردار، متأففا من زوجته:
ـ يا رجل بالكاد اطلق سراحي، تلومني لاني لم ادعوك الى منزلنا للعشاء، لا تريد ان تفهم انها رغبتك في الجلوس في مكان عام شعبي وحنينك لاصولك الكادحة.
وصل سلام متأنقا بشكل لا يتناسب والمكان، ما جعل العديد من المارة يوجهون الينا نظرات الاستغراب: مالذي يفعله هؤلاء الافندية في مكان اعتاد الجلوس فيه الكسبة والعمال؟
ما ان التم شملنا حتى علا صوتي طلبت تجهيز ما رغبنا فيه من مشويات، وراح سه ردار يعيد الى مسامعنا ذكرى تلك الليلة العصيبة التي وقعنا فيها في كمين لقوات الجحوش.
ـ هل خطر ببال احدكم ليلتها اننا سنجتمع هنا يوما ما ونحكي عن ليلة كاد الرصاص فيها ان يحول كل منا الى "سر الليل"؟*
ضحك سلام:
ـ لو تتصورا درجة خوفي يومها؟ السفلة كان كمينهم معدا بشكل جيد، كانوا يريدون ابادتنا جميعا لو لا...
وقاطعه سه ردار :
ـ انت تخاف؟ كفاك تواضعا يا ملعون، لولا مبادرتك ورد نيرانك السريع لما استطعنا تجميع انفسنا وتنظيم حالنا؟
ضحك سلام وعيون الفخر تلمع في عينيه:
ـ لا تنسيا، المبادر الاول كان الشهيد قادر، انا كنت التالي!
لا اعرف كيف اكملت طعامي وكيف وصلتنا اقداح الشاي، وأي نكتة رواها سه ردار وضحك لها سلام، كنت غارقا مع طيف قادر الذي ظل يدور حولي في وجه بائع الشاي مرة وبائع الكباب مرة اخرى. كنت احاول ترتيب ذكرياتي عن رجل كان

في حضوره أخف من نسمة على الاخرين. وسط حياة الانصار القاسية التي تفتقر لابسط متطلبات الحضارة، كانت الخشونة تبدو أمرا طبيعيا، الا مع هذا الرجل النحيل، المتوقد العينين. حاولت تذكر لقائي به لاول مرة، خروجنا معا في مفرزة استطلاع وكيف تعلمت منه كلماتي الكردية الاولى. اخبرني انه اراد اول الامر توريطي بدفع من بعض الانصار ليعلموني كلمات فاحشة على انها عبارات مودة وتحية، لكنه اعترف بكونه شعر بالخجل اذ رأى حماسي لتعلم لغته القومية، وخصوصا ساعة ان عرف اني ابن عامل مخبز مثله. كان يكبرني بخمس سنوات، لكننا صرنا اصحابا نتهامس ونتبادل أسرارنا الصغيرة. يوم وصلتنا اخبار استشهاده في كمين غادر، في سلسلة أحداث "اقتتال الاخوة" **، بكيت بحرقة. لا يمكن لاحد كان هناك معنا، في تلك الليلة من نيسان، ليس بعيدا عن معسكر ماوت، الا وان يبكي رحيل قادر. كاد ليلتها ان يفقد حياته فداء للاخرين. كان النصير الثاني في ترتيب المفرزة. أعد الجحوش السفلة لكمينهم جيدا، كانت لديهم معلومات دقيقة عن عددنا وسلاحنا، واوقات حركتنا. توزعوا على الاماكن على طريق عبورنا. سقط النصير الاول جريحا من أولى اطلاقات كمين العدو، أسنده قادر جانبا وفتح النيران فورا، ولم يتراجع، التحق به سلام، وظلا معا يشاغلان الكمين، حتى استطاعت بقية المفرزة ترتيب حالها ومساعدتهما في سحب الجريح. تابعت قامته النحيلة ببطء وهو يضع اقداح الشاي امامي. سألته:

ـ ما هو دافعك في كل مرة للمخاطرة بحياتك؟

نظر لي بائع الشاي باستغراب وسألني:

ـ عمو، ماذا قلت؟ هل تتحدث معي؟

صرفته بسرعة بابتسامة وهو ينظر لي باستغراب. انتبهت الى سلام وسه ردار المشغولين عني في سجال لا ينتهي. كان وجه قادر يتألق بحب تحت فانوس قاعة الانصار بسقفها الخفيض، حين سألته. نظر اليّ باستغراب واجاب من دون تفكير:

ـ انها قضية مبدئية!

انتقل سلام في حديثه الى ما يغيظ سه ردار في ذكرياتهما، حظهما مع النساء، فحاولت ان لا اتدخل. شعرا باستمتاعي بما يجري بينهما، يعرفان أنه يروق لي دائما متابعتهما، يختلفان ويتصايحان وسرعان ما ينسيا سبب الخلاف، فيعاودا الضحك والمشاكسة، تماما مثلما كانا في الجبل. كان قادر يقول:

ـ لن يكبرا، اقسم لك انهما سيظلا طفلين حتى وان صارا جدّين، الصداقة عندهما قضية مبدئية!

اقترب مني طفل تجاوز العشرة أعوام، بثوب قديم، لكنه نظيف. كان ثمة سؤال قلق يطوف في عينيه سرعان ما قال بلغة عربية سليمة:

ـ عمو، تصبغ حذاءك. عندنا صبغ اصلي من تركيا وشغلنا نظيف وسريع!

أعجبتني طريقته في الكلام ووقفته المتزنة. لم يكن يتصرف كطفل. كان رجلا بثياب طفل. حول خصره تتدلى حقيبة قماشية صغيرة فهمت انها تحوي اتعاب عمله اليومي. مشكلتي انه في كل حياتي لم اترك احدا يصبغ لي حذائي، مهما كان. أشعر بالخجل من ذلك، اشعر ان فيها امتهانا للاخر. تعلمت ان اقوم بهذه المهام بنفسي.

كانت شارا في بداية زواجنا تعاركني على ذلك. قلت لقادر يوما:
ـ اعتبر هذه الامور البسيطة قضية مبدئية، فأنت تشعر بإنسانيتك اكثر حين لا تحمل الاخرين مسؤولية إنجاز أعمالك الخاصة.
شارا صارت تشاكسني أحيانا وتقول لي:
ـ تعجبني مبدئيتك، يا ريت تعد الشخير مخالفا لمبادئك وتتوقف عنه وترحينا في نومك!
لا ادري لم خطر لي ان أسال الطفل الواقف امامي منتظرا جوابي:
ـ اولا هل يمكن ان اعرف اسمك، ومن أي مدينة؟
نظر لي الطفل بقلق، لكنه يبدو اطمأن لابتسامتي فقال:
ـ اسمي قادر وأهلي من مناطق ديالى!
اهتز استكان الشاي بيدي. هل في هذا معنى ما؟ لو كانت شارا معي لفسرت الامر بالف شكل، لا يوجد عندها شيء يحدث عرضا. لا يمكنها ان تؤمن بالصدفة. تعتقد ان الصدف موجودة فقط في الافلام السينمائية والروايات العربية. دائما لديها احساس بان قوى خفية تسير العالم لا علاقة لها بالايمان والدين:
ـ حبيبي لا يوجد شيء في هذه الحياة بدون معنى هكذا تقول حكم الاولين!
لم اسأل الطفل لِم هو وعائلته في أربيل، اعرف ان اعداداً كثيرة من العوائل العربية تركت أماكن سكنها ونزحت طلبا للامان الذي وجدته في مدن كردستان، اثر تواصل حوادث العنف الطائفي في المناطق الغربية من البلاد. استفزتني صدفة كونه يحمل اسم انسان كنت افكر فيه طوال الوقت. اثارني جدا وقوف الطفل امامنا، فعلى الرغم من كل كبريائه الا ان في عينيه الوديعتين ثمة كلاما اخر. ثمة رجاء بسماع الموافقة مني على طلبه، فقلت له بصدق :
ـ اعطيك الالف دينار لكن سأصبغ حذائي بيدي، فقط أعطني الفرشة والصبغ!
توقف سه ردار وسلام عن حديثهما وراح يتابعان حديثي مع الطفل، الذي نظر اليّ مستغربا ونقل بصره بين سلام وسه ردار، ثم بلع ريقه وقال:
ـ عمو، هذا ما يصير!
وانتبهت الى قوة رفضه. فضحكت، فواصل رده:
ـ عمو هذه معناها انت تعطيني صدقة، وامي تقول نحن لا نقبل الصدقة، يجب أن نأكل خبزتنا من عرق جبينا.
كانت كلماته مثل حجارة تتساقط في مصب ماء بارد فيتطاير رذاذ الماء يبلل كل شيء، ويفقأ العيون. الطفل يبدو أنه يسمع نصائح وكلام أمه جيدا، ويلتزم بما تقوله له. لم أود أن اثير مواجعه بسؤاله عن ابيه. ربما يكون فقد حياته ضحية للعنف الطائفي، وربما يكون سجينا نتيجة نزاعات سياسية او عشائرية. أمامي حقيقة تتلخص في وجود طفل يرفض ان يقبل الشفقة. أعجبني كبرياؤه ومبدئيته. قال قادر مرة:
ـ الانسان من دون مبادئ ثابتة مثل خشبة يتقاذفها مجرى ماء!
قلت للطفل:
ـ اعطيك الفين دينار مقابل استخدام فرشاتك وصبغك لأني متعود اصبغ حذائي بنفسي!
نظر لي، وقلب بصره بين سلام وسه ردار:
ـ عمو، انت تعرف أني احتاج هذا الالف

دينار لمعيشتي انا وأمي واخواتي، الله يخليك، خليني اصبغ حذاءك حتى اقدر اقول للناس حصلته بتعبي!
كنت حائرا، هل أخون مبادئي وأترك الطفل يصبغ حذائي بنفسه؟ أم ارفض ذلك واحرمه من رزقه؟ كان قادر يقف جانبا يضحك ويهمس لي:
ـ احيانا ربما تضطر من اجل الحفاظ على مبدئيتك ان تكون قاسيا، واحيانا من أجل كسر القسوة عليك ان تتناسى مبدئيتك!
لكن هل تكون نزوة القدوم الى هذا المكان قدرا للوقوف امام محنة الاختيار، كما تقول شارا؟ هل واجه قادر هذه المحنة وهو يغطي انسحاب رفاقه، في تلك الليلة من أيار، عند مضيق الجبل، طالبا منهم ان يسلموا له على الجميع قبل ان يستشهد برصاص الايادي الغادرة؟
هاهو قادر يقف امامي. تختلط الصور. قادر بابتسامته الواثقة وشواربه الكثة، والطفل بوجهه الناحل البريء وصوته المفعم بالرجاء:
ـ ها عمو .. تريد اصبغ لك؟

*** قاص وروائي عراقي يقيم في فنلندا**

**** سر الليل: درج المقاتلون الانصار على استخدام أسماء الشهداء كعلامة تعارف "سر الليل".**

***** تسمية شاعت عن الصراع والاقتتال غير المُجدي، بين الاحزاب والقوى السياسية المعارضة للسلطة السابقة.**

إشارات دلالية في رواية (مسرات سود) لـ (علي فواز)

رنا صباح خليل

بعد قراءة رواية (مسرات سود(لعلي فواز الصادرة عن دار الشؤون الثقافية العامة، وهي روايته البكر بعد تاريخ رصين مع الشعر والنقد، نراه يخوض غمار الروي للمرة الاولى، وهي تعدنا بمنجز يضاهي أدبيته، إذ اجدها تعمل على توظيف الجسد بوصفه مرموزا لدلالات القمع السياسي وإرهاب السلطة ومهيمنا لألوان القهر والتعذيب فيها، ذلك ان للرمز طاقة تعبيرية وإيحائية لا بد من الركون اليها عندما يكون الحديث عن الانتهاك الجسدي، غير ان موضوع التعذيب له خصوصيته في ترسيخ مفاهيم الذل والإهانة في أدب السجون على الرغم من إن الأدباء تناولوه في حدود ضيقة في اعمالهم مع استثناءات قليلة انتجت منه منجزا هاما في السردية العربية. تروي (مسرات سود) حكاية سجين تعرض للتعذيب في المعتقل من دون ان يرتكب تهمة، بل انه انسان بسيط بعيد عن السياسة والافكار المعارضة للسلطة ولا هم له سوى ارتياد البيوت الرخيصة التي اوصلته لغياهب السجون وعذاباتها.

تقوم الرواية على ثنائيات عديدة منها السجان والسجين، اللهو واللعب والجِد والعذاب، الماضي بتشوهاته والحاضر بآلامه، لكن انشغال صاحب الرواية بتقديم صورة فنطازية تتلاعب بجغرافية الجسد للمعتقل الاستثنائي وهو يتعذب من قبل (مهاوي) السجان جعلت الرواية ترتكز في اشتغالها على قضية اليد الثالثة التي كانت تطلق على رجولة السجين ضمن ايديولوجية روائية تدفع السرد نحو التجريب الفني الذي يأخذ الرواية من خلال ايقونة ذكية الى ذريعة فنية متميزة تقوم على تقليب مواضيع شتى داخل ثيمة سوداء خانقة، فالرواية ليست رواية احداث تتأجج فتصل نحو الذروة ومن ثم الانفتاح والنهاية، انما هي رواية فكرة قد تعيش مع القارئ طويلا لبشاعتها، بعد ان

يفرغ من قراءة الرواية وربما يزعم آخر ان الرواية رواية شخصية ايضا وله الحق في ذلك فهي عبارة عن صراع بين شخصيتين منذ مفتتحها حتى النهاية وهذا ما يفسر منح شخصية مهاوي وهي من الشخصيات المسطحة الثابتة على مدار الروي، بطل الرواية صاحب الشخصية المستديرة الديناميكية يعطي بعدا جماليا نرجعه الى جماليات القبح في مرجعياتنا الأدبية وهذا جعل الرواية بمحتواها التعسفي تعني كل الناس رغم انها لا تعني أحدا، فهي رواية تنتمي للأدب الواقعي وهي مغلفة بـ(سلفون) السخرية السوداء.

الرواية تتحرك ضمن حيز العتمة في محاولة لإظهار المضمرات الاجتماعية والسياسية التي لا يفقهها غالبية الناس، راسمة لقارئها محنة جسد واقع تحت وطأة ثلاث جهات للعنف (عنف بايولوجي عضوي من اثر التعذيب وعنف الواقع بلا عدالة من خلال زجه في السجن وهو بريء وعنف عطب الذاكرة وضياع الحياة حتى بعد الخروج من السجن)، على ان هذا الجسد لم ينس ان يكتب حكاية ألمه متخما ومثخنا في الرواية حتى حقق لنا نوعا من التشبع للدلالة التي كان يضمنها أبعادا فلسفية وتأملات وجدانية تثري الدوافع الخفية المعرفية منها والجمالية التي تؤثث تواتره عبر الصور والصيغ الاسلوبية التي تؤطر ايقاع الجسد وهو في اشد حالات الألم بعدما يتعرض للانتهاك الجنسي والبدني من قبل مهاوي السجان، وبهذا فالجسد ليس موضوعا مدركا فحسب، انه فضلاً عن ذلك يشكل حجما انسانيا فاعلا ينتج القيم كما يستوعبها ويولد الدلالة عن طريق وعي محايث ناتج عن انفلاته من حبائله الطبيعية .

قد يتحرر المؤلف نوعا ما من سيطرة الفكرة الخاصة في نصه الى فكرة انسانية أرحب واعمق وهو يخرجنا من موضوعة التعذيب ويرمي بنا الى اصل السجان مهاوي ومخاضات حياته التي لا تخلو من غبار يلفها وسوداوية تعكر صفوها فقد نشأ لأم رخيصة وأب ضعيف الشخصية هزيل الفكر، وقد عانى من مازوخية زوجته بسبب ضعفه الجنسي فكانت كل الممارسات التي يرتكبها بعنف مع السجين مؤداها ما يخوضه من عذاب على يدي زوجته، وقد وظفها الراوي على وفق مشهدية صادمة تتجاوز مساحة الرؤية الاحادية للمتلقي، وحولها الى طاقة الشخصية وهي تحيل ذاتها مكونا سرديا له دوره الابداعي الهام من خلال التفصيل في سيرة الجلاد وتفننه في ايذاء الاخرين، دفاعاً عن سيده الطاغية، لتضع القارئ أمام صورة بشعة لوحش تخلص تماما من كل ما يربطه بالادمية، وللافصاح عن كل ذلك قام الروائي بتحطيم اللغة الايحائية وانتهكها ليعبر عن الرغبة الحسية للسجان السادي.

ان من اهم مقومات الرواية ان ترتبط في نشوئها بالبنية اللغوية وهي تراعي اداء الشخصيات وعلاقتها بالبنى السردية التي يقع على عاتقها تحليل مكونات المحكي وابراز عناصره. وللسرد مكونات ثلاثة هي الزمن والرؤية والصيغة. اما الزمن فهو زمن استرجاعي اذ تبدأ الرواية من

نهايتها عن طريق حديث البطل وهو يستذكر خطوته الاولى، ذاهبا للمقهى بعد خروجه من السجن، اما زمن الحدث مقارنة بزمن السرد فانهما يحتويان على تناسب نسبي وصيغة السرد هي صيغة السرد الذاتي الذي يتبناه الراوي. وللوصول الى الرؤية السردية علينا تتبع التحليل الاسلوبي للرواية عبر تتبع عناصر الرواية التي ذكرت لتتكشف لنا ادلة وعلامات هادية تؤدي الى الظفر باستكناه معنى النص واستغوار آثاره، ولو استقرأنا نصا من الرواية "لهفته حارقة لاستعادة التوهج والاشتعال وحاجته للفحولة لا تعني له شيئا سوى رغبته الحميمة في تذكر طقوسه الجنسية، إذ يعرف ان الرجال حوله لا يفلسفون الذكورة الا من خلال اسرارها السريرية، وان العجز فوق السرير يعني لهم عجزا في كل شيء ..."، فإذا تأملنا هذا المقطع من دون ان نتناسى طبيعة العمل الروائي بوصفه صورة للواقع سنكشف ما وراء ذلك العطب من تهشيم للشخصية التي تعطينا المفاتيح، ومن خلالها ندرك ونفهم ونؤول ما كان يحدث من عذاب افصح عنه الراوي تأسيسا لخطاب آخر مختلف، يرقى بقيمة الذات اذا ما تخلصت من مسوخها واستطاعت ان تزيح الصورة المشوهة كي تنتج صورة الجسد المعافى الذي اصبح من المستحيلات.

"جمر وندى" سيرة من لا يندثر

ذياب شاهين

تفصح هذه الرواية عن نفسها إذا كنا سنتفق على مسماها الروائي فهي تقترب من العالم الروائي لمسافة ملموسة، ولكونها (رواية سيرة) فقد ظلت أمينة على أحداثٍ خاصةٍ بحياة الراوي وهي أحداث حياة الكاتبة ذاتها بوصفها تسجيلا لمحطات بارزة من حياتها الممتدة ما بين ما سمتها سنوات الجمر وسنوات الندى. الأحداث تشدُّ القارئ من أول صفحةٍ، حتى آخر صفحةٍ، والشخصية الرئيسة هي الكاتبة ذاتها حيث تلقي بقعاً ضوئية على محطات منتخبة من حياتها، منذ تفتح عينيها على الحياة ونمو وعيها مرحلة إثر مرحلة، القارئ يلمس نمو الشخصية نموا حثيثا لارتباطها بالمجتمع الذي تربت به، فهي من عائلة شيوعية مثل الكثير من العوائل العراقية التي أحبت الحزب الشيوعي العراقي وانتمت اليه أو تلك التي كانت تحب الزعيم عبد الكريم قاسم وبقيت وفية له على الرغم من محاولة (البعث) المكروه اجتماعيا ومسحه من الذاكرة الجمعية للمجتمع العراقي.

الفرق ما بين السرد السيري والسرد التاريخي هو أنَّ الأول فردي مرتبط بمجموعة من البشر في بقعة معينة من المكان والزمان. أما التاريخي فهو يسرد حياة السلطة في تلك البقعة الزمكانية ولكن تأثيرها يمس حياة المجتمع، وبالتالي فهما يفارقان السرد الروائي بقضايا راسخة وهي من صلب العمل الروائي متمثلةً بالحبكة الروائية والتخيل والمحاكاة، وهذا يعني أنهما يلتقيان عند نقطة واحدة هي أن الراوي أو مجموعة الرواة يسردون أحداثا حصلت فعلا وليست أحداثاً يتخيلها الراوي.

وفي رواية (جمر وندى) نجد سردا لأحداث

تاريخية حصلت في العراق، لكنها لم تنقلها بصيغة السرد التاريخي بل بصيغة أحداث خارجية أثرت على حياتها وحياة عائلتها ولو أنها لم تستطع أحيانا من التخلص من سطوة التاريخ السياسي العراقي وسردت بعض الأحداث وكأنها مؤرخ يسجل تلك الأحداث وهذا ليس عمل الروائي الذي يصنع من الحدث السياسي حدثا موازيا لكي ينقذ عمله من التقريرية والمباشرة التي تفسد فنية العمل الروائي فنيا.

ولو قمنا بتحليل العمل على مستوى (المكان والزمن والشخصيات والأحداث) وهي أركان العمل الروائي بحسب عبد الملك مرتاض، فسنجد أن المكان أو الأمكنة في هذه السيرة الشيقة مثل تركنا رمزيا في الحدث الروائي لمكان أكبر تمثل بالعراق بوصفه حاضنة لتلك الأحداث المتناوبة جمرا وندى، فالحلة وبغداد بمناطقهما السكنية تمثل أمكنة الأحداث منذ الطفولة واليفاعة والشباب، وعندما أقرأ أن الكاتبة قد عاشت مع أهلها في (عكد المفتي) في الحلة أتذكر أن بيتنا كان يطل على هذا المكان وأعرف تفاصيله جيدا، وحينما تنتقل عند الشط أو حي بابل فهي أمكنة ليست غريبة عنا إنما هي نحن حيث عشنا والقارئ ملتحم مع الشخصية السيرية وكأنه يستمع لسيرته أيضا، ولكن انتقال عائلة الكاتبة إلى بغداد يفتح لها أفقا آخر وعالما موازيا لمكان ولادتها فهي كمن وضع قدما في بغداد العاصمة والأخرى في الحلة، والعواصم كما يعرف الجميع في الدول المتخلفة تمثل أكثر من نصف البلد حيث يهرع إليها كل من يبحث عن مكان آخر أكثر اتساعا طلبا للعمل أو العلم، وكذلك ما يتبعهما من شهرة أو مال وهو غير موجود في المدن العراقية الأخرى التي تتميز بالتهميش والإبعاد، فضلا عن الفقر والبؤس، وبالتالي نشهد في الرواية تواشجا قويا بين المدينتين من خلال حياة الشخصية للكاتبة، حيث تتوالى الأحداث مسرعة ابتداء من المدرسة الابتدائية وثمَّ المتوسطة حتى الجامعة، حيث تنسج من خلال هذه المحطات شبكة من المعارف والأصدقاء ويبقى لهم تأثير واضح على حياتها سواء بالسلب أم الإيجاب، وهذا التنوع الاجتماعي يكتسب أهميته مما يضيف لشخصية الكاتبة قوة وقدرة على التحمل في الزمن المعادي الذي عاشت به، وقد ارتبط في حياة الكاتبة ما هو شخصي جدا وخاص بالمرأة كالمواقف الصعبة وما يصاحبها من خجل جميل حين نزل عليها المطر في الشارع وظهر الجزء الأعلى من جسدها شبه عارٍ في الشارع، وهي لا تعرف ماذا تفعل، أو كالحب الأول من مدرسها الذي سافر وتركها معلقة، ومن ثم الزواج من رجل آخر حينما انتهى الحب، ولم تحدث القسمة، أو حادثة هروبها مع زوجها خوفا من السلطات إلى جنوب العراق وتركها طفلتها ذات السنتين، وكذلك حادثة طريفة تمثلت بسرقة سيارتها وتنازلها عن حقها، وعلى الرغم من دراستها اللغة الألمانية مما عزز من قوتها المعرفية بامتلاكها لغة مهمة بالإضافة إلى لغتها الأم، ولكن أهم محطة في حياتها كانت عملها في جريدة (طريق الشعب) بتوصية من حبيبها المسافر،

وهناك وجدت عالما جديدا على المستوى المهني أولا وعلى ما فاض عليها من قيمة إنسانية ومجتمعية، وكذلك بما ينطوي عليه من مبادئ فكرية وأخلاقية رفيعة، حيث تعلمت أبجديات العمل الصحافي، وليصبح فيما بعد طريق حياتها، وقد وجدت نفسها من خلال ذلك المكان إنها قد انتمت إلى ما يتفق مع فكرها وانتماء عائلتها بالرغم من خوف أهلها عليها، لكنها كانت من الشجاعة أن تمضي للأمام غير عابئة بما كان ينتظرها من أهوال نتيجة لهذا الخيار، لكن الشيء الجميل أنها أيضا تعرفت الى الرجل الذي أحبها والذي ستتزوجه لاحقاً ليكون أبا لابنتها.

الحدث الروائي يجري متناغما ما بين الشخصي والتاريخي ابتداء من زمن معروف لنا حيث يمتد من عهد جمهورية عبد الكريم قاسم الخالدة، ومن ثم مجيء زمر البعث المجرمة بانقلابييها المريبين، حيث تسرد ما حدث لأختها في انقلاب شباط من تعذيب وترهيب وما ارتكب من جرائم من قبل عصابات الحرس القومي ورشاشات بور سعيد سيئة الصيت، وكذلك تصف ما كان يحدث في جمهورية الرعب في اختطافها الثاني للسلطة، تلك الأحداث المحزنة قد كانت هي الأثيرة في النص المكتوب حيث احتل الكثير من جسد الرواية وكانت الراوية تتناوله عن طريق ما كانت تجود به ذاكرتها وتختزنه. والحدث لمن يقرأ الرواية كان مألوفا وكأن الكاتبة تحكي علينا أحداثا عشناها جميعا وكلّ على طريقته لكنه يتشابه إلى حدٍ كبير فلكل منا قصته التي يجب أن يسردها، لكن قصة الكاتبة تنبع من كونها كانت في قلب الحدث وعيون السلطة تنظر إليها بدون نظارات مكبرة، فقد كانت قريبا من يد السلطة الطويلة والقاسية والتي تراقب كل شاردة وواردة في الجريدة على الرغم مما يسمى بالجبهة الوطنية البائسة والفخ، التي عمدت الى تهديم الاتفاق مع الحرية لاحقا عن طريق كشف أعضاء الحزب الشيوعي وقياداته. والكاتبة تسرد ماذا جرى لها ولأصدقائها في الجريدة وكذلك رفضها الخروج من العراق، بعد أن جلب الحزب لها ولزوجها جوازي سفر كي تخرج من العراق، بعد أن اشتد التضييق والخناق وبدأت حملة التوقيع على قرار 200، المجرمة، وأخذت السجون تمتلئ بكوادر الحزب من قبل حلفائهم البعثيين في الجبهة، لكنهما رفضا الخروج وبقيا في العراق وكان الثمن غاليا حيث تم إلقاء القبض على زوجها، وليعدم بعد عدة سنوات من حبسه في مديرية الأمن العامة، ومن ثم تسرد لنا اختفاء أختها بحدث تراجيدي لا يمكن تصديقه ولا يحدث إلا في الأفلام، أما هي فقد بقيت تحت رحمة السلطة لتحارب من قبل ذيول النظام ومرتزقته مع ابنتها الصغيرة وكانت تلك السنوات تمثل سنوات الجمر لها، ولكن الحياة لم تعدم شيئا من الندى عنها، لتربي ابنتها وتعيش في كنف عائلة زوجها وأهلها ومواجهة قساوة الظروف.

ومن ثم تتوالى الأحداث (قادسية صدام، احتلال الكويت، والحصار والطحين الأسود)، وبعدها تبدأ مرحلة جديدة حينما

تغادر وطنها إلى (الإمارات العربية) لتعمل في الصحافة وتواجه سنين أخرى من جمر الغربة من عناء ومزاج أرباب العمل، وكذلك العمل مع بعض المحتالين في المجال الإعلامي عن طريق الصدفة أو حسن نية ممن تزخر بهم تلك الأسواق التي تجمع الجيد والرديء، وبعد معاناة يلتفت لها القدر أخيرا فتجد عملا في مكان محترم تعيش فيه ومن ثم تسحب ابنتها معها لتعملا معا في أبو ظبي، ولكي لا أفسد على القارئ متعة القراءة كان لا بد من القول إن الكاتبة اعتمدت على ذاكرتها المتوهجة في سرد الأحداث، وهي لم تعبأ بخطيئة الزمن بل كانت تكسر خطيئته مما لا يجعل خيط التشويق يفلت من يدها. الرواية مكتظة بالأحداث، لذا فقد كان الحدث هو البطل الأول أما الزمن والمكان فهما معروفان لنا أو بالأحرى لي على الأقل لأنني عشت بالأمكنة ذاتها والزمن ذاته الذي تعرفت فيه الى الكاتبة في دولة الإمارات أيضا. أما الشخصيات الروائية فهي شخصيات حقيقية ومن دم ولحم فالرواية تمثل سردا لحياة الكاتبة ولا وجود لشخصيات متخيلة، فقد كانت مجاورة للراوي أو الكاتبة ذاتها. وبعضها كانت له مساحة خاصة وبعضها مر مرور الكرام وبحسب التأثير الذي تركه عند الكاتبة، وقد سردت الكاتبة قصصا عابرة عن شخصيات معروفة مرقوا في حياتها، والسؤال هو: هل كان يمكن للرواية أن تكون أكثر عمقا مما رأيناه، وخصوصا اهتمامها قد انصب خلف ضخامة الأحداث وهولها وتراجيديتها من خلال السرد اللاهث والسريع خلف الحدث كي لا يفلت من يدها. برأيي المتواضع أعتقد أن الكاتبة قد اهتمت بالحدث وكذلك بأسماء الشخصيات الذين تعرفت إليهم، ويبدو أنه لم يكن واردا لديها أن تعمد لأشياء أخرى كوصف الأمكنة أو وصف الشخصيات وملامحها أو وصف الأمكنة أو استخدام أصوات متعددة في السرد، لأنها ببساطة أرادت أن تؤرخ لحياتها سيريا بوصفها واحدة من الناس المهمشين في هذا العالم القاسي، الذي يتلاعب بمصائر الناس من دون رحمة..
منى سعيد قد نجحت الى حد كبير على الرغم من كون هذه الرواية تمثل تجربتها الأولى.

*** ناقد و كاتب من البصرة**

(مجلة الثقافة الجديدة ودورها الثقافي ..)
لإبراهيم الخياط

شكلت حياة الشاعر الراحل ابراهيم الخياط، حضورا متميزا في الاوساط الادبية والثقافية والاكاديمية، وخلال فترة زمنية قصيرة، رسخ وجوده علامة فارقة في التعامل الانساني الراقي، وفي عطائه الثقافي الذي كانت ثماره بارزة بشكل واضح عن طريق تحرير صفحات (ادب وفن) في مجلة (الثقافة الجديدة) مثلما كانت ادارته للاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق، بوصفه اميناً عاماً، ومن ثم طالباً جامعياً حصل على رسالة الماجستير من كلية الاعلام، واستعد استعداداً علميا ومعرفيا لتقديم اطروحة الدكتوراه.

كلها مجتمعة، جعلته يحظى بمكانة مرموقة، كان قد مهد لها في بداية عمله مديراً لإعلام وزارة الثقافة في اول وزارة تراسها الاستاذ مفيد الجزائري بعد العام 2003.

لذلك جاء رحيله في حادث مروري مؤسف قبل عامين، وهو في توجه يؤدي فيه مهامه الادبية، بمثابة الصاعقة التي فاجأت الجميع.. حتى اصبحت الصحافة العراقية والعربية في شاغل مستمر تتحدث عن شخصيته الوطنية وبسالة مواقفه وثراء شاعريته التي قدم فيها (جمهورية البرتقال) تلك الجمهورية/ الحلم الذي ودعه (مدينة بعقوبة) حيث زنابق دم زوجته الشهيدة، وبغداد منفاه الالزامي الذي تحول الى مجتمع كامل يرعاه ابراهيم الخياط بقلبه الكبير وحبه العميق لكل انسان.

هذا الشاعر التقدمي، والاكاديمي المنتظر ..؛ لم يأخذ حضوره النسيان، وانما كان شاغل كل من: د. محمود الخياط ود. عمران الخياط .. اللذين اصدرا عنه مؤخرا كتابا يحمل عنوان (مجلة الثقافة الجديدة ودورها الثقافي في العراق ابان العهد الملكي/ د. ابراهيم الخياط).

اعداد هذا الكتاب الذي اصدرته مؤسسة ثائر العصامي – بغداد مؤخرا، يعد الاطروحة التي كان قد انجزها الشاعر والباحث الراحل ابراهيم الخياط، لتكون اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه، الا انه ودعنا قبيل مناقشتها بمدة زمنية قصيرة.

هذه الاطروحة (الكتاب يقع في 144 صفحة) ناقش الباحث فيها تاريخ ومسار المجلة والصادرة في (عامي 1953 - 1954) وهي مرحلة العهد الملكي، حيث كانت اهداف المجلة تتجلى بعدم فصل القضايا الثقافية عن القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والعلمية، كما كانت تحمل شخصية متميزة في شكلها وتبويبها.. وجاءت هذه الاعداد بمثابة "وثيقة تاريخية مهمة بحسب سجلت من وقائع وما حللت من حوادث واحداث من التاريخ العراقي المعاصر.."

وقد دوّن الباحث اسماء المحررين والكتاب العراقيين للأعداد الاولى للمجلة وهم: (د. صلاح خالص، د. ابراهيم كبة، عبد الوهاب البياتي، شاكر خصباك، بدر شاكر السياب، مهدي الرحيم، عبد الملك نوري، محمود صبري، نهاد التكرلي، كامل الجادرجي، د. فيصل السامر، عطا صبري، نوري الراوي، فؤاد التكرلي، اسماعيل الشيخلي، ابراهيم اليتيّم، ديلان، عبد الرزاق الشيخلي، د. عز الدين مصطفى رسول).

وهي اسماء لامعة، ما زالت تحظى باهتمام الاوساط الثقافية والشعبية التي تواصلت معها.

ان هذا الجهد الرائع والنبيل الذي قدمه زميلنا الفقيد الراحل ابراهيم الخياط، سيظل تاريخا مضيئا ونبراسا حيا امام الاجيال..

كما ان الجهد الذي قدمه: د. محمود الخياط ود. عمران الخياط في إعداد هذا الكتاب جهد طيب ومحمود، يحفظ للباحث غنى وأصالة اطروحته العلمية.

ا. بدران

2017
KH. MAHMOOD